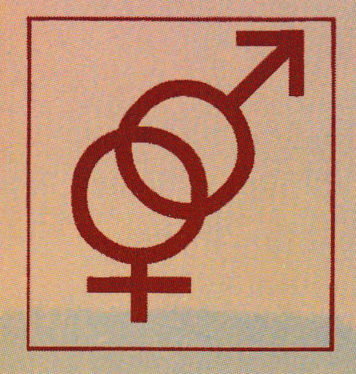
الجنس في أنواره وظلاله

رؤية إنسانية وإيمانية



كوستي بندلي

منشورات النور

كوستي بندلي

الجنس في أنواره وظلاله

رؤية إنسانيّة وإيمانيّة

الى رفيقة العمر، التي
علّمتني بصمت، في
الحياة والحبّ، الشيء
الكثير.

« الجنس أمر عظيم (...) إنّه خبرة كبيرة ، لا متناهية ، تُمنَح لنا (...) الرديء ليس تقبّلها ، الرديء هو ان يسيء الكلّ تقريبًا التعامل مع هذه الخبرة ، وأن يفسدوها ، وأن يجعلوا منها إثارة يتدبّرون بها لحظات الضيق والضجر في حياتهم ، وتشتّتًا وتبعثرًا بدلًا من تركيز نحو القمَم » .

الشاعر النمساوي راينر ماريا ريلكه

(١٨٧٥-١٩٢٦)

Rainer Maria RILKE: Lettres à un jeune poète, lettre du 16 juillet 1903, Le Livre de poche, Paris, 1993, pp. 48-49.

المقدّمة

هذا الكتاب يجمع ويعيد صياغة دراسات امتدّت على نحو من ربع قرن، من ١٩٧٢ الى ١٩٩٨، وتناولت، إجابةً عن أسئلة طرحها عليّ الشباب من مختلف المناطق والمذاهب، موضوع الجنس بمختلف أبعاده وتشعّباته، برؤية تتآزر فيها وتتشابك، انما دون اختلاط، النظرة الإيمانيّة من جهة، واجتهاد فكريّ يستند إلى معطيات علم النفس الحديث من جهة أخرى. إنّه، من هذه الناحية، مكمّل لكتابي الأوّل في الموضوع، وهو «الجنس ومعناه الانسانيّ»، الذي صدر للمرة الاولى سنة ١٩٧١، عن منشورات النور في بيروت، وصدرت مؤخّرًا، عن نفس الدار، طبعته الرابعة، وهو كتاب أتيح له، بفضل الله، ان يخاطب العديد من الشباب، وأن ينقل إليهم رؤية لم يألفوها، حيّاها الشاعر الكبير، المرحوم الأستاذ يوسف الخال، بكلمات مؤثّرة نُشرت وقتها في «ملحق النهار».

الفترة الزمنيّة التي يغطّيها الكتاب الحاضر شهدت في الغرب انفجار ما عُرِفَ بـ«الثورة الجنسيّة»، التي نادت بتحرير الفرد عبر «تحرير الجنس» من كل قيد وإطلاق العنان لنزواته بدون أي رادع، عملًا بذلك الشعار الذي سُجّل على جدران المباني الجامعية في باريس، أبان الانتفاضة الشبابية في ايار ١٩٦٨، والقائل «يُحَرَّم التحريم» ("Il est interdit d'interdire"). ولكن سرعان ما

أُجهض الحلم، واتّضح ان تيار «الحريّة الجنسيّة» قد أخطأ مرماه وانقلب على أهدافه، فحجّم الحريّة بإفرازه نمطيّة وإكراه من نوع جديد، وقزّم الجنس وأخمده بإفراغه من فحواه وفرحه، وصودر واستُغِلّ من قِبَل مصالح تجارية ضخمة وجشعة، آخر اهتماماتها تحرير انسان لا ترى فيه سوى أداة للكسب الوفير. هذا الإخفاق، اشار اليه العديد من النقّاد، كان من اواخرهم الباحث الفرنسي جان كلود غيّبو Jean-Claude Guillebaud في كتابه الملِفت الصادر سنة ١٩٩٨ عن منشورات Seuil الباريسيّة بعنوان «طغيان اللذة».

ولكن هذا لا يصبّ، على عكس ما قد يُظنّ، في صالح التزمّت الجنسيّ، ذلك الشقيق اللدود للإباحيّة، التي تغتذي منه كما يغتذي هو منها، ويجتمعان كلاهما، في آخر المطاف، على تبخيس واحد للجنس بتجريده من انسانيّته. ذلك أنّ «الثورة الجنسيّة»، على اخطائها وعلّاتها، قد تركت لنا رصيدًا إيجابيًّا لا يمكن إغفاله او الاستهانة به، وهو بالضبط على نقيض ما يَجْتَرّهُ التزمّت منذ القديم. فقد أعادت اكتشاف المكانة الأساسيّة التي يتمتّع بها الجنس في الحياة الانسانيّة، ودوره المحوريّ فيها، الذي يتعدى وظيفة الانجاب. بعد «الثورة الجنسيّة»، اصبح لا مناص من تأكيد ما كان قد بيّنه تيار التحليل النفسيّ، وهو أنّ الجنس لا يمكن الاستخفاف به او القفز فوقه، بل هو مجالٌ حيويّ من مجالات الحياة الانسانيّة، تمتد آثاره الى كافة المجالات الاخرى لتخصبها أو تعيقها، وأنّ حتى من شاء تجاوز تعابيره البدنيّة سعيًا الى تحقيق حبّ أكبر، لا بدّ له أن يستند هو أيضًا الى ديناميّة الجنس، وإن كان ذلك في خطّ التسامي بهذه الطاقة المبدعة.

كتابنا يندرج في خطّ هذا التقويم، الايجابيّ أصلًا، للجنس، وعنوانه يشير الى ذلك اذ يتحدث عن «أنوار» الجنس و«ظلاله» ويقدّم الاولى على الثانية. فالنور سابق للظلّ، ولا وجود للظلّ إلّا اذا اصطدم النور بعوائق آلت الى حجبه. يقيننا أن الجنس نيّر في اصالته وأن ما قد يصدر عنه من شرور - لا يمكن لأحد أن ينفي كثرتها وخطورتها، خاصة اذا نظرنا الى مخازي عالم اليوم في هذا المجال - إن هو الا نتيجة لانحرافه عن هذه الاصالة، سعيًا إلى الرخيص والمبتَذَل. علمًا بأنّ طريق الأصالة شاقة في كل الميادين، وتتطلّب بالتالي يقظة دائمة وكفاحًا دؤوباً.

انّما بيت القصيد هو، كما يبدو لي، في تحديد نوعيّة هذا الكفاح، كي يأتي في مساره الصحيح ولا ينقلب على أهدافه، فيخدم الزيف بدل الأصالة، والموت بدل الحياة. هنا لا بدّ، برأيي، من تجاوز صراع عقيم بين جنس يُختزَل في ناحيته العزيزيّة، وبين شريعة (أخلاقيّة أو دينيّة)، تُعتبر مسلَّطَةً عليه من خارج ومن فوق. ان صراعًا من هذا النوع، كما أثبتت خبرة طويلة ومريرة، يُجَزِّئ الانسان، ويحكم عليه بالتمزّق بين وجه اساسيّ من كيانه، وبين وجه آخر، اساسيّ هو ايضًا، بدل تحقيق وحدة حيّة، متناسقة، تحفظ لكل بعد حقّه وتغني به البعد الآخر. هذا النمط من الصراع يؤدّي الى تجريد النزعة الجنسيّة من انسانيّتها، وبالتالي الى اذكاء ما هو فظّ وعشوائيّ فيها. وقد يؤدّي القمع المقرون بالتجاهل الى إسكاتها في الظاهر، ولكنها، في هذه الحال، تبرع في التحايل على الشريعة التي تتنكّر لها، فتتستّر بشتّى الأغطية وتتسرّب، متخفّية تحت هذه

الاقنعة، الى كلّ مجالات السلوك الانسانيّ فتشوّهها، مفسدة إيّاها بالوسواس والتسلّط والتشنّج والقسوة...

المطلوب اذاً ليس قمع الجنس بل هدايته عبر تحويله بالحبّ. وعندما نقول «هدايته» و«تحويله»، فلسنا نقصد بذلك ان يتحوّل الى شيء غريب عنه، بل الى ما هو جوهره، الى قلب قلبه اذا صحّ التعبير، الا هو اللقاء، المسجَّل التوقُ اليه، كما سوف نرى، في صميم الجنس لدى الانسان. المطلوب اذاً، لا «الحدّ من غلواء الجنس»، كما يُظنّ ويُقال، بل، على العكس، تحاشي مسخه وتحجيمه، بل الذهاب به الى أقصى شوطه، عِبرَ إطلاقه من قيود الانطواء البخيل، بل انقاذه من التفاهة والسأم اللذين يضيع فيهما، كما تغور المياه الحيّة في الرمال، اذا ما اختُزِلَ في الإثارة الرخيصة وسطحيّة الأحاسيس.

تلك هي الافكار التي تكوّن لحمة هذا الكتاب، الذي لا بدّ أن يجد القارئ فيه بعض التّرداد، لأنه مجموعة دراسات مستقلّة كتبت في أوقات مختلفة. ما قد يشفع بهذا التّرداد كون العناصر المتكرّرة انما تأتي كلّ مرة في إطار مختلف، من شأنه أن يمنحها نكهة متميّزة.

طرابلس – الميناء (لبنان)، في ١٩٩٩/٤/٢٠

في نور الزمن الفصحيّ

المؤلف

ك.ب

القسم الأوّل

الإيمان أمام تحدّي الإباحيّة الجنسيّة في عالم اليوم

تقديم :

يشمل هذا القسم فصلين :

١- هل «أصبحت العفة مستحيلة في مجتمعنا»؟ تيار «الحرية الجنسية»: تحليله وتقويمه (١٩٨٠)

٢- انتشار الشذوذ الجنسي (١٩٨٦-١٩٨٧)

الفصل الاول

هل « أصبحت العفّة مستحيلة في مجتمعنا » ؟

تيار « الحرية الجنسية » : تحليله وتقويمه (١٩٨٠)

تقديم

هذا الحديث أُعِدّ ، في الأصل ، ليُلقى ، في ١٩٨٠/١٠/٢٠، في لقاء ضمّ ، في دير مار جرجس الحميراء ، فريقًا من الطلاب الجامعيّين الأرثوذكسيّين توافدوا اليه من سائر المناطق السورية . وقد انطلق الحديث من السؤالين التالي ذكرهُما ، اللذين طرحهما هؤلاء الشباب في إطار تساؤلاتهم حول العيش المسيحي وسط تحدّيات العصر :

- « مواجهة مشاكل الجنس ، العفّة أضحت مستحيلة في مجتمعنا للجنسين تقريبًا . العفيف يُتّهم من الآخرين رفاقه بِتُهم ساخرة . ممارسة الجنس قبل الزواج أمر عاديّ وضروريّ برأيهم . وهذا ما يخلق شعورًا بأنّ الدين ليس للحياة في هذا الزمان وللبشر ... صعوبة التفكير بالزواج بسبب الغلاء ، حيث تواجه الشاب مشاكل تأمين العمل وخدمة العلم

الالزامية، ثمّ تأمين المال للسكن... الخ ...».

- «... الغالبية (...) لا تلتزم بشيء حيث تبدو لا مبالية بكل واقع المجتمع. يهمّها الجنس والمال».

من الواضح ان هذين السؤالين يطرحان مسألة عيش العفة في بيئة شرقية بدأت تغزوها (شأنها في ذلك شأن العالم كلّه) التيارات الفردانية («لا تلتزم بشيء») والاستهلاكيّة والاباحيّة («الجنس والمال») الواردة من الغرب. لذا ركّز الحديث المنطلق منهما على تيار «الحرية الجنسيّة» (التي تصبّ فيه التيّارات الثلاثة السالف ذكرها)، كما تكوّن في المجتمع الغربي الصناعي، متناولاً اياه بالتحليل والتقويم. ويُستعاد هنا نصّ هذه المداخلة مع بعض التعديل.

مقدّمة : منطلقات رؤية انجيلية للجنس

○ لن أتناول موضوع العفّة من ناحية ناموسيّة - ان المنظار الناموسيّ (منظار الحلال والحرام، المسموح والممنوع، ممارسة الجنس تجوز في الزواج ولا تجوز خارجه) شائع، للاسف، عند المتديّنين، وهذا ما يجعل «الدين» يبدو على هامش الحياة، لان الانسان المعاصر - والشباب بنوع أخصّ - ينشد القناعة الوجدانية ويرفض الخضوع لقواعد مُسبَقة لا تعني له شيئًا. إنّه، في افضل ما لديه، يبغي، في آخر المطاف، الأصالة والتحرّر من الزيف، فيصطدم بما يسمّى بـ «التقاليد الدينيّة». ولكن هل هذه التقاليد هي الدين على

حقيقته، وهل هي، على وجه التحديد، متماهية مع مسيحية الانجيل ؟

○ ليست المسيحيّة ناموسًا، انها حياة جديدة ورؤية جديدة للوجود، انها حياة الله وفكره زُرعا فينا بيسوع المسيح. من هذه الحياة الجديدة والرؤية الجديدة ينبع نمط جديد من الوجود، أسلوب جديد في العيش، هو وليد لا الناموس بل النعمة، أي وليد مشاركتنا لحياة الله التي أنعم الله بها علينا في يسوع المسيح. هذا النمط الجديد يتلخّص في المحبة التي بها نشارك حياة الله: «الله محبّة. من أقام في المحبة، أقام في الله والله فيه» (١يوحنا ٤:١٦)، والتي بها تُختصَر وتُتوَّج كل شريعة الله، اي كل ما يريده الله منا من سلوك:

* «لأن الناموس كلّه يُتَمّم في هذه الوصية الواحدة: «أحْبِبْ قريبك كنفسك.» (غلاطيه ٥:١٤).

* «لا يكن لأحد عليكم حقّ ما خلا المحبة المتبادلة؛ لأَنَّ مَن أَحَبَّ القريب قد أتمَّ الناموس. فإنّ هذه الوصايا: «لا تَزْنِ، لا تقتل، لا تَسرق، لا تشهد بالزور، لا تشتَهِ»، وكل وصيّة أخرى، تُلَخَّص في هذه الكلمة: «أَحْبِبْ قريبك كنفسك». إنَّ المحبة لا تصنع بالقريب شرًّا؛ فالمحبة إذَن هي تمام الناموس». (رومية ٣:٨- ١٠).

○ ليس للسلوك الجنسيّ قاعدة أخرى غير تلك. العلاقة الجنسيّة معدَّة لتكون الاتصال الأكثر حميمية بين شخصين، لأنّها اتصال يتمّ في الجسد حيث يتجمَّعُ الكيان كلّه للقاء كيان آخر.

انها معدّة لتكون أكثف تعبير عن الانفتاح التام بين شخصين والتكاشف الصميم بينهما (« المعرفة » ، في لغة الكتاب) ، ولذا اتُخِذَت صورة مُفَضَّلة لاتحاد الله بشعبه (الانبياء ، نشيد الانشاد ، الأناجيل، الرسالة الى أفسس ، الرؤيا) ورفعت في الكنيسة الى مرتبة السرّ .

القاعدة الانجيليّة الوحيدة للسلوك الجنسيّ هي إذًا ، في آخر المطاف ، أن يعاش الجنس على حقيقته ، أن يُحقّق الجنس أصالته ، أي أن يكون بالفعل معبرًا الى الآخر ، مكانًا تعاش فيه المحبة بشكلها الأكثر تجسيدًا ، بحيث يصبح فيه التحام الأجساد لغة تعبّر بصدق عن التحام حقيقيّ بين كيانين ، عن تواصل صميم بينهما ، به يهب كلّ منهما ذاته للآخر ويتقبّله بآن . القاعدة الانجيليّة الوحيدة للجنس هي توظيف الطاقة الجنسيّة في حركة خروج من الذات للقاء الآخر (سواءً تمّ ذلك عبر الممارسة الجنسيّة الفعليّة ، ام عبر امتناع المرء عنها بغية تفرّغ اكبر للآخرين وفقرٍ أكبر الى ربّه) ، بدل استخدامها لبلوغ لذة انطوائيّة ، انعزاليّة ، تدير الظهر للآخر أو تتّخذه مجرّد ذريعة لها . القاعدة الانجيليّة في هذا الميدان هي رفض الازدواجيّة الكاذبة ، الزائفة ، حيث يمثّل الجسد حركات الاتحاد ، في حين انّ صاحبه منهمك بذاته ، مغترب وغائب عن حقيقة الآخر . أصالة العلاقة هي إذًا المحكّ في كلّ تقويم انجيليّ للسلوك الجنسيّ وكل مفهوم انجيليّ للعفّة والزواج .

يقول اللاهوتي الارثوذكسي أوليفيه كليمان بهذا الصدد :

« ليس أن الجنس رديء بحدّ ذاته . على العكس ، فلأنّه حسن في الأساس ، حسن من حيث هو مساهمة شخصين في نسمة الحياة التي تحمل الكون ؛ لأنّه اللغة الأقوى والأعنف التي يُتاح لكائنين أن يتخاطبا بها ، لأنّه يجعل منهما « جسدًا واحدًا » (...)؛ لأجل ذلك كلّه يقتضي أن يصير الرجل والمرأة جديرَين بهذه اللغة... غالبًا ، في اللقاءات العابرة ، لا نكون جديرين بِجنسِنا ، اذ نُعطى لغة في حين انه ليس لدينا شيء نقوله . الخطيئة ليست أن ننتهك مُحرَّماً : فالانجيل يقول المعنى ، يشير الى درب الحياة ، ولكنّه لا يملي قانونًا . الخطيئة هي هذا اللقاء الأعمى ، هذا الجهل للآخر في نفس العمل الذي يسمّيه الكتاب « معرفة » ، انها الوجه الذي نحوّله الى جسد في حين أنّه يُفْتَرَض تحويل الجسد الى وجه . الخطيئة ، نستشعرها أحيانًا في الكآبة المؤلمة التي تعتري من عاش أمرًا فائق الأهميّة دون أن يتمكّن من التوافق معه فعلًا ...»[١]

من هذا المنطلق ينبغي أن نواجه تيار ما يسمى بـ« الحريّة الجنسيّة » في المجتمع المعاصر ، علّنا نكتشف سلبيّاته وايجابيّاته في ضوء ايماننا ، من جهة ، ونسائل ، من جهة أخرى ، انطلاقًا من تحدّيه ، مواقفنا الدينيّة لنرى إن كانت تنسجم حقًّا مع رسالة الإنجيل .

أوّلًا : النظرة التقليديّة المحقّرة للجنس

ما يلفت نظرنا بادئ ذي بدء أنّ تيّار «الحريّة الجنسيّة» المعاصر، إنّما هو، الى حدّ بعيد، ردّ فعل عكسيّ ضد الموقف التقليديّ من الجنس. هذا الموقف التقليدي، الذي لا يزال يتمتع بنفوذ قويّ، خاصةً في بلادنا، قد يبدو للوهلة الاولى منسجمًا مع متطلّبات الايمان. ولكن نظرة متمعّنة اليه سرعان ما تبدّد هذا الوهم. ذلك أنّ النظرة التقليديّة الى الجنس تعزل الجنس عن مجمل الشخصيّة الانسانيّة، لانها ترى فيه مجرّد طاقة غريزية حيوانية، لا قيمة انسانية لها إلّا من حيث أنّها تؤَمّن استمرار النوع الانسانيّ. لذا فالموقف التقليديّ من الجنس يحقّر الجنس ولا يهتم به إلّا من حيث اتّخاذ شتى الوسائل والتدابير لقمعه، متساهلًا معه في حالة واحدة، الا وهي حالة الزواج، حيث يُسمح به كتنفيسٍ عن الغريزة يحول دون تفجّرها المدمّر، وكأداة للتناسل لا غنى عنها. أمّا الجنس كبعد أساسيّ من أبعاد الانسان، من حيث هو حامل لطاقة الحبّ ومشروع اللقاء - تلك هي حقيقته، المنسجمة مع نظرة الايمان المسيحي اليه - فغائب، كما هو واضح، في التصوّر الذي نحن بصدده.

ثانيًا : تيّار «الحريّة الجنسيّة» وانحرافاته

١- إعادة اكتشاف قيمة الجنس...

الإنسان المعاصر اكتشف، على نقيض هذه النظرة التحقيرية الى الجنس، القيمة الكبرى الكامنة في تلك الطاقة، وأهميّتها من أجل

انشراح الانسان وانطلاقه وسعادته. وقد كان لهذا الاكتشاف عدة عوامل، منها غربة الانسان في المجتمع الصناعي الآليّ، التي دفعته الى العودة الى الغريزة علّه يجد انتعاشًا بتماسّه عبرها مع حقيقة الحياة، التي أصبحت مغيَّبة عنه، ومنها اكتشافات علوم الانسان المعاصرة، وخاصة التحصيل النفسيّ الذي كشف حجم الجنس وبيّن امتدادته في كافة مجالات الوجود الانسانيّ ...

نتيجة ذلك كله، كان ما سُمّي بـ « الثورة الجنسيّة »، التي تمرّدت بعنف على الموقف التقليديّ، ونادت بفكّ الجنس من « قيوده »، مطلقة شعار « الحرية الجنسية ».

٢– ... انما ليس بدون مسخه وتقزيمه

ولكن هذه « الثورة » ورثت عن الموقف الذي قامت لتنقضه، عزله للخبرة الجنسية عن مجمل الشخصية الانسانية، فإذا بها تركّز بشكل مفرط على بعدها الفيزيولوجيّ البدنيّ، وعلى ما تمنحه من لذة على هذا الصعيد، متجاهلة أبعادها النفسية، العاطفية، العلائقية، التي تمنحها صفتها الانسانية الفريدة.

من هنا التركيز المفرط على التقنيّة الجنسية، كما تصوّره مثلاً باحثتان في حديثهما عن الإعلام الجنسيّ المنتشر جدًا في السويد.

تتكلّمان عن فيلم أنتجه زوج من الإخصائيّين النفسيّين يُدعيان Sten et Inge Hegeler، بعنوان « مزيد من لغة الحبّ » More of language of love، تصوّر فيه الكاميرا الحركات الجنسيّة بأدقّ تفاصيلها، ثم يعلّق عليها ويناقشها خبراء. تقول الباحثتان إنّ ما

يلفت النظر في هذا الفيلم، انّما هو غياب علاقة انسانيّة حقيقية بين الشريكين. ما يراه المشاهِد هو رياضة جنسيّة متفاوتة الجمال يرافقها حوار «علميّ». وكأنّ غاية هذه التربية الجنسيّة أن تبيّن مختلف أنواع اللذة والتقنيات الجنسيّة التي تتيحها، متناسية ان الانسان له ايضًا عاطفة وحاجات نفسيّة على درجة من التعقيد(٢).

تعليقي الشخصي، بالرجوع الى عنوان الفيلم المذكور، أنّ هناك استرسالاً في وصف مفردات «لغة الحبّ»، انّما في غياب الحبّ. فهل تبقى اللغة لغة اذا فُقد المضمون؟

وترجِّع المجلّات النسائية في الغرب صدى هذه الذهنيّة التي تجعل من السعادة الجنسيّة مجرّد حصيلة للبراعة التقنيّة، الى حدّ أن مجلة Réponse à tout Santé. مثلًا تعرض على قارئاتها «السماء السابعة (أي النشوة الجنسيّة) في ست دروس»(٣).

يلاحظ الفيلسوف والمحلّل النفسي الاميركي إريك فرومّ أن المجتمع الصناعي في البلاد المتقدّمة، في المنتصف الثاني من القرن العشرين، يُمَكْنِنُ mécanise الانسان، بما في ذلك الجنس لديه، ويوجد انسانًا من نمط جديد، سِماته إنه يحوّل انتباهه عن الحياة، والاشخاص، والطبيعة، والأفكار، وبعبارة واحدة عن كلّ ما هو حيّ، وإنّه يحوّل كل حياة الى شيء من الاشياء، بما في ذلك هو نفسه ومختلف أنماط نشاطه، وبينها أسلوبه في الحبّ. هكذا يُضحي الجنس مجرّد براعة تقنيّة (ما يُسمّى بآلة الحبّ "Love - machine"). أما المشاعر فتُسحَق: بدل الفرح وما يشبهه من تعابير

حياة زاخرة، يحلّ المزاح الماجن "la "rigolade أو الاحاسيس المثيرة، في حين ان ما يمكن أن يجويه الانسان من حبّ وحنان يوجَّه نحو الآلات ومشتقاتها[٤].

وفي نفس الخطّ، نرى مفكّرًا روسيًا هو سرج أڤرنتسيف Averintsev، في حديث له لمجلة الاونيسكو (تموز ١٩٩٠)، ينبري للدفاع عن الطبيعة الانسانيّة التي رآها مهدَّدة بِمكْنَنَةٍ للجنس تحكم عليه بمنتهى الابتذال. يقول:

« الحياة يغزوها الشَبَق. ولكنه ليس شبقًا جسديًا، عضويًا. بل بالأحرى كأنّ هناك آلات تنهشها الشهوة أو تَدمُغَ بطابعها الآليّ جسد الانسان » [٥]

٣- دور مجتمع الاستهلاك في الترويج لهذه الصورة المبتورة للجنس

هذه النظرة المبتورة، كسابقتها وإن بلون آخر، الى الجنس، روّجت لها ورسّختها إواليات mécanismes « مجتمع الاستهلاك » المعاصر. هذا المجتمع قائم، كما هو معروف، على هاجس بيع اكبر كمية ممكنة من السِلَع، بغية زيادة الكسب وتحريك الانتاج. فمن هذا المنظار تناول الجنس، فقزّمه بتسخيره لأغراض التجارة وتحويله الى أداة للكسب، وذلك عن طريق اعتباره سلعة من جهة، واستخدامه لترويج السِلَع من ناحية أخرى. وقد قيل بحقّ: « ... الجنس يُباع كسلعة، السلعة تُباع عن طريق الجنس »[٦].

أ - الجنس كَسِلْعَة

لقد اتّخذ مجتمع الاستهلاك الجنس سلعة من سلعه المفضَّلة[7]، وتهافت على بيعه بشتى الاشكال والوسائل، عِبْرَ أفلام الشاشة الكبيرة والصغيرة، والروايات والأغاني والصور. ولكن تحويله الى سلعة كان يعني بالضرورة تشييئه[8]، طمس البعد الشخصي والعلائقي فيه، تجريده من المضامين الانسانيّة، وتحويله الى مجرّد رموز للإثارة تتّخذ شكل الصورة أو الكلمة أو اللحن.

هذا ما يتّضح بشكل صارخ ومفجع في مأساة مارلين مونرو، التي تعمّدت المصالح التجارية السينمائيّة تحويلها الى رمز جنسيّ بحت، متجاهلة صفتها الشخصيّة الانسانيّة، مما أدى في النهاية الى انتحارها.

ب - الجنس كمُروِّج للسِلَع

ثم ان « براعة » القيّمين على مجتمع الاستهلاك، دفعتهم الى استخدام الجنس، لا كسلعة فحسب، بل كحافز لبيع سائر السِلَع. فإذا بالإعلان يتفنّن في تسخيره للدعاية لسائر المنتوجات، من الألبسة الى العطور ووسائل التجميل ومعجونات الاسنان، الى الأشرطة والترانزستورات، الى الحلويات والسجاير والمرطّبات والادوات المنزليّة والسيارات. أسلوبه في ذلك هو إقران الاغراء الجنسيّ بصورة السلعة المعروضة (**مثلاً**: في الدعاية لصنف من الشوكولا، التركيز على الشفاه الفاتنة التي تلتهم قطعة الشوكولا)، بحيث يتّخذ استهلاك السلعة، في ذهن المشاهِد وشعوره الباطنيّ، نكهة جنسيّة تشحذ رغبته بها. ولكن ما يعطي الاستهلاك طعمًا

جنسيًا ، على المنوال المذكور ، يعطي الجنس ، بالمقابل ، طعمًا استهلاكيًا (في المثل المذكور يُوازي بين الشفاه وبين قطعة الحلوى) ، بحيث يعتاد المشاهِدْ على النظر الى جسد المرأة ، لا كما الى مكان إطلالة شخص حيّ مدعوّ ان يكون شريك حياة ، بل كما الى شيء يثير الشهيّة على نحو ما يثيرها الطعام والشراب وسائر السِلَع الاستهلاكية التي يمعن الاعلان التجاري في ربط الجسد الانثوي بها . ولنأخّذ مثلًا آخر على ذلك ، بين آلاف الأمثال . ففي الماضي تردّدت على الشاشة الصغيرة ، دعاية تمثل مشهد اتصال جنسيّ يقترن بتدخين صنف من السجائر (ولنُسمِّه ×) ، ثم يأتي الإعلان : « اذا تمتعت بملذات الحياة ، تَوِّجْ متعتك بنكهة × . نكهة × هي الكمال في المتعة » . وإذا بالاتصال الجنسيّ ، الذي اختزلته عبارات الإعلان بـ« الملذّات » والـ« متعة » ، متجاهلة بعده اللقائيّ الجوهريّ ، يوضع ، بالاضافة الى ذلك ، في نفس مستوى التمتّع بطعم سيجارة ، أي انه يُعطى طابعًا استهلاكيًا بحتًا !

هنا ايضًا تجدر الاشارة إلى استخدام السينما لخدمة أغراض المصالح التجاريّة . ولنا مَثل على ذلك في ما ذكرته الصحف بصدد طلاق الممثلة الشهيرة فَرَح فَوْسِت من زوجها لي مايجرس ، وعزمها على الزواج من آخر . فقد روت الصحف كيف أن مايجرس المذكور كان ، لإغراض تجارية ، قد حوّل زوجته الى أكبر « رمز جنسيّ » بعد مارلين مونرو ، وكيف حقّق ، من وراء ذلك ، الارباح الطائلة . ففي ١٩٧٧، بيعت في الأسواق الاميركية مليون صورة كبيرة posters لها ، وكانت حقوق الطبع محفوظة للزوج ، وفي

سنة ١٩٧٨ فاوض إحدى شركات إنتاجِ العطورِ على استخدامِ صورة زوجته لغاية دعائيّة لقاء ١٠ ملايين دولار . وقد ذكرت الصحف كيف أنّ الخلاف بدأ ، منذ ذلك الحين ، يدبّ بين الزوجين ، لأن فرح كانت تشمئِزّ من عملية تشييئها هذه ، مع أنّها كانت بالطبع مشاركة بالارباح ، لذا عارضت أن تُصوَّر شبه عارية (في مايو بيكيني) لأغراض إعلانية ، وقد صرّحت بشأن ذلك : «لم أرِدْ مرة أن أكون رمزًا جنسيًا . ما كنت أتمنّاه كان أن أستمرّ في إدارة منزلي وفي لعب كرة المضرب وفي حبّ رجلٍ مدى الحياة »[٩] .

٤- تحوّل الجنس الى عرف مفروض اجتماعيًا

الى جانب ذلك ، اتّخذت ممارسة الجنس ، في بعض أوساط الشباب ، شكل صرعة تفرض ذاتها على كلّ من أراد أن يجاري بيئته ويبدو « سويّاً » و« حديثًا » في نظرها ، وبالتالي في نظرته الى نفسه . وإذا بالكثيرين يقبلون على الخبرة الجنسية دون أي رغبة حقيقيّة بها ، انما فقط بدافع مجاراة الآخرين وخوفًا من ان يُعتبروا شاذّين ومُعقَّدين (مما يذكّرنا بـ« التهم الساخرة » التي يلصقها الرفاق بالعفيف ، على ما ورد في السؤال الذي انطلقنا منه) ، واذا بهم يتأذّون نفسيًا بسبب هذا التناقض بين ممارساتهم من جهة ، واستعداداتهم الذاتية من جهة أخرى ، كما بيّنت المحلّلة النفسيّة هيلين دوتش ، استنادًا الى عملها العياديّ بين المراهقين في الولايات المتّحدة[١٠] .

ويشير الباحث جان كلود غيّبو لى ان التلفزيون والسينما

يعرضان، يومًا بعد يوم، نماذج مُلْزِمَة من السلوك الجنسيّ، بحيث ان من لا يتمكّن من التقيّد بها يشعر بالدونيّة والخجل وحتى بالالم. هذا ما يؤدّي الى نتائج يندهش لها علماء الاجتماع الذين ينكبّون على دراسة سلوك الراهقين. وقد تبيَّن لاثنين منهم أن الفتيات الاميركيات يحرصن على أن يأتي سلوكهنّ اثناء العمل الجنسيّ مطابقًا لما يرد بهذا الصدد في الافلام. لذا فانهنّ يركّزن، طوال العمل الجنسيّ، على تمثيل المظاهر المطلوبة، مما يشوّه ويزيّف تعاطيهنّ مع الشريك(١١).

المفارقة هنا ان «الحرية الجنسية» انقلبت على ذاتها، وآلت الى نقيضها. هنا أيضًا نرى الانتقال من نقيض الى نقيض يخلّد الماضي ولو بشكل معكوس في الظاهر. فالتحريم الاجتماعي tabou الذي كان يُفرض على ممارسة الجنس، يُفرَض بنفس القوة على الامتناع عن ممارسته. وفي كلا الحالتين استلاب للشخص...(١٢).

٥- إفراغ الجنس من فحواه ونكهته

هناك وجه آخر لانقلاب «الحرية الجنسية» على ذاتها، أكثر عمقًا وفداحة من السابق. ذلك أن بتر الأبعاد الانسانيّة العلائقية للجنس وحصره في دائرة الاشباع الغريزي البَدَنيّ، قد عطّل القصد الرئيسي لتيار «الحريّة الجنسيّة»، ألا وهو إسعاد الانسان عِبْرَ تحرير الجنس من قيوده وإفساح المجال له، بالتالي، كي يحقّق ملء طاقاته. ولكن الجنس لا يتحقّق، لا يُسعِد الا إذا عيش في إطار علاقة وجدانية حميمة. خارج هذه العلاقة يتحوّل الى عملية

سطحية تافهة قد تمنح المرء رعشات لذة ولكنّها لا تروي غليلًا[١٣]. هذا ما كان واضحًا لدى فرويد – الذي كثيرًا ما تحاول تيارات الحرية الجنسية ان تنتسب اليه، دون ان تفهمه على حقيقته –، ولذا سمّى الطاقة الجنسيّة «ليبيدو» (وهي عبارة لاتينيّة تعني الحبّ) وبيّن أن استخدامها الرخيص يؤول الى تفاهتها[١٤].

هذا ما تثبته ظواهر عديدة في عالمنا الحديث:

- منها مثلًا ما أظهره استطلاع أُجريَ سنة ١٩٦٧ بين الطلاب الجامعيين في الولايات المتحدة، وقد أثبت أن هؤلاء لم يعودوا يهتمون كثيرًا بالعلاقات الجنسية، بسبب سهولتها الفائقة، بينما كثر انتشار المخدّرات فيما بينهم[١٥].
- ومنها النزعة (التي رأينا إريك فروم يشير اليها – راجع ٢) الى التحوّل من الجنس الى عشق الآلات، سعيًا الى إشباع أكبر. فالباحث النفسيّ بيار داكو يشير الى العلاقة بين «مكننة» الجنس وبين هذه الظاهرة، عندما يتحدّث عن «كل الذين يتحدثون عن الحب بعبارات ميكانيكية و، بالمقابل، يتناقشون في الادوات الميكانيكية مستعملين عبارات الحبّ».[١٦] وقد ذكر فرنسوا ميتّران، في كتاب ضمّنه بعض مذكّراته، كيف أن أحد «فرسان الدّراجات النارية»، وقد سأله مذيع في الراديو عن النساء، أجابه: «الدراجة هي امرأتي» (نذكر تعليق ميتّران على هذا الجواب في الفصل الثاني من هذا القسم)[١٧].

- ومنها ايضًا ما روَتَه الصحف عن المعرض الدولي الثاني للإباحية، الذي أقيم في مدينة اورانس في الدانيمارك في آذار ١٩٧٠، والذي خيّب أكثر زائريه رغم احتوائه على عرض علنيّ للاتصال الجنسي، كان يقوم به عارضون امام الجمهور. وقد عبّر أحد الزوّار، وهو أميركي من نيويورك، عن أسباب هذه الخيبة بقوله: «لم نَرَ إلّا جنسًا، وجنسًا فقط، دون عاطفة، دون الشروط التي تؤول الى نجاح الوصال الانسانيّ»[١٨].

الاباحية الجنسية المعاصرة – وهنا تكمن المفارقة – هي بالتالي استمرار لقمع الجنس، بحجة تحريره، وذلك من جراء تجريدها اياه من الطابع العلائقيّ الذي يعطيه وحده كلّ زخمه. هذا ما نبّه اليه عدّة مفكّرين، ومنهم ماركوز Marcuse[١٩].

ثالثًا: ردود فعل تتصدى، باسم الحرية، لانحرافات «الحرية الجنسية»

اذا تذكّرنا سلبيات تيار «التحرّر الجنسيّ»، التي تحدثنا عنها أعلاه، وكيف أنّ هذا التيار انقلب على أهدافه، بتحويله الجنس الى نوع من الواجب المفروض من جهة، وبإفراغه إياه من جلّ قدرته على إنعاش المرء وإسعاده من جهة أخرى، لا نتعجّب مما يلاحظ اليوم من ردود فعل عكسية تثيرها هذه السلبيات لدى الكثيرين من أبناء المجتمعات الغربية نفسها، وهي ظواهر إعراض عن الجنس، يستعرضها جان كلود غيّبو في كتابه المُلفِتْ «طغيان

اللذة » ، الصادر في باريس سنة ١٩٩٨[٢٠]، والذي أثار ضجّة وصدى في الجمهور الفرنسي. الظواهر هذه، التي يشير اليها الكتاب ، قد يتآزر ، في التسبّب بها ، الإحباط الذي خلّفته « الثورة الجنسية » ، وربما ايضًا الذعر الذي أشاعه انتشار السيدا (او الايدز) في الثمانينات والتسعينات ، مع صحوة خلقيّة وروحيّة .

- يقول هذا الباحث إنه لا يمضي أسبوع دون أن تخوض وسائل الإعلام الغربية موضوع ظاهرة الميل الجديد الى الامتناع الطوعيّ عن الجنس ، أو ما يُسمّى بـ« انخفاض الرغبة الجنسية » (LSD: Low Sexual Desire). وفي آذار ١٩٩٥، تحدّثت جريدة Stern الألمانية عن تلك الظاهرة في صفحتها الاولى ، واستشهدت باستطلاع للرأي يبيّن أنّ ألمانيًا من اصل ثلاثة ، من الذين تتراوح اعمارهم بين ١٧ و٣٥ عامًا ، يعتبر أنّ بإمكانه أن يمتنع لفترة طويلة عن الاتصال الجنسي .
- في البلاد الانكلوسكونية ، انطلقت حملة ، ذات أصل أميركي ، تحمل شعار True Love Waits (الحب الصحيح ينتظر) ، تدعو الفتيات أن يتصدَّينَ ، باسم الكرامة النسائية ، للإباحية الجنسية المعاصرة ، وأن يدافعن عن حقهنّ برفضها ، لا إذعانًا للتحريمات التقليدية ، بل حرصًا على حريتهنّ . وقد جنّدت هذه الحملة ، سنة ١٩٩٧، اكثر من خمسمائة الف متطوّعة شابة .
- إن أحدث الدراسات حول السلوك الجنسيّ لدى الشباب

الأميركي، تُظهر، للمرة الاولى منذ أن بدأت مثل هذه الاستطلاعات (أي منذ نهاية الاربعينات)، أن عدد النساء الشابات اللواتي أقمن علاقات جنسية قبل الزواج، قد انخفض بنسبة ٥٪ [٢١].

- يلاحظ العالم النفسي بوريس سيرولنيك، هو ايضًا، هذا الانقلاب، من المطالبة بإباحة اللذة الى المطالبة بإباحة رفضها، فيشير، سنة ١٩٩٥، الى أنّه، منذ حوالي عشرين عامًا، هناك أناس، في الولايات المتحدة، يعتبرون أنفسهم «مدمنين جنسيًا» ويسألون الاطباء أن يساعدوهم على التخلّص مما يعتبرونه استلابًا، وينظرون اليه أحيانًا على أنّه ضرب من الإدمان على المخدّرات، ويطالبون بعلاج يعتبرونه طريقًا الى استعادة حريتهم الفردية السليبة. ويضيف هذا الباحث أن هذه الظاهرة على تزايد حتى في أوروبا[٢٢].

رابعًا: الوجه الايجابي لتيار «الحرية الجنسية»

السلبيّات التي رأينا انها تشوب المواقف المعاصرة من الجنس، ينبغي أن لا تحجب ما في هذه المواقف من ايجابيات. فالانسان المعاصر، كما رأينا، أعاد اكتشاف القيمة الكبرى التي للجنس في الحياة الانسانية، وأعاد الاعتبار اليه، وهذا بحدّ ذاته أمر ايجابيّ، رغم ما يرافقه من أخطاء في التقدير. من جهة أخرى، اذا تتبعنا الأبحاث الميدانية التي تجري في الغرب في هذا المجال - هذا الغرب الذي تتأثّر بنماذجه قطاعات واسعة من مجتمعنا، من حيث نظرتها

الى الجنس – رأينا أن نسبة كبرى من شبابه تفهم «الحرية الجنسية»، لا على أنّها إطلاق العنان للغرائز، كما يتصوّر الكثيرون، لكن على أنّها استعمال مسؤول لها، بعيد عن الإباحية والتزمّت بآن، استعمال تضبطه وتوجّهه لا الأعراف الموروثة بل متطلبات العلاقة الانسانية الأصيلة(٢٣).

من هذه الزاوية ينبغي أن ننظر الى مواقف الشباب هناك من العلاقات الجنسية قبل الزواج. لقد ورد في السؤال الذي انطلقتُ منه، أن ممارسة الجنس قبل الزواج أصبحت أمرًا عاديًا وضروريًا برأي العديد من الشباب الجامعيين في سوريا. هذا صحيح أيضًا، وبالأحرى، بالنسبة الى شبيبة البلدان الغربية المصنَّعة. فقد أظهر تقرير شهير أُنجِزَ سنة ١٩٧٢، بإشراف الدكتور سيمون، حول السلوك الجنسيّ لدى الفرنسيّين(٢٤)، ان متوسط السنّ الذي تحصل فيه اول علاقة جنسية هي ١٨،٢ سنة بالنسبة للرجال، ١٩،١ بالنسبة للنساء، فيما أن متوسط سن الزواج هو ٢٤،٤ سنة بالنسبة للرجال، و٢٢،٥ سنة بالنسبة للنساء(٢٥). كذلك أثبت استطلاع أحدث عهدًا أُجري في فرنسا، أن ٩٥٪ من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٤ سنة، يصرّحون انّهم يؤيّدون العلاقات الجنسية قبل الزواج(٢٦).

ولكن هل يعني هذا إباحيّة وانفلاتًا للغرائز؟ إنّ عدة مؤشّرات تبرزها الأبحاث الميدانيّة، تعارض هذا التأويل، ومنها:

- ان تقرير سيمون المذكور أعلاه (وهو مؤلّف من ٣٠٠ سؤال طُرحت على عيّنة من ٢٦٢٥ شخصًا)، يثبت أن

نصف الشباب الذين يمارسون العلاقات الجنسية قبل الزواج، يمارسونها مع شريك بعد معاشرة له دامت أكثر من عام، كما يثبت انه في ٤١٪ من الحالات، يتمّ الزواج مع الشريك الذي قامت اول علاقة جنسية معه[٢٧].

- ويتبيّن من التقرير نفسه، أن ٥٣٪ من النساء، المتراوحة أعمارهنّ بين ٢٠ و٢٩ سنة، فقدن عذريتهنّ قبل يوم زواجهنّ، بينما كانت هذه النسبة تبلغ ٣٦٪ فقط في جيل أمهاتهنّ. ولكنه تبيّن ايضًا أن أغلبية الفتيات يعاشرن شابًا لفترة أطول من سنة، قبل أن يهبنَ ذاتهنّ له، وأنهنّ على وجه العموم يمارسن العلاقة الجنسية قبل الزواج مع ذلك الذي يصبح زوجهنّ لاحقًا[٢٨].

- إن استطلاعًا أجرته مجلة Paris Match سنة ١٩٦٦، كشف ان ٧٨،٤٪ من الشباب يعتبرون أن الوفاء هو الصفة الاساسيّة في الحبّ[٢٩].

- كذلك أثبت استطلاع أجرته جريدة الاكسبرس Express سنة ١٩٦٩، ان ٨٦٪ من الشباب يعتبرون أن الوفاء أساسيّ في الحبّ بالنسبة للشريكَين[٣٠].

- وكشف استطلاع آخر أُجرته جريدة الاكسبرس أن ٤٠٪ من الشباب، بين ١٥و٢٠ سنة، في فرنسا، يقولون إنّهم قد باشروا العلاقات الجنسيّة، وأنّ ٤٩٪ منهم يقولون انهم لم يباشروها، وأن ١١٪ منهم رفضوا الجواب، الا أنّ

الاستطلاع نفسه أثبت ان ٢٢٪ فقط من الشباب يوافقون على ان يُجري شباب من عمرهم، اتصالات جنسيّة، بدون حبّ[٣١].

- في دراسة أجرتها كاترين ڤالابريغ، عن الطلاب الجامعيين في فرنسا، اتضح لها أن الطلاب الرافضين contestataires، لا يكترثون إلا قليلًا بالمغامرات العاطفية العابرة، وأنّهم يعتبرون أنها كثيرًا ما تكون تعبيرًا عن عجز عن عيش العلاقة الثنائية. كما أن نفس الباحثة بيّنت أن «الكوبلات» التي تتكوّن بين الطلاب الجامعيّين تنتهي في كثيرٍ من الاحوال الى زواج[٣٢].
- يلاحظ الباحث الألماني اوسڤالت كولّه، من جهته، وهو كاتب واسع الاطلاع في شؤون الجنس، أن علماء الإجتماع الالمان يلاحظون ازديادًا ملموسًا في عدد العلاقات الجنسية الطويلة الأمَد، قبل الزواج، لدى الشباب الالمان. ويعزو اوسڤالت كولّه هذه الظاهرة الى كون الشباب يلاحظون بالخبرة أنّ التبديل المتكرّر للشريك يمنح لذّة عابرة ليس إلّا، تتبعها الخيبة في أكثر الأحيان، في حين أنّ الارتباط بشريك بالذات، لفترة طويلة من الزمن، يزيد من جاذبية الاتصال الجنسيّ، بدل أنّ يضعفها كما كانوا ربما يتصوّرون[٣٣].
- اما عن السويد، فترسم لنا باحثتان، Malewska et

Amzallag، الصورة التالية في كتاب صدر سنة ١٩٧٤:
« منذ عشر سنوات، يتحدث الجميع عن الحرية الجنسية السويدية!(...) البعض يستنكرها والبعض يبدي حيالها اعجابًا ساذجًا، ولكن هؤلاء واولئك يكوّنون فكرة خاطئة عن الموضوع. بالنسبة للبلاد اللاتينيّة او بلاد افريقيا الشمالية، التي يعظم فيها القمع الجنسي، تُعتبر السويد صورة للحريّة المنشودة. لذا تجد في كل صيف شبابًا يندفعون نحو هذا الفردوس المزعوم للإباحيّة ويعودون خائبين (...). ما يُنسى عامةً (...) هو أن الشباب السويديين، وإن كانوا يقيمون علاقات جنسيّة قبل الزواج، يبقون، على وجه العموم، اوفياء لشريكهم، وان الخيانة الزوجية مُستهجَنَة في السويد أكثر بكثير مما هي في البلاد اللاتينيّة »[٣٤].

من كل هذا يتّضح إن نسبة كبرى من شباب البلاد الغربية المصنَّعة، لا تبغي الإباحيّة في العلاقة الجنسيّة، إنّما تُخْضِع هذه العلاقة تلقائيًا لقواعد تنبع، لا من تقاليد موروثة أو أعراف اجتماعية ضاغطة، انما من القناعة الوجدانية؛ وإن هؤلاء، اذا كانوا لا يربطون حكمًا بين العلاقة الجنسية والزواج، فذلك لأنّ ما يهمّهم أكثر من الزواج، هو أن يؤلّفوا « كوبلًا »حقيقيًا، ولأنّهم يعتبرون أن ما يضفي الصفة الشرعية على علاقتهم الجنسية، ليس هو العرف الاجتماعيّ المعبّر عنه بعقد الزواج، انما هو أصالة العلاقة التي تكوّنت بين الشريكين[٣٥].

بعبارة أخرى، إن مضمون « الكوبل » أهمّ، بنظرهم، من شكله، وهذا موقف يفرض الاحترام ولا شكّ. بقي السؤال: لماذا لا يجتمع الشكل والمضمون، بحيث يكون الزواج، بما يتضمّنه من تعهّد متبادل يكرّسه المجتمع، إطارًا طبيعيًا لعلاقة ثنائية بلغت حدًّا كافيًا من الاكتمال؟ الجواب هو أن الزواج يفترض تعهّدًا نهائيًا، وهذا ما يتردّد كثيرون من الشباب، في البلدان الغربية، حيال الإقدام عليه، ولو كانوا يعيشون حبًا أصيلًا في « الكوبلات » التي يؤلّفونها. فكأنّهم، الى جانب تقديرهم الكبير للحبّ، لا يجسرون أن يؤمنوا بديمومته. وقد يكون هذا عائدًا، من جهة، الى كثرة حالات الفشل التي يشاهدونها في زيجات الراشدين حولهم (والناتجة، الى حدّ بعيد، على ما يبدو من ملاحظات بعض المهتمين بالموضوع[٣٦]، من الركون المفرط الى عقد الزواج بدل السهر الدؤوب على إحياء مضمونه)، ومن جهة أخرى، الى العوائق التي يقيمها المجتمع الآلي والاستهلاكي امام العلاقات الانسانية، بما فيها علاقة الحبّ، مهدّدًا اياها بالتفكك والانهيار[٣٧].

بالطبع توجد في مجتمعاتنا عوائق أخرى تحول دون الزواج، ومن جملتها ضرورة « تأمين المال للسكن ». ولسوف نعود لاحقًا الى هذا الموضوع (راجع: القسم الثاني، الفصل الثاني). ولكن قد يتساءل المرء هنا الى اي حدّ لا تتدخّل اعتبارات مرتبطة بالقيم التي يشيعها مجتمع الاستهلاك من جهة (والمتلخّصة في: أنت موجود، على قدر ما تُنْفِقْ وتستهلك)، وبحبّ الظهور الشرقيّ، من جهة أخرى (وهو حليف طبيعيّ لنداءات مجتمع الاستهلاك)، الى ايّ حدّ لا تتدخل اعتبارات من هذا النوع في تحديد كمية المال

المعتَبرة شرطًا للإِقدام على الزواج ، في حين إننا نرى الكثيرين من الطلاب الجامعيين في الغرب يقدمون عليه (أو على المساكنة) في ظروف صعبة ، بدافع الحبّ ، فيجاهد الشاب والفتاة معًا ليوفّقا بين الدراسة والعمل ، محتملَين سويّة شظف العيش ، ومكوِّنَين معًا ، انطلاقًا من لا شيء ، وبالتدرّج ، أُطر حياتهما المشتركة ...

الخلاصة : مطلوب تحرير « الحرية الجنسية »

لقد كان تيار « الحرية الجنسية » محقًا في تأكيده على مكانة الجنس من حيث هو واقع بشريّ جوهريّ ، مهمّ بحد ذاته بغضّ النظر عن وظيفته التناسلية ، ويرتبط به الى حدّ بعيد انتعاش الانسان وحيويّته . كذلك كان محقًا في سعيه الى تحرير هذا الواقع الانساني البالغ الاهمية ، مما يكبّله من قيود اجتماعيّة تعسّفيّة وكوابح نفسية غاشمة . ولكن مشروعه هذا كان يحمل في طيّاته بذور الانحراف ، بسبب تدخّل عاملٍ ، سمّاه بحقّ أحد الباحثين المعاصرين ، جان كلود غيّبو ، « طغيان اللذة » ، هَيمَنَ على ذهنية الكثيرين ممن أطلقوه وساروا في ركابه ، وهو عامل أدّى ويؤدّي الى اختزال الجنس في المتعة ، وحجب ما هو ابعد منها ، وبالتالي الى إفراغه من لبّه الانسانيّ الذي هو توق اللقاء الذي يحمله ، والذي يؤول تجاهله ، حكمًا ، الى تشويه الجنس وإجهاضه .

والواقع ان تيار « الحرية الجنسية » أدّى ، في كثير من الأحوال ، الى نتائج هي على نقيض ما كان يقصده . فبدل أن ينطلق الجنس

بفضله ويتعملق، اذا به ينكمش ويتقزّم، متحوّلًا إلى آلة تفرز متعة مُمَكْنَنَة على شاكلتها، والى «موضة» يفرضها الإعلان التجاريّ والأعراف السائدة، والى سلعة يروَّج لها وتروِّج لغيرها من المبيعات، في سوق الاستهلاك. واذا بالانسان، بدل أن يتحرّر بالجنس ويسعد، يغدو أسير صحراء لذة خاوية، لا تروي له غليلًا لانها لا تصله بأحد، ويستبدل بقيود التقاليد الموروثة أغلالًا جديدة من صنع مجتمع يحاصره دون هوادة، داعيًا اياه، بشتّى وسائل الإغراء والترهيب، الى لذة إلزامية لا اعتبار له بدونها.

هكذا انقلب السحر على الساحر، وافضى «التحرير الجنسي» إلى عكسه تمامًا. ومع ذلك فالاصالة الانسانية ما زالت حاضرة، والتوق الى حرية حقّة تعيد للجنس فعلا اعتباره بجعله مكانًا للحبّ الذي يعطيه وحده فحواه، هذا التوق لا يزال يُسمع صوته وسط متاهات الإباحية الرخيصة، ويشقّ طريقه في ما بينها. هذا ما تَبَيَّن من الشهادات العديدة التي أوردناها، والتي تبشّر باحتمال مستقبل أفضل، يلتقي فيه ويتصالح ما هو خيّر في التقاليد وما هو أصيل في الحداثة، وتتصحّح فيه انحرافات هذه وتلك، مستقبلٍ تتحرّر فيه «الحرية الجنسيّة» وتستحقّ بالتالي تسميتها.

السؤال الذي انطلقنا منه، يلاحظ بنبرة متشائمة: «العفّة أضحت مستحيلة في مجتمعنا ...». على ضوء ما سبق، يمكن أن نعدّل الصيغة لنزيل ما علق بها من غلوّ، فنقول: لا، ان العفة لا تزال ممكنة في ايامنا، انما لا يسعها أن تكون ممكنة واصيلة بآن (أصيلة بمعنى ان لا تكون نوعًا من التعمية والهروب والانزواء والبلادة والخوف والجمود، اي كل ما يشكّل موضوعًا قابلًا

لـ « التهم الساخرة » التي يتحدّث عنها السؤال) ، إلّا اذا قبلت أن تواجه فعلًا وفي العمق ، دون وَجَل أو تهرّب أو مسايرة ، تيار « الحرية الجنسية » في عالم اليوم ، بكل ما يحمله من سلبيات وايجابيات ، وأن تجوز في ناره ، اذا صحّ التعبير ، كي تتنقّى بها من أفكار مُسْبَقَة ، جامدة ، لبستها من مفاهيم موروثة ، كثيرًا ما تتّخذ لها ، عن غير حقّ ، غطاءً دينيًا ، وتتزيّا زورًا بزيّ الانجيل . من هذه المواجهة ، بوسع العفة أن تخرج بقناعة تطال الكيان كلّه ، بأن الجنس ينبغي فعلًا أن يُحرَّر من قيود القمع والتعقيم والتأثيم والتزمت والخوف والاستعلاء والازدراء ، ولكنه لن يتحرّر فعلًا ولن يبلغ ملء قامته إلّا اذا أعيد الى اصالته كتربة للحبّ وخزّان لطاقاته ومِعْبَر الى اللقاء الحميم بين وجودين يتعانقان ليصبحا « جسدًا واحدًا » ، أي كيانًا بشريًّا متلاحمًا في تمايز قطبيه . عفة كهذه لا يمكن أن تثير السخرية ، بل تكون مُشِعَّة وتسائل في الصميم من يجدها في طريقه ، لانها بالحب وبالحب وحده قائمة ، إما كاستعداد له ، إما كعيش له في اصالة وحدانيّته ، إما كتجاوز له الى حب أكبر وأشمل . عفّة كهذه تشهد لجمال الحياة ، لانها عفّة كائن تحرّر بالحبّ حقًّا ، بحبّ تشتعل بالله جذوته .

الحواشي

(١) راجع :

Olivier CLÉMENT, Donner un sens à notre corps (1980), p. 125, in CONTACTS, Paris, 33e année, n° 114, 2e trimestre 1981, pp. 103 - 135.

(٢) راجع :

Hanna MALEWSKA et Gise AMZALLAG: L'apprentissage du comportement sexuel, Coll "Orientations - Via", Casterman, Paris, 1973, pp. 143-144.

(٣) راجع :

Le Canard enchaîné, août 1996, cité par: Jean - Claude GUILLEBAUD: La Tyrannie du plaisir, Ed. du Seuil, Paris, 1998, p. 128.

(٤) راجع :

Erich FROMM: La Passion de détruire (The Anatomy of human destructiveness, New York, 1973), traduit de l'américain par Théo Carlier, Coll. "Réponses", R. Laffont, Paris, 1975, pp. 361-362.

(٥) راجع :

Pour une culture de la pudeur. Un entretien avec Serge AVERINTSEV (Courrier de l'UNESCO, juillet 1990), reproduit in SOP (Service Orthodoxe de Presse) Courbevoie (France), n° 150, août - septembre 1990, pp. 25-28.

(٦) راجع :

Colette KAHN, in Marie - Françoise HANS et Gilles LAPOUGE: Les femmes, la pormographie, l'érotisme (1978), Coll. "Points -

Actuels", Ed. du Seuil, Paris, 1980, p. 151.

(٧) يقول الباحثان هانس ولابوج :

« ... لقد صار المشهد الجنسيّ صناعة وتجارة. في مجتمعاتنا، تخصّص رساميل هائلة لإنتاج الخلاعة "pornographie".

M-F. HANS et G. LAPOUGE: op. cit., p. 12.

(٨) يرافق ذلك تشييء المرأة باعتبارها مجرد أداة إغراء تساعد على تصريف المنتوجات، من جهة، وباختزال كيانها الى حدود غلافها الجسدي الخارجي بغية دفعها إلى الإنفاق على تجميله الى ابعد حدّ، من جهة ثانية. وقد كتبت الدكتورة نوال سعداوي بصدد هذه الناحية الثانية :

« ... الصحف والمجلات حين تخاطب المرأة، تخاطبها كطبقة من الجلد تحتاج الى تدليك بأنواع خاصة من الكريم، وكرموش تحتاج الى تقوية وتغذية، وكشفاه تحتاج الى طلاء بلون الورد، وكشعر يحتاج الى صبغات تتناسب مع لون الفستان ».

د. نوال سعداوي : المرأة والجنس، القاهرة - بيروت، الناشرون العرب، ١٩٧١، ص ١٢١.

ذكره د. مصطفى حجازي : التخلّف الاجتماعي. مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور، معهد الانماء العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، ص ٢٢٠.

(٩) راجع :

L'Orient-Le Jour, Beyrouth, 4 octobre 1980, p. 8

(١٠) O تقول هيلين دوتش عن جماعات المراهقين التي درستها :

« في بعض هذه الجماعات (...)، عندما يبدي أحد أفرادها إحجامًا عن التقيّد بمتطلّبات الحرية الجنسيّة (وهذا ما يحصل كثيرًا جدًا)، يوصم الباقون المتردّد بالعار وينعتونه بـ« الشاذّ » ...»

وفي مكان آخر تصوّر المحلّلة كيف ان الجماعات الشبابيّة تفرض « الحرية الجنسية » فرضًا على افرادها من الفتيات، بحيث انهن يُقحَمن قبل الأوان في علاقات جنسية دون استعداد داخليّ لها ودون أن يجدنَ فيها تعبيرًا حقيقيًا عن أنوثتهنّ.

Hélène DEUTSCH: Problèmes de l'Adolescence (Selected problems

of Adolescence, New York, 1967), traduit de l'anglais par Claude-Antoine Ciccione, Petite Bibliothèque Payot, n° 153, Paris, 1970. pp 90 et 109-110.

○ نفس الملاحظة تنقلها لنا، عن السويد، باحثتان، تقولان ان الفتيات هناك يعتقدن أنفسهنّ مُلزَمات بأن تكون لهنّ حياة جنسيّة، حتى إذا كنّ لا يرغبن بذلك، وإلّا اعتُبِرنَ على هامش التطوّر. وترويان كيف شعر فريق من الفتيات بارتياح عميق، عندما سمعن إحدى المولجات بالتربية الجنسية تقول، متصدّية لِ«موضة» فقدان العذرية مهما كلّف الامر، إنه ينبغي أن لا يفرض المرء على نفسه سلوكًا جنسيًا لا يرغب هو فيه. وتشير الباحثتان الى ما يكشفه هذا المَثَل عن الطابع الإكراهيّ الذي قد تتخذه المعايير الجنسية الشائعة. فمن عادة الفتيات الحريصات على التقيّد بالواجب، في هذه المجتمعات، ان يعتبرن أنفسهنّ ملزَمات بأن يهبنَ أجسادهنّ، ولذا يشرعن في ممارسة الجنس «حسب الاصول العلمية»... راجع:

Hanna MALEWSKA et Gise AMZALLAG: L'apprentissage du comportement sexuel, op. cit., pp. 145-146.

(١١) راجع:

Jean-Claude GUILLEBAUD: La Tyrannie du plaisir, op. cit., p. 128.

(١٢) يلاحظ فرنسوا برون: «ما يقيمه (الآن) الاعلان التجاري، انّما هو واجب اللذّة، وبالطبع فإنّه يموّه هذا الواجب بظاهر التحرير».

François BRUNE: Le Bonheur conforme, Gallimard, 1985, cité par J-Cl. GUILLEBAUD: La Tyrannie du plaisir, op. cit., p. 109.

من هنا الإحباط الذي يعبّر عنه أحد منظّري «الثورة الجنسية» في الستينات، راوول فانيغايم، قائلًا: «إنّ اللذة الإلزامية تقوم (اليوم) مقام اللذة المحرَّمة».

Raoul VANEIGEM: Le livre des plaisirs, Labor, 1979, cité par J-CL. GUILLEBAUD: La tyrannie du plaisir, op. cit., p 109.

(١٣) عن العلاقات الجنسيّة المنفكّة عن كل عاطفة، يقول الطبيب النفسي الدكتور ميشال لاكور: «الجسد والنفس لا ينفصلان وفي ما يتعلّق بالجنس، إنه من باب السذاجة، الاعتقاد أن إشباع الواحد يمكن أن يكون مكتملًا وكلّيًا ومُثريًا دون إشباع الآخر».

Dr Michel LACOUR: Sexualité du jeune adulte, Coll. "Via", Casterman, Paris, 1971, p. 85.

(١٤) راجع: كوستي بندلي: الجنس ومعناه الانساني، منشورات النور، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥، ص ٤٩-٥٠.

(١٥) راجع:

l'ORIENT, Beyrouth, 28 novembre 1967.

(١٦) راجع:

"Tous ceux qui parlent d'amour en termes mécaniques, mais discutent de mécaniques en termes d'amour!"

Pierre DACO: Comprendre les femmes... et leur psychologie profonde (1972), Coll. "Marabout Service" n° 250, Les Nouvelles Editions Marabout, Verviers, 1983, p. 17.

(١٧) راجع:

François MITTERRAND: L'abeille et l'architecte. Chronique (1978), Le Livre de Poche, Paris, 1981, p. 25.

(١٨) راجع:

L'ORIENT, Beyrouth, 21 mars 1970, p. 8.

(١٩) ويكشف المحلّلون النفسيّون أن الثورة الإباحية الحاضرة إن هي أساسًا الا تنفيس عن الكبت الذي لا يزال يطال بشدّة الطاقة الجنسيّة، ويحكم عليها بالتالي بالنكوص الى مراحل بدائية غير ناضجة من تطوّرها، تتّسم بالنرجسية (أي بعشق الذات) والعدوانية. بالتالي فإن هذا التنفيس يفسح المجال امام بروز انماط جنسية انحرافية كالبصبصة voyeurisme والاستعراء exhibitionnisme والجنس المِثلّي homosexualité والساديّة والماسوشية، وليس أمام استعادة نزعة جنسية ناضجة تتّصف بالقدرة على الحبّ. راجع مثلًا:

D[r] Charles-Henri NODET: La sexualité en mutation et la psychanalyse (1970), pp. 305-306, in Psychanalyse et Expérience humaine, Cerf, Paris, 1982, pp. 291-313.

Georges MAUCO: Education et Sexualité, Armand Colin, Paris, 1975, pp. 134 et 141.

(٢٠) راجع:

Jean-Claude GUILLEBAUD: La Tyrannie du plaisir, op. cit., pp 108-111.

(٢١) Article de Libby Books, publié dans le GUARDIAN, et traduit dans le COURRIER INTERNATIONAL, 19-25 juin 1997, cité par J-Cl. GUILLEBAUD, op. cit., p 110.

(٢٢) راجع:

Boris CYRULNIK: Ethlogie de la sexualité, KRISIS, n° 17, mai 1995, cité par J-Cl. GUILLEBAUD: : La Tyrannie du plaisir, op. cit., pp. 110-111.

(٢٣) راجع التحليل الثاقب الذي تقدّمه بهذا الشأن الدكتورة كريستين نصّار، وتميّز بموجبه بين «الحرية الجنسية» و«الاباحية الجنسية» في الغرب، وتشير الى أننا، في العالم الشرقي (واللبنانيّ بوجه خاص)، ولأسباب تذكرها الباحثة، نتراكض الى تقليد الوجه الأقلّ اصالة وإنسانيّة من هذين. راجع:

د. كريستين نصّار: عُد يا ابي. مشاكل يطرحها غياب الاب عن الاسرة (حالة خاصة: الاب اللبنانيّ)، جرّوس برسّ، طرابلس، ط ١، ١٩٩٣، ص ١٧١-١٧٢.

مذكور في: كوستي بندلي: كيف نواجه أسئلة أولادنا عن الجنس؟ طبعة ثانية مزيدة، جرّوس برسّ، طرابلس، ١٩٩٧، ص ١٥٠-١٥١، حاشية ٧.

(٢٤) راجع:

Rapport sur le comportement sexuel des Français, par le D[r] Pierre SIMON et Jean GONDONNEAU, Lucien MIRONER, Anne-

Marie DOURLEN-ROLIER, Claude LÉVY, Pierre CHARRON.

(٢٥) راجع :

Aimé SAVARD: Couple et Mariage dans le monde moderne, pp. 12-13, in INFORMATIONS CATHOLIQUES INTERNATIONALES, Paris, n° 411, 1 juillet 1972, pp. 6-14.

(٢٦) راجع :

INFORMATIONS CATHOLIQUES INTERNATIONALES, Paris, n° 554, 15 septembre 1980, p. 37.

(٢٧) راجع :

Aimé SAVARD: art. cit.

(٢٨) راجع :

MALEWSKA et AMZALLAG: L'apprentissage du comportement sexuel, op. cit., p. 87.

(٢٩) راجع :

Odette THIBAULT: A la découverte de la sexualité, Dunod, 1972, p. 125.

(٣٠) راجع :

Roger MUCCHIELLI: Psychologie de la vie conjugale, ESF, Paris, 1973, p. 84, note *

(٣١) راجع :

Aimé SAVARD: Couple et mariage dans le monde moderne, art. cit., pp. 12-13.

(٣٢) Catherine VALABRÈGUE: La Condition étudiante, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1970, pp. 42 et 55.

(٣٣) راجع :

Oswalt KOLLE: Expérience de l'amour moderne (Das Wander der liebe), traduit de l'allemand par Lise Rosenbaum, Ed. R. Laffont, Paris, 1970, p. 35.

(٣٤) راجع :

H. MALEWSKA et G. AMZALLAG: op. cit., p. 137.

(٣٥) راجع :

F. BÉNAZET-MARTY, La Mère et l'Eveil sexuel de son enfant, Centurion-Grasset, Paris, 1972, p. 201.

(٣٦) راجع مثلاً :

Louis EVELY: Réinventer le mariage (1995), Ed. Peuple libre, Valence-Desclée de Brouwer, Paris, 1997.

(٣٧) راجع هذين البيتين الشهيرين لشاعر الحبّ لويس اراغون :

"Tu m'as pris par la main dans cet enfer moderne" "où l'homme ne sait plus ce que c'est qu'être deux..."

الفصل الثاني

انتشار الشذوذ الجنسيّ (١٩٨٦-١٩٨٧)

تقديم

في فرع طرابلس الميناء لحركة الشبيبة الارثوذكسيّة، كانت تُقام، بين ١٩٨١ و١٩٩١، ندوة دورية تُعقد مرة كل أسبوعين، يوم الثلاثاء (ولذا سُميت «ندوة الثلاثاء»). كان الغرض منها محاولة الاجابة عن كافة الاسئلة التي يرى الشباب ان الحياة والفكر يطرحانها على ايمانهم. وكانت كل ندوة تتناول أحد هذه الأسئلة، فيُفسَح المجال، في نصف الساعة الاول، لمن شاء من الحاضرين، أن يُدلي بحرية برأيه حول الموضوع، ثم يُخصَّص نصف ساعة آخر لأحد المحاضرين كي يقدّم مداخلة حول الموضوع نفسه.

وبالطبع كانت الاسئلة التي يرفعها الشباب الى الندوة تتأثّر بما يسمعون عنه من أحداث وتيارات العالم الذي يعيشون فيه ويتحسّسون بحدّة، بفعل سنّهم، لكل جديد فيه. هذا ما يبدو من نصّ السؤال التالي، الذي بُحث في ثلاث حلقات عقدتها «ندوة الثلاثاء»، على التوالي، في ١٩٨٦/١٢/٣٠، و١٩٨٧/١/١٣، و١٩٨٧/١/٢٧:

« ما سبب شذوذ بعض الشباب الذي ينتشر الآن في أوروبا وبدأ ينتشر في مجتمعنا؟ كيف السبيل لمحاربة هكذا شذوذ؟ هل يُعتَبر هذا الشذوذ خطيئة؟ »

علمًا بأن المقصود هنا بـ« الشذوذ »، هو الجنسية المثليّة (أي العلاقة الجنسية بالمِثل) homosexualité، التي تُعرف ايضًا بـ« الاستجناس » (راجع مثلًا: د. عبد الساتر ابراهيم، د. عبد العزيز الدخيل، د. رضوى ابراهيم، ١٩٩٣) أو « الارتكاس » (inversion) (د. علي زيعور، ١٩٨٦).

يُستعاد في ما يلي، مع بعض التعديل، نصّ المداخلة التي أعددتها في حينه للاجابة عن هذا السؤال المتشعِّب.

أولًا: ما هي العوامل النفسية التي تؤدي الى « الشذوذ الجنسيّ »؟

العوامل التي سوف نستعرضها ربما تستند ايضًا الى أرضيّة بيولوجيّة وراثية، غير واضحة الى الآن. انها عوامل يعود بعضها الى ظروف الطفولة وبعضها الى الظروف التي ترافق انطلاق الحياة الجنسيّة في مرحلة المراهقة. هذه العوامل نبسطها في ما يلي، علمًا بأننا سوف نتحدّث عن الجنسيّة المثلية لدى الذكور، وهي الأكثر انتشارًا كما يتضح من ابحاث Kinsey الشهيرة...[1]

١ـ ظروف الطفولة(٢)

أ ـ دور العلاقة بالامّ

فقد ينشأ بين الطفل وأمّه ارتباط عاطفيّ مفرط، تغذّيه الام بحنانها الزائد، وبالغلوّ في حماية ولدها، وتدخّلها بكل شاردة وواردة في حياته. ينتج عن ذلك أن هذا الولد، إذا كبُر، يجد صعوبة في التحوّل من أمّه إلى نساءٍ أُخريات (خاصة وإن الأم، في هذه الحالات، اذا أصبح ولدها مراهقًا وبدأ يهتمّ بالجنس الآخر، تحاول بشتّى الطُرُق مكافحة اهتمامه هذا وتحويله عن الفتيات، بحجة المحافظة عليه، متعامية عن أن ما يدفعها في العمق الى مثل هذا السلوك انما هو رغبتها المستترة في الاستئثار به). هكذا لا يبقى أمام هذا الولد الا سبيل التماهي بأمّه (ليحتفظ بها في داخله) وإشباع نزعته الجنسية من خلال علاقات يقيمها مع ذكور مثله يخلّد معهم علاقته العاطفية بأمه فيحاول أن يمنحهم (او بالاحرى أن يمنح ذاته من خلالهم، لأنه يتخذهم صورًا عنه) المدّ العاطفيّ الذي كان يتلقّاه من أمّه والذي لا يزال متشبّثًا به.

وقد يكون الدافع الى الشذوذ الجنسي، محاولة المرء الذي تربطه بأمه هذه العلاقة العاطفية المفرطة، أن يهرب من هذا الرباط الطاغي الذي يهدّد باغراقه وتذويبه. وذلك برفضه للمرأة عامة، التي لا يسعه أن يرى فيها إلّا صورة للأم الكاسحة، مما يدفعه إلى إشباع ميله الجنسي مع الذكور حصرًا. تقول الكاتبة فرنسواز مَلّيه ـ جوريس عن أحد الشبّان الشاذّين جنسيًا، وعن ارتباط ذلك بعلاقته بأمه:

« أوليس كونها غالت بحبّها له ، كان السبب في شدة رغبته بأن يهرب من عالم الحبّ ، كما يصرّ المرء على التنفّس ؟ »(٣)

ب – دور العلاقة بالأب

ويلعب اضطراب العلاقة بالوالد ، دورًا مكمّلًا لدور العوامل السابقة . ذلك أنّ للأب في الاصل ، ما يُسمّى بـ « وظيفة فاصلة » fonction séparatrice بالغة الاهمية بالنسبة للنموّ السويّ للطفل ، وهي عبارة عن أنّ حضوره المعنويّ في حياة كلّ من الأمّ والطفل ، يجعل حائلًا دون اندماجهما معًا كما كانت الحال قبل الولادة ، والى حدّ ما في الفترة التي تليها مباشرة . وكأنّه يقطع بحضوره هذا ، حبل السرّة النفسيّ الذي لا يزال يجمع بينهما بعد أن انقطع اثناء الولادة حبل السرّة العضوي ، فيستقلّ الاثنان احدهما عن الآخر ويتحرّر الطفل من طغيان ارتباط آسر بأمّه .

ولكن هذه الوظيفة الابوية تتعطّل ، اذا توارى الاب عن حياة الطفل ، من جراء غيابه الجسدي او المعنوي ، أو بفعل ضعف شخصيته ، أو نتيجة لاستعباده من قِبَل امّ مسترجِلة تحتلّ وحدها المساحة كلّها ، مما يجعل الاب عاجزًا ، في هذه الحالات ، عن الحدّ من غلوّ تعلّق الطفل بأمه ، الذي رأينا دوره المحتمَل في نشأة الميل الى الجنس نفسه .

هذا وقد يكون الوالد دافعًا ايضًا الى الشذوذ الجنسي اذا تراءى لابنه بصورة مرعبة ، ساحقة ، قامعًا بشكل مفرط للعلاقة الاوديبية

الطبيعية التي تقوم بين كلّ طفل ذكر وأمه ، بحيث يمتد هذا القمع ليشمل كل ميل الى الجنس الآخر (وهو الميل الذي تشكّل العلاقة الاوديبية بين الطفل وامه ، بين السنة الثالثة والسنة السادسة ، اول تجربة له) . هذا الوالد يصبح بالتالي محرّمًا على ابنه ان يتمتّع بصفة الذكورة وأن يقيم أية علاقة انثوية أيًا كانت ، مما لا يترك له ، بصدد اشباع نزعته الجنسية ، إلّا مجال الاتصال بالذكور ، الذين يجد فيهم ايضًا ذكورة يتمثّلها بعد ان حُرِمَ من التماهي بها في شخص والده بسبب تصدّع العلاقة بينهما .

٢- الظروف اللاحقة

ولكنّ هناك ظروفًا أخرى غير ظروف الطفولة ، تدفع المرء الى الشذوذ الجنسي ، ومنها الصعوبات التي يصادفها المراهق في إقامة علاقات حميمة مع الجنس الآخر . فالفتاة تبدو للمراهق عالمًا غريبًا عنه بالكلّيّة وقد يبدو لهذا السبب محفوفًا بالمخاطر . ولكن أكثر المراهقين يقدمون ، وإن بشيء من التردّد ، على هذه المجازفة ، مجازفة مواجهة هذا العالم المجهول الذي تدفعهم اليه نزعتهم الجنسية المتيقّظة بفعل التحوّلات الجسدية المراهقية . ولكن بعضهم قد تعوزه الثقة بالنفس التي تفترضها قفزة من هذا النوع . هذا هو مثلًا شأن الذين يعانون من طبعٍ خجول فيتهيّبون بنوعٍ خاص الانقياد للنداء الغريزي الذي يدفعهم الى الجنس الآخر ، فينطوون على أنفسهم ، وتزداد حدة هذا الانطواء اذا اقدم هؤلاء على تجربة في مضمار العلاقة بالفتيات وفشلت هذه التجربة[٤] . علمًا بأن الارتباك الذي

يعاني منه الخجول يزيد من احتمالات هذا الفشل. عندئذ فقد يجد هؤلاء تسوية لإشباع نزعتهم الجنسية دون المخاطرة بالخروج من الذات للقاء آخر مختلف بالكلّيّة، فيلجأون الى علاقة جنسية تربطهم بآخر، انما بآخر يكون على شاكلتهم، ذكرًا مثلهم، فيجدون فيه صورة لأنفسهم يألفونها ويطمئنون اليها. شأنهم في ذلك شأن الذي يتهيّب القفز من ضفة النهر الى الضفة المقابلة، فيلقي بعض الحجارة في وسط مجرى النهر ويقفز اليها، مكتفيًا بقطع نصف المسافة(٥).

هذا وإن فعل هذه الظروف اللاحقة، من شأنه أن يتآزر مع الاستعدادات الطفولية الى الشذوذ الجنسيّ، كما ان من شأنه، بالعكس، اذا كان ايجابيًا، أن يخفّف من وطأتها ويفسح الطريق امام سلوك جنسيّ سوي(٦).

ويشير أحد كبار الاطباء النفسيين البيزيطانيين، في كتاب مرجعيّ له عن الشذوذ الجنسيّ، أنه ينبغي عدم التسرّع في تشخيص شذوذ جنسيّ مقيم، قبل أن يبلغ الشخص المعنيّ حوالي الخامسة والعشرين من عمره. ذلك ان كثيرين من الشبان الذي كانوا يمارسون الشذوذ في حوالي العشرين من عمرهم، تخلّوا عن هذه الممارسة بعد أن صادفوا امرأة تناسبهم(٧).

ثانيًا: انتشار الشذوذ الجنسي، وعوامله المحتملة

١- احصاءات غربية عن انتشار الشذوذ الجنسي بين الشباب

ما هو مدى انتشار الشذوذ الجنسي بين الشباب؟

سنة ١٩٤٨، قام عالم أميركي يُدعى كينسي Kinsey بدراسة ميدانية شهيرة حول الظواهر الجنسية لدى الذكور الاميركيين (تبعتها، سنة ١٩٥٣، دراسة مماثلة عن الاناث الاميركيات).

وقد تناول كينسي في دراسته الاولى عيّنة من ٤٠٠٠ ذَكَر يمثّلون مختلف قطاعات مجتمع البيض في الولايات المتحدة. فاتّضح له أن ٨٪ من الذكور مارسوا الشذوذ الجنسي بشكل حصريّ بين السادسة عشرة والتاسعة عشرة من عمرهم، في حين أن هذه النسبة انخفضت الى ٤٪ في مرحلة الرشد[٨]. هكذا يبدو ان الشذوذ الجنسي اكثر انتشارًا بين الشباب الذكور منه بين الراشدين الذكور، وهذا ما يسهل فهمه اذا تذكّرنا أن الهوية الجنسية للمراهق لم تتحدّد نهائيًا بعد، كما أن هويته بشكل عامّ لا تزال في طور التكوين.

هذا وإن كتابًا في التربية الجنسية صدر في أواسط السبعينات في فرنسا، يشير الى أنه «يُعتبَر اليوم أن حوالي راشدًا من أصل عشرين له تعبير جنسيّ مثليّ، حصريّ او غالب، وأن ما يزيد عن هذا الرقم بشكل محسوس، هو التصرّفات الجنسية ذات الوجهين التي يقوم بها عدد من الشباب، الذين يبدو أنه لا فرق عندهم، في سعيهم الى اللذة، بين شريك من هذا الجنس أو من ذاك»[٩].

٢- هل هذا الانتشار بتزايد؟

ولا بدّ من التساؤل: هل ان عدد الشباب الذين يمارسون

الشذوذ الجنسي جزئيًا او حصرًا، في اوروبا وأميركا، هو فعلاً في تزايد، أم أنّ القضيّة لا تتعدّى كون الحديث العلنيّ عن الشؤون الجنسية قد أصبح اليوم مباحًا أكثر مما مضى، وأكثر انتشارًا بفعل وسائل الإعلام؟

٣- أسباب للتزايد اذا كان حاصلاً

فإذا ثبت أن هناك ازديادًا فعليًا لنسبة ممارسة الشذوذ الجنسي بين الشباب، فقد يعود ذلك الى الاسباب التالية:

أ- غياب الاب في المجتمع الغربي المعاصر

ان ظروف هذا المجتمع تجعل الاب قليل الحضور في الاسرة[١٠] بسبب كثرة مشاغله المهنية (التي تفرضها قسوة الحياة ومتطلّبات مجتمع الاستهلاك ومقتضيات المنافسة) والاجتماعية والنقابية والسياسية، وبسبب بعد مكان العمل عن مكان السَكَن، مما يفسح المجال في نشوء علاقة عاطفية مفرطة بين الولد وأمه، وقد رأينا أثر هذه العلاقة في التسبّب بالشذوذ الجنسي (راجع أولًا ١-أ)

ب- ظاهرة «الحرية الجنسية»

ثم ان ظاهرة «الحرية الجنسية»، او «التساهل الجنسيّ» permissivité المنتشرة حاليًا في الغرب، نتج عنها موقف أكثر تساهلًا حيال الانحرافات الجنسية، بما فيها الجنس المثليّ[١١]، مما يسمح لعدد أكبر من الناس أن يعبّروا عن شذوذهم الجنسي، بعد أن كان هذا يتعرّض، فيما مضى، لاضطهاد شَرِس[١٢].

ج - ظاهرة تبخيس الجنس السويّ والسعي الى بدائل

وهناك ظاهرة تبخيس الجنس السويّ، المنتشرة ايضًا في المجتمعات الغربية، هذا التبخيس الناتج من تسهيل الممارسة الجنسية حتى الابتذال، من جهة، ومن إفراغها، من جهة ثانية، من مضمونها الوجداني ومعناها العلائقي، واختزالها في مجرّد تقنيّة آلية مسخّرة فقط لاجتناء اللذة. من هنا أنّ الممارسة الجنسية السويّة فقدت الكثير من طعمها وإثارتها[١٣]، مما دفع العديد من الشباب وغيرهم الى التفتيش عن بدائل عنها.

○ من هذه البدائل نشوة ركوب الدراجات النارية السريعة. يذكر فرنسوا ميتّران في مذكّرات له، أن أحد «فرسان» الدراجات النارية سُئِل في الاذاعة عن رأيه في الفتيات، فأجاب: «الدرّاجة هي امرأتي». ويعلّق ميتّران على هذا التصريح بقوله: «... أرى فيه حقيقة بعيدة المرمى. فعندما يتحوّل الحب الى آلية، يقدّم، من الحلم والاقتدار، قسطًا أقلّ مما تقدّمه دراجة نارية تنطلق بسرعة ١٤٠ كلم في الساعة، يكتنفها الريح والمجازفة ...»[١٤].

○ وقد يكون البديل تعاطي المخدّرات كما لاحظ سنة ١٩٦٧ فريق من الاخصائيين النفسيين عِبرَ تحقيق أجروه بين طلاب عدة جامعات في نيويورك ونيوجرسي، فقد وجدوا أنّ المخدّرات تتمتّع بعطف متزايد لدى هؤلاء الطلاب على حساب العلاقات الجنسية، التي اصبحت، في نظرهم، أمرًا عاديًّا، وفقدت جاذبيتها القديمة[١٥].

○ هذا ما لاحظته ايضًا المحلّلة النفسيّة الكبيرة هيلين دوتش لدى بعض فئات المراهقين في الولايات المتحدة، الذين اندفعوا وراء «الثورة الجنسية»، فوقعوا في «كارثة نفسيّة حقيقيّة» وأصبحوا «يتألّمون بشكل واضح من الحرمان العاطفي، وبالتالي من فقدان طعم تلك الاثارة الجنسية التي يزعمون انها حرّة ولا محدودة». من هنا تلك التعاسة التي قرأتها على ملامحهم والتي كانوا يحاولون النجاة منها بلجوئهم الى المخدّرات من جهة، وباهتمامهم المتزايد بالانحرافات الجنسية من جهة اخرى(١٦).

○ هذه الانحرافات التي تحاول بها الاوساط الإباحية في الغرب، إحياء اللذة الجنسية، التي تضاءلت وذَبُلَتْ من جراء غياب البعد العاطفيّ عنها، متنوّعة الاشكال. فقد تتّخذ شكل الساديّة (لذة التعذيب) والماسوشية (لذة تلقّي العذاب). فمن مظاهر الانحراف الساديّ في الانتاج الإباحي المعاصر، قصة Histoire d'O، حيث تقترن اللذة الجنسية بتعذيب المرأة. وما هو أفدح من ذلك بكثير هو تلك الافلام، (المدعوّة snuff، وهي عبارة تعني: مذبحة، تقتيل)، التي تسوّقها المافيا في الولايات المتحدة والتي تصوِّر فيها مشاهد تعذيب حتى الموت، تخضع له - فعلًا على ما يبدو، في بعض الاحيان - بعض النساء البغايا، من اجل لذة عدد من المشاهدين الاثرياء الذين يدفعون غاليًا جدًّا ثمن هذه الافلام!(١٧)

○ وقد يكون الجنس المثليّ أحد هذه الانحرافات البديلة التي

يُلاذ بها في محاولة لإعادة الطعمِ الى جنسٍ بَخَّسَهُ الابتذال . علمًا بأنّ احتمال اتّخاذ الجنس المثليّ بديلًا ، يتدعّم اذا ما أخذنا بنظرية Stekel – أحد تلامذة فرويد – عن الازدواجيّة الجنسية bisexualité لدى الانسان ، الذي تتواجد فيه ، برأي هذا الباحث ، نزعة جنسية مثلية ونزعة جنسية غيريّة ، تُكبَت اولاها عادة[١٨] .

٤– هل من انتشار للشذوذ الجنسي في مجتمعنا ؟ وفي هذه الحال ، لماذا ؟

هل بدأت ظاهرة الشذوذ الجنسي بين الشباب تنتشر في مجتمعنا ؟ ليست لديّ معلومات تؤكّد ذلك أو تنفيه ، ولكن ، اذا كان ذلك صحيحًا ، فإنّ أسبابه المحتملة هي ، على ما اعتقد ، التالية :

أ – التقليد العشوائي للغرب

من جهة ، الهالة التي تحيط عندنا بكل ما يأتي من الغرب ، من افكار وأزياء وصرعات ، تنقلها وسائل الإعلام ، فيتقبّلها الكثيرون من الشرقيّين بلهفة وبدون ايّ نقد أو تمحيص : نظرًا لما يتمتعِ به الغرب جملة في نظرهم من اعتبار ، ولعقدة النقص التي يشعرون بها حيال كلّ ما يصدر عنه . علمًا بأنّ هذه النزعة الى تقليد الغرب عشوائيًا ، كثيرًا ما تهمل وتُغيِّب ما يحمله الغرب من قيم أصيلة وإيجابيات تتطلّب ممن شاء أن يستلهمها وعيًا ومجهودًا ، لتجاري

منه النواحي الرخيصة والاقلّ انسانيّة (راجع ما لاحظته بهذا الشأن الدكتورة كريستين نصّار، والمذكور في الحاشية ٢٣ من الفصل السابق من هذا الكتاب).

ب - الفصل بين الجنسَين

من جهة أخرى، الفصل بين الجنسين، الذي لا يزال قائمًا الى حدّ كبير في مجتمعنا، والذي يشكّل أرضية صالحة لتحوّل النزعة الجنسية الى المثل. يذكر الدكتور جيلبير توردجمان، بهذا الصدد، حصيلة اختبارات قام بها الباحث Jenkins. فقد فصل، في مختبره، عددًا من الجُرَذ، بموجب جنسها، ولاحظ، نتيجة ذلك، أن النزعة الاستجناسية برزت لديها بنسبة امتداد فترة الفصل، بحيث انه، اذا تواصل هذا لفترة طويلة، اختفى لديها الميل الى الجنس الآخر، ولم يعد بعد اعادة الاختلاط. ويضيف توردجمان أن الاستجناس تعاظم في كل الحضارات التي عزلت المرأة عن مجتمع الرجال، مثلًا في الحضارة اليونانية القديمة[١٩].

ج - التربية الجنسية القمعية

كذلك فإنّ التربية الجنسية القمعية، التي لا تزال سائدة في مجتمعاتنا الشرقية، من شأنها أن تذكي النزعة الاستجناسية (شأنها في ذلك شأن نقيضها، وهو ابتذال الجنس في المجتمعات الغربية). ذلك أن القمع الذي تتعرّض له النزعة الجنسية (ويبدأ ذلك منذ اوائل العمر) وتأثيمها والتخويف منها، من شأنها أن تغذّي ذلك

التهيّب التلقائي من الجنس الآخر الذي رأيناه، في فترة المراهقة، يلازم بروز الانجذاب اليه، وأن تُذكي بالتالي نزعة الى الانكماش على افراد من الجنس نفسه، سعيًا الى التنفيس عن الغريزة المتيقّظة. بهذا المعنى ينبّه الطبيب النفساني البريطانيّ الكبير د. ج. وست D. J. West الى ان الوالدين المغالين في القمع قد يدفعون اولادهم الى الشذوذ، نتيجة الافراط في تحذيرهم من الجنس، وتهديداتهم او عقوباتهم بشأنه[٢٠].

ويتصدّى طبيب آخر هو A. Overing لنفس التربية القمعية، موضحًا أن المحاولة الشائعة لضبط الحياة الجنسية بالركون إلى إثارة القلق والخوف، من شأنها ان تنشئ موقف احتماء من الجنس قد يترجَم احيانًا بالجنسية المثليّة[٢١].

ويسلّط المفكّر السويسريّ الكبير دنيس دي روجمون Denis de Rougemont، بعض الأضواء على الشذوذ الجنسي الذي عانى منه الروائي الفرنسي الشهير اندريه جيد[٢٢]. فقد تحكّمت بمشاعره علاقة اوديبية قوية بأمّ شغلت مركز الصدارة في حياته، على حساب والد طيّب كسفته الى حدّ ما بشخصيتها المسترجِلة، وقد توفي هذا الوالد على كلّ حال عندما لم يكن الطفل قد تجاوز الحادية عشرة، فانطبق عليه عند ذاك، كما يقول هو نفسه[٢٣]، الحبّ الاموميّ الآسر. هكذا أصبحت كل امرأة تمثّل، بالنسبة لشعور جيد العميق، الامّ، تلك المحبوبة الوحيدة والمحرّمة، واصبح

بالتالي حبّ النساء عامة محرّمًا هو ايضًا . ومما زاد في تحريمه ، التربية المتزمّتة التي تلقّاها جيد من أمّه ، والتي صوّرت له الرغبة الجنسية على أنّها أمر قبيح ووحشيّ ومخيف[٢٤] ، لا يجوز بحال من الاحوال أن يتّخذ موضوعًا له المرأة – الامّ المعبودة . مما دفع جيد الى الارتماء في صلات جنسية عابرة مع شبان تافهين ، تنفيسًا عن نزواته .

ثالثًا : كيف السبيل الى مكافحة موجة الشذوذ ؟

هذا لا يتمّ بالاستنكار ، الذي يشفي غليل صاحبه ولكنه قليل الأثر ، ولا بالمواعظ التي قد تكون جميلة ولكنها تبقى قليلة الفائدة ، ولا بالاضطهاد ، الذي يُفسد من يقدم عليه ، وقد يبطن ، عند هذا الأخير ، خوفًا لا شعوريًا من نزعة كامنة فيه تماثل تلك التي لا يحاربها في الآخر بتلك الضراوة الا لكونه يخشى مواجهتها في ذاته[٢٥] . ناهيك عن أن هذا الاضطهاد ، اذا تعرّض له الاستجناسيّ ، يغلق عليه ضمن جدران عزلته ويغريه بالتالي بالاسترسال في انحرافه[٢٦] . على كلّ ، فإن الاستنكار والمواعظ والاضطهاد ، تتصدّى كلّها لظاهرة الشذوذ دون ان تتعرّض لجذورها وأسبابها ، انها بالتالي معالجة سطحية للمشكلة .

اما المعالجة الحقيقية ، فهي التي تتناول القضية في العمق وتواجه الدوافع والاسباب . هذه المعالجة تتمّ من خلال المساعي التالية :

١- اعادة الاعتبار للجنس السويّ

ينبغي إعادة الاعتبار للجنس السويّ، وذلك بأن يُتاح لهذا الاخير أن يتّخذ سائر أبعاده، فيستعيد بذلك تكامله، وبالتالي قدرته على إنعاش الانسان وإسعاده. هذا يفترض أن يبرز الاهل والمربّون ووسائل الإعلام ذلك الارتباط غير المنفصم، الذي يتميّز به الجنس الأصيل، بين الرغبة والحنان.

إن إعادة الاعتبار هذه للجنس السويّ تقتضي أيضًا، في مجتمعنا بالذات، الإعراض عمّا لا يزال شائعًا فيه من قمع وتأثيم للجنس رأينا مضارهما في المجال الذي نحن بصدده (راجع: ثانيًا - ٤-ج)، واعتماد تربية جنسية مقوّماتها، منذ الطفولة، التوعية بدل التعتيم، والمواجهة بدل التجاهل، وتهذيب النزوات بدل محاولة سحقها[٢٧].

٢- إسناد دور أكبر للوالد في الأسرة

ثم انه ينبغي أن يعاد للأب كل حجم الدور الذي لا بدّ أن يعود له في اسرة متوازنة. هذا ما يستبعد خطر طغيان العلاقة بين الامّ وولدها، ذلك الطغيان الذي رأينا أنّه من الاسباب الرئيسية للشذوذ الجنسيّ. علمًا بأنّ غياب الوالد ليس، كما قد يُظنّ، ظاهرة تتميّز بها المجتمعات الغربية وحسب، انما هي قائمة ايضًا في مجتمعنا الشرقي[٢٨]، بناءً على التصوّر الشائع - والمغلوط - بأنّ دور الوالد انما ينحصر خارج البيت («للسوق والصندوق» كما

يُقال) ، وبأنّ علاقته بأولاده تبدأ عندما يكبر هؤلاء . حضور الوالد لا يخفف فقط من خطر استئثار الام بولدها ، ولكنّه يضعف لديها الرغبة بهذا الاستئثار ، من جراء الاشباع العاطفي الذي يمنحها اياه حضور زوجها الى جانبها .

٣- تحرير المرأة

النتيجة نفسها تُبلَغ من خلال تحرير المرأة ، مثلًا بإفساح المجال أمامها للعمل خارج المنزل ، وبإحاطتها بشتى مظاهر الاعتبار ، وبإطلاق مبادرتها في شتى الميادين . فإذا استعادت المرأة ملء إنسانيتها عِبْرَ تحرّرها هذا ، لم يعد من دافع يدفعها الى التعويض عن انتقاصها وإحباطها ، بالتشبّث المفرط ، الاستيلائي ، بولدها[٢٩] ، مما يحرّر هذا الاخير بدوره ويبعد عنه خطر الشذوذ الجنسيّ .

٤- إزالة الفصل بين الجنسين

مكافحة هذا الخطر تقتضي ايضًا إزالة الفصل بين الجنسين الذي يمارسه مجتمعنا . هذا لا يعني الاختلاط العشوائي الذي تنطلق فيه النزوات على سجيّتها ، بل تشْجيع علاقات بين الجنسين مسؤولة ومنعشة ، مبنية على التعارف والتبادل والتعاون والاحترام المتبادل ، مما يفرض رعاية لهذه العلاقات ووجود مرشدين الى جانب الشبان والفتيان ، يوجّهون بوعي وتفهّم ومرونة وخفر خبراتهم الاولى في هذا الميدان[٣٠] . ولا بدّ هنا من التنويه بأن الاختلاط ليس مرادفًا للإباحية ، كما يظنّ البعض ، بل إنّه ، اذا مورس بشكله الصحيح ، افضل وسيلة لتهذيب النزعة الجنسية والتسامي بها .

رابعًا: هل يُعتَبَر هذا الشذوذ خطيئة؟

هنا لا بدّ من التمييز بين صعيدَين: صعيد السلوك المشار اليه، من حيث طبيعته، وصعيد الاشخاص الذين يمارسونه. فالجنس المثلي مُدانٌ بحدّ ذاته، اذا قسناه بمقتضيات الحبّ الاصيل، ولكن هذا لا يعني حكمًا على الذين يمارسونه، اذ الدوافع والضمائر متروكة لحكم الله.

١ــ الجنس المثليّ، بحد ذاته، حبّ مبتور

الجنس المثليّ، اذا نظرنا اليه بحدّ ذاته، يشكّل انحرافًا للحبّ عن المقاصد الإلهية بشأن الحبّ الانسانيّ. ذلك أن العلاقة الجنسية المثلية، انما هي حبّ مبتور من بعْدَين أساسيَّين من ابعاد الحبّ: البعد العلائقي الغيريّ والبعد الإنجابيّ.

أ ــ ينقصه البعد العلائقي الغيريّ

الجنس المثليّ يفتقد اولًا ما يتّصف به الحب الأصيل من اتجاه نحو كائن مختلف تمامًا عن الذات، أي نحو آخر يكون آخرًا بملء معنى الكلمة. فالعلاقة الجنسية المثليّة تبقى علاقة غير مكتملة، لانها متّجهة نحو صورة عن الذات، فلا يخرج فيها المرء تمامًا من ذاته ولا يتقبّل تمامًا اختلاف الآخر. يقول أحد الاخصائيّين الفرنسيين بشؤون الجنس: «إن صاحب الجنس المثليّ يحيا الجنس وكأنه أمام مرآة، إن نزعته الجنسية ملوّنة بالنرجسيّة ...»[٣١]. ويقول الدكتور هسنار ان الاستجناسيّ «يسعى نرجسيًا الى ذاته»[٣٢]. أما الباحث

النفسي البلجيكي فرنسوا دويكارتس، فيوضح أن الشخصية الاستجناسية «هي بصدد السعي الى ذاتها في الشخص الآخر الذي ينتمي الى نفس الجنس»[٣٣].

ب - ينقصه البُعد الانجابيّ

ثم أنّ الحب الجنسيّ الغيري يتّسم بقدرته على الامتداد من الثنائي الى كائن آخر يدعوه هذا الى الوجود. هذا الحبّ يفيض عن المحبَّين فينجب انطلاقًا منهما كائنًا جديدًا يصبح تجسيدًا لحبّهما ومستَقَرًا له. اما العلاقة الجنسية المثلية فمحرومة من هذا الامتداد الطبيعي للحبّ، لأن طريق الخصوبة الجسدية مقطوعة أمامها.

٢- هذا لا يعني حكمًا على الذين يمارسونه

ولكن ما نقوله هنا، انّما يشكّل تقويمًا للجنس المثليّ من حيث هو، وليس حكمًا على الذين يمارسونه. فما يعيشه هؤلاء في حياتهم الشخصيّة، وهو في كثير من الاحيان ذات طابع دراميّ بسبب ما يَعْتَمِلَ في نفوسهم من صراع[٣٤]، انّما هو متروك لحكم الله وحده. فالله وحده «فاحص القلوب والكلى»، وهو وحده قادر أن يسبر نوايا كل واحد وامكانيّاته وجهوده. فهناك اختلاف نوعيّ بين أناس يتنازعهم الميل الى الجنس نفسه والميل الى الجنس الآخر، وبين أناس يستأثر بهم الميل الى الجنس نفسه: ان درجة الحرية ليست واحدة في كلتا الحالتين. كما أن هناك اختلافًا بين الذين يتنقّلون من شريك الى شريك[٣٥]، وبين الذين تستقرّ علاقتهم على شريك واحد[٣٦]: فهؤلاء أقرب، في سلوكهم، الى

مواصفات الحب، من اولئك. والحكم الإلهيّ الذي اليه يوكل هؤلاء كلّهم، توجّهه الرحمة كما هو معروف، وعلينا نحن أن نتعلّم منه الرحمة[٣٧].

هذا، علمًا بأن دراسة ميدانيّة أجريت في الولايات المتحدة واستغرقت عشر سنوات، اظهرت أن ثلث الشاذّين جنسيًا من الذكور يمتنعون عن كل ممارسة جنسية[٣٨]. وقد بيّن الطبيب البريطانيّ د. ج. وست ان هذا الامتناع الجنسيّ، مع انه شاقّ، وبنظره نادر، ممكن دون ضرر عند بعض الناس المصمّمين عليه، خاصة اذا كان يحدوهم روح التضحية او اذا استطاعوا ان ينصرفوا بكليتهم الى قضية او نشاط ما[٣٩].

حواشي

(١) راجع تقريره سنة ١٩٥٣ عن السلوك الجنسيّ للنساء الأميركيات، مذكور في:

D. J. WEST: Homosexualité, traduit de l'anglais par Marie Dallemagne, Coll. "Psychologie et Sciences humaines", Ed. Charles Dessart, Bruscelles, 1970, pp. 43-45.

علمًا بأنّ الشذوذ الجنسي قد يكون الآن على تكاثر بين النساء في بعض البلاد الاوروبية وفي أميركا، بالارتباط مع نزعة تدفع عددًا من النساء الى الاستقلال عن الرجال حتى على الصعيد الجنسي، راجع:

د. نوال سعداوي: الرجل والجنس (١٩٧٦)، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩، ص ١٥٠.

(٢) من باب التوسّع في هذا الموضوع، راجع مثلًا:

* Sigmund FREUD: Un souvenir d'enfance de Léonard de Vinci (1910), Trad. de l'allemand et annoté par Janine Altounian, André et Odile Bourguignon, Pierre Cotet et Alain Rauzy. Préface de J. - B. Pontalis (1987), Coll. "Folio bilingue", n° 16, Ed. Gallimard, Paris 1991, pp 161, 163, 165, 167.

* S. FREUD, Psychologie collective et analyse du moi (1920), p 130, in Essais de Psychanalyse, Trad. du D^r S. Jankélévitch, revue et mise au point par le Dr A. Hesnard, PBP, Paris, 1963, pp. 83-175.

* S. .FREUD: Sur quelques mécanismes névrotiques dans la jalousie, la paranoia et l'homosexualité (1922), pp 278-281, in Névrose, Psychose et Perversion, traduit de l'allemand sous la direction de Jean Laplanche, PUF, Paris, 1973, pp. 271-281.

* Karl ABRAHAM: Esquisse d'une histoire du développement de la libido basée sur la psychanalyse des troubles mentaux (1924), pp. 269-270, in Développement de la libido, Oeuvres complètes - 2 (1913-1925), trad. de l'allemand par Ilse Barande avec la collaboration de Elisabeth Grin, PBP, n° 313, Paris, 1977, pp. 225 - 313.

* D^r A HESNARD: La Sexologie, PBP, n° 31, Paris, 1962, pp. 383-384, 385, 386-387.

* Mareel ECK: L'Homme et l'Angoisse, Fayard, Paris, 1964, pp. 239-240.

* Marie-Thérèse VAN EECKHOUT: Nos enfants devant la sexualité, Casterman, Paris, 1966, p. 119.

* D. J. WEST: Homsexualité, Op. cit., pp. 222-228 et pp. 230-231.

* Anthony STORR: Les Déviations sexuelles (Sexual Deviations), trad. de l'anglais par Françoise Chazolas, Coll. "Connaissance de la sexualité", R. Laffont, Paris, 1970, pp. 119-132.

* Georges Philippe BRABANT: Clefs pour la psychanalyse, Seghers, Paris, 1971, p. 95.

* Gilbert TORDJMAN: Clefs pour la sexologie, Seghers, Paris, 1972, pp. 281-282.

* Matthew BESDINE: Complexe de Jocaste, maternage et génie, p. 178, in Collectif: Psychanalyse du génie créateur, Dunod, Paris, 1974, pp. 168-208.

* Christianne OLIVIER: Les enfants de Jocaste. L'empreinte de la mère (1980), Denoël-Gonthier, Paris, 1982, pp. 60-64.

* د. نوال سعداوي: الرجل والجنس، مرجع مذكور، ص ١٥١-١٥٥.

* د. عبد الستار ابراهيم، د. عبد العزيز الدخيل، د. رضوى

ابراهيم: العلاج السلوكي للطفل، «عالم المعرفة»، الكويت، العدد ١٨٠، كانون الاول ١٩٩٣، ص ١٠٦.

(٣) راجع:

Françoise MALLET-JORIS: Les signes et les prodiges, Grasset, Paris, 1966, p. 300.

(٤) تبيّن دراسة أجراها ويتاكر وويكلّي Whitaker et Wickelly، سنة ١٩٦٤، أن تطوّر الميول الاستجناسيّة يرتبط بوجود تجارب سيّئة مع الجنس الآخر، أو يكون نتيجة لفشل مباشَر أو إحباط في العلاقات مع افراد من الجنس الآخر. راجع:

د. عبد الستار ابراهيم، د. عبد العزيز الدخيل، د. رضوى ابراهيم: العلاج السلوكي للطفل، مرجع مذكور، ص ١٤٨، حاشية ٦.

(٥) راجع:

Oswald SCHWARZ: Psychologie sexuelle (1949), trad. par François Duyckaerts, PUF, Paris, 1952, p. 38.

(٦) راجع:

D. J. WEST: Homexualite, op. cit., pp. 232-233, p. 240.

(٧) راجع:

D. J. WEST: op. cit., pp. 286-288.

راجع أيضًا معطيات تقرير Knisey (سنة ١٩٤٨) بهذا الشأن، وهي مذكورة في: D. J. WEST: op. cit., pp. 38-39 et p. 273.

(٨) راجع:

D. J. WEST: op. cit., p. 273.

(٩) راجع:

ECOLE DES PARENTS: Cette éducation sexuelle qui vous fait peur, Stock, Paris, 1974, p. 295.

(١٠) راجع مثلًا:

* Dr Bernard MULDWORF: Le Métier de père, Casterman, Paris, 1972, pp. 161-163.

* Fitzhugh DODSON: Le père et son enfant (How to father, Los

Angeles, 1974), traduit de l'américain par Yves Geffray, Marabout, Verviers, 1980, pp 117-118.

ويشير هذا المعالج النفسي والمربي الاميركي الى ان غياب الاب هذا تفاقم ايضًا من جراء تكاثر الطلاق حيث تعهد عامة الى الام رعاية الطفل، كما ينوّه بسبب آخر لغياب صورة الذكورة في حياة الولد، وهو ازدياد عدد الاناث على حساب الذكور في الهيئة التعليميّة، بحيث أن الصبي كثيرًا ما لا يكون له معلّم ذكر قبل ان يبلغ الخامسة عشرة من عمره.

(١١) راجع:

"L'ECOLE DES PARENTS" Paris, avril 1985, dossier sur l'homosexualité, p. 41.

(١٢) في ملفّ عن الاستجناس بين الشباب، أصدرته مجلة Le Monde de l'éducation الباريسيّة، في شباط ١٩٨٧، تُذكر حالة شاب في التاسعة عشرة من عمره، اكتشف عبر اذاعة تُدعى Fréquence gaie، ويبثّها الاستجناسيون، أنه ليس «مجنونًا»، كما كان ينعت نفسه مردّداً بذلك صدى الرأي الشائع، انما هو واحد من ٣٨ الف طالب ثانوي وجامعيّ أعلنوا أنّهم استجناسيون في استطلاع أجرته مؤخّرًا جريدة «الطالب» L'Etudiant، وقد تمكّن بعد اطّلاعه على مقال صدر في مجلة Télérama.، من الاتصال بحركة المراهقين الاستجناسيين (MAG)، وإستطاع أن يجد بينهم من يتحدّث اليه ويصادقه. وتشير الباحثتان اللتان ترصدان هذه الحالة، ان للاستجناسيين في فرنسا، منذ خمسة أعوام (اي منذ ١٩٨٢)، اذاعتهم الحرّة، وأن صحافتهم تُوزّع في كل أكشاك بيع الصحف، وأن التلفزيون ينظّم مناقشات حول الموضوع، وأن الكتّاب الاستجناسيّين يتحدّثون عن مشاكلهم في ندوة الكتاب المتلفزة الشهيرة آنذاك Apostrophes، وأن الاستجناسيّين يسيرون في تظاهرات في الشارع يرفعون فيها مطاليبهم.

راجع:

Catherine CHAINE et Anne DEBARÈDE: Les jeunes homosexuels (dossier), p. 58, in LE MONDE DE L'ÉDUCATION, n° 135, février 1987, pp. 58-66.

(١٣) يتحدّث الدكتور اندريه برج ، وهو محلّل نفسيّ ومربٌّ معروف ، عن النزعة المنتشرة في الغرب الى ابتذال العلاقة الجنسية banalisation بإفراغها من روعتها كعلاقة مميّزة بين كائنَين متحابَّين ، ويتساءَل ما عسى يكون وقع هذا التحوّل على مصير الجنس . ويذكر ، بهذا الصدد ، ملاحظة علمية أميركية تشير الى ان نسبة الحوينات المنوية في السّائل المنوي لدى الرجال آخذة في التناقص . ويخلص الى انه ليس مستبعَدًا أن يكون هذا التناقص مؤشّرًا على انخفاض قوة الرغبة . راجع :

Dr André BERGE: Aujourd'hui l'enfant, Coll. "L'enfant et l'avenir", Ed. Aubier Montaigne, Paris, 1976, pp. 60-61.

راجع أيضًا :

كوستي بندلي : الجنس ومعناه الانساني ، منشورات النور ، بيروت ، ط ٣، ١٩٨٥، ص ٤٧-٥٠.

(١٤) راجع :

François MITTERRAND: L'Abeille et l' Architecte. Chronique (1978), Le Livre de Poche, Paris, 1981, p. 15.

(١٥) راجع :

L'ORIENT, Beyrouth, 28 novembre 1967.

مذكور في كوستي بندلي : الجنس ومعناه الانساني ، مرجع مذكور ، ص ٤٨.

(١٦) راجع :

Hélène DEUTSCH: Problèmes de l'adolescence, PBP, Paris, 1970, pp. 109.

عن ملاحظات دوتش هذه ، راجع :

كوستي بندلي : الجنس ومعناه الانساني ، مرجع مذكور ، ص ٤٨-٤٩

(١٧) راجع :

* Denise POUILLON-FALCO: Prostitution, le dernier esclavage, p. 58, in: Elisabeth PAQUOT

(sous la direction de): Terre des femmes. Panorama de la situation des femmes dans le monde, La Découverte-Maspero, Boréal Express, Paris-Montréal, 1983, pp. 56-63.

* Laurence PANNET: La pornographie, pp. 357-358, in Terre des Femmes, op. cit., pp. 356-358.

Marie-Françoise HANS et Gilles LAPOUGE: Les femmes, la pornographie, l'érotisme (1978), Coll. "Points-Actuels", Seuil, Paris, 1980, pp. 389-391.

(١٨) راجع:

Gilbert TORDJMAN: Vie sexuelle et affective, pp. 235-236, in J. KAHN-NATHAN et G. TORJMAN (sous la direction de): Le Sexe en questions. Une expérience d'éducation sexuelle dans la région parisienne, Denoël-Gonthier, Paris, 1970, pp. 102-258.

(١٩) راجع:

G. TORDJMAN: Vie sexuelle et affective, art. cit., p. 236.

(٢٠) راجع:

D. J. WEST: Homosexualité, op. cit., p. 240.

(٢١) راجع:

A. OVERING: Aspects psychiatriques de l'homosexualité, p. 68, in: A. OVERING, TH. KEMPE, J. VERMEULEN, H RUYGERS: Homosexualité, traduit du néerlandais par Y. HUON, Mame, 1967, pp. 24-81.

(٢٢) راجع:

Denis de ROUGEMONT: Les deux âmes d'André Gide, pp. 196-198, Les mythes de l'amour (1961),

"Idées", Gallimard, Paris, 1967, pp 177-202.

(٢٣) راجع:

André GIDE: Si le grain ne meurt, p 94, cité in: D. de ROUGEMONT: Les deux âmes d'André Gide, op. cit.

(٢٤) راجع:

A. GIDE: Si le grain ne meurt, p. 247, cité in: op. cit.

(٢٥) يقول المحلّل النفسي الكبير الدكتور أوتو فينشيل:

« كثيرون هم الذين يكافحون الاستجناس بلا هوادة في المجتمع، كي يتجنّبوا الاحساس بشعورهم الذاتيّ بالذنب، النابع من استجناس لا شعوريّ. أو أنّهم لا يطيقون احتمال سلوك عند الآخرين، موجود لديهم لا شعوريًا بشكل جوهريّ ».

راجع:

D[r] Otto FENICHEL: La théorie psychanalytique des névroses, tome 2, traduit de l'anglais par M. Schlumberger, C. Pidoux, M. Cahen et M. Fain, PUF, Paris, 1953, p. 597.

ويقول الطبيبِ النفسي ميشال لاكور:

« ... إن الكُرْه الغريزيّ والنفور شبه الجسديّ، حيال الاستجناسيّين، ليسا، في كثير من الاحوال، سوى تمويه رغبة مكبوتة بعناية ».

D[r] Michel LACOUR: Sexualité du jeune adulte, Casterman, Paris, 1971, p. 118.

(٢٦) يقول الباحث شيلدون كاشدان:

« ... إذا عُرف عن الفرد أنه من أصحاب الجنسية المثلية فإنّه يتعرّض عندئذٍ للنبذ الذي يتعرّض له صاحب السلوك المنحرف عادة. وبذلك لا يجد له ملجأ إلّا أن ينسحب أكثر الى دوائر الجنسية المثليّة ...»

شيلدون كاشدان: علم نفس الشواذ، ترجمة الدكتور أحمد عبد العزيز سلامة، مراجعة الدكتور محمد عثمان نجاتي، ط ٢، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٨٥.

(٢٧) راجع بهذا الصدد :
● كوستي بندلي : كيف نواجه أسئلة أولادنا عن الجنس ؟ طبعة ثانية مزيدة ، جرّوس برس ، طرابلس ، ١٩٩٧.
● كوستي بندلي : الابعاد الروحية للتربية الجنسية ، سلسلة « الانجيل على دروب العصر » رقم ٨، منشورات النور ، بيروت ، ١٩٨٥.
● كوستي بندلي : الجنس ومعناه الانساني ، الطبعة الرابعة ، منشورات النور ، بيروت ١٩٩٩، ص ٢٢٢-٢٦٢.

(٢٨) راجع : د. كريستين نصّار : عُد يا ابي . مشاكل يطرحها غياب الأب عن الأسرة (حالة خاصة : الاب اللبناني) ، جرّوس برس ، طرابلس ، ط ١، ١٩٩٣ .

(٢٩) راجع :
○ كوستي بندلي : تعليم الفتاة وآفاق المرأة ، طبعة ثانية مزيدة، جَرُّوس برسّ، طرابلس ، ١٩٩٨.
○ كوستي بندلي : المرأة في موقعها ومرتجاها ، مجلس كنائس الشرق الاوسط ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

(٣٠) راجع :
○ كوستي بندلي : مع تساؤلات المرشدين . قضايا وحالات تربوية ، القسم الخامس : قضايا الجنس والتربية الجنسية والاختلاط ، الفصل الاول : مشاكل الاختلاط وموضوع الفِرَق المختلطة ، منشورات النور ، بيروت ، ١٩٩٠، ص ١٧٣-١٩٥ .
○ كوستي بندلي: الابعاد الروحية للتربية الجنسية ، مرجع مذكور ، ص ٤٣-٤٩ .

(٣١) راجع :
Gilbert TORDJMAN: Clefs pour la sexologie, Ed. Seghers, Paris, 1972, p. 282.

(٣٢) راجع :
D[r] A. HESNARD: La Sexologie, op. cit., p. 384.

(٣٣) راجع :
François DUYCKAERTS: La Formation du lien

sexuel, Ed. Charles Dessart, Bruxelles, 1964, p. 218.

(٣٤) في الملف الذي صدر في صحيفة «لموند التربية» الباريسية عن الشباب الاستجاسيين، والذي سبق أن اشرنا اليه، تقول الباحثتان اللتان أعدّتاه، إنه، ما خلا بعض الحالات الاستثنائية، فإن معظم الشباب الاستجناسيّين الذين تمّ الاتصال بهم في إطار هذا الاستقصاء، كانوا يعانون من الألم والعزلة والشعور بالذنب، ومن العبء الذي لا يطاق الذي تفرضه عليهم ضرورة الكتمان. صحيح أن المجتمع أصبح أكثر تسامحًا حيالهم، ولكن المراهقين الذين يكتشفون أنهم استجناسيون، لم يخفّف تسامح المجتمع هذا من وطأة معاناتهم. ذلك أنّهم عادة يرسمون عن الجنس المثليّ صورة بالغة السلبيّة ورثوها من عائلاتهم، أو تكوّنت لديهم انطلاقًا من الأفكار الرائجة عن المستجنسين والتي تنعتهم بالجنون والخلاعة. ولكن شدّة المعاناة نابعة خاصة من كون المراهق الذي يكتشف نفسه شاذًّا، يُحكم عليه بالانعزال ويُغلق عليه في دائرة التخفّي، في مدرسته وخاصة في أسرته. ويذكر الملفّ ما أفضى به أحد هؤلاء: «لو كان الأمر حقًا بيدي، لأخترتُ أن أكون جنسيًا غيريًا hétérosexuel، لان الاستجناس يشكّل مشكلة». راجع:

C. CHAINE et A. DÉBARÈDE: Les Jeunes homosexuels (dossier), art. cit., pp. 58-60.

(٣٥) هذا مع العلم بأنّ هذه الصلات العابرة، يُضطر اليها، في كثير من الاحيان، أصحاب الجنسية المثلية، اضطرارًا، لأنّهم، اذا اعترفوا بشذوذهم وعُرفوا به، نُبذوا من المجتمع (رغم بعض التساهل الذي اصبحوا يلاقونه خلال السنوات الاخيرة)، لا بل من أسَرِهم نفسها، فلا يبقى أمامهم، والحالة هذه، الا التفتيش عن إشباع ميولهم عِبر اتصالات جنسية سريعة وخفيّة يسنح بها الظرف الراهن. يقول سشيلدون كاشدان بهذا الصدد:

«... لا تزال حياة صاحب الجنسية المثليّة مليئة بالصعوبات وبالوحدة في أكثر الأحيان. ذلك أنّ الاعتراف الصريح بالجنسية المثليّة يؤدّي بصفة نمطيّة الى الإبعاد او الإقصاء عن المجتمع الأكبر، على حين

ان الاعتراف العابر يؤدّي الى صلات جنسية سرّية خالية من المشاعر والالتزام ...»

ومنها، يضيف الباحث، تلك التي درسها عالم الاجتماع لود همفريز Laud HUMPHREYS، والتي تتمّ في أماكن تسمع لهؤلاء بممارسة «الجنس الفوري غير القائم على العلاقات الشخصية»، وهي دورات المياه الواقعة في محطّات الاتوبيس والبلاجات العامة وفي الحدائق.

راجع:

شيلدون كاشدان: علم نفس الشواذ، مرجع مذكور، ص ٨٦.

(٣٦) ○ يوضح الطبيب الهولندي اوفرينغ Overing، استنادًا الى تحاليل Poslavski (سنة ١٩٥٩) لماذا يصعب على الاستجناسيّ أن يستقر على شريك واحد. ذلك «أنّ الرجل الاستجناسيّ لا يسعى سوى الى ما هو «مماثل» (لذاته)» "ne cherche que du "même"")". لذا فهو لا يطيق العلاقة الطويلة الأمَد، لأن هذه، بتعميمها الصلة بين الطرفين، تكشف لا محالة، وبشكل متزايد، فرادة الشريك واختلافه. من هنا نزعة الاستجناسيّ الى قطع العلاقة قبل ان تؤول الى هذا الاكتشاف، لذا لا تدوم العلاقات الاستجناسية غالبًا ما يتجاوز فترة سنة واحدة الى ثلاث سنين أو خمس سنين على الاكثر، ومع ذلك، يقول هذا الباحث، فإن جمعية هولنديّة للجنسيين المثليين، تسمّي نفسها «مركز الثقافة والترفيه»، تشهد بوجود علاقات تدوم أكثر من ذلك بكثير، وقد امتدت، في حوالي اربعين من الحالات، الى عشر سنوات او اكثر، وفي احدى الحالات الى ٣٦ عامًا. راجع:

A. OVERING: Aspects psychiatriques de l'homosexualité, art. cit., pp. 60 et 62-64.

○ هذا وقد ساهم خطر السيدا (او الايدز)، الذي ظهر في أوائل الثمانينات، في لجم التنقّل من شريك الى شريك، كما يتّضح في ملف «لموند التربية» (شباط ١٩٨٧) الذي سبقت الإشارة اليه، حيث يوضح الدكتور كلود لوجون Claude Lejeune، الذي يرأس جمعية الاطباء الاستجناسيين، أن نمطًا من السلوك الاستجناسيّ تلاشى بعد ظهور السيدا ولن يعود أبدًا، وهو نمط مستورد من الولايات المتّحدة،

يقضي بتبديل الشريك في كل ليلة. فالخوف من السيدا أدّى الى تخفيض في عدد الاتصالات والى ضبط أكبر للنفس وشعور اكبر بالمسؤولية. مذكور في:

C. CHAINE et A. DÉBARÈDE: Les Jeunes homosexuels (dossier), art. cit., p. 60.

○ من ناحية أخرى، فقط سجّل المكتب الكاثوليكي الهولندي للصحة الروحية، ملاحظة بأنّ العلاقة الاستجناسيّة الثابتة بين شريكين تسهّل تطوّرهما نحو الافضل، وتحوّلهما عن العشوائية والبغاء، وتجعل، في كثير من الاحيان، رغائبهما الجنسية أكثر التزامًا، وتكون حافزًا ايجابيًا لهما في نموّهما الروحيّ والدينيّ. راجع:

La cure spirituelle des homosexuels (Note d'information éditée par le Bureau catholique de santé spirituelle néerlandais), pp 194-195, in: A. OVERING, Th. KEMPE, J. VERMEULEN, H. RUYGERS: Homosexualité, op. cit., pp. 191-196.

(٣٧) ○ في محاضرة القاها بعنوان: «الاوجه الاجتماعية للجنسية المثلية» قال البرفسور Kempe، وهو اخصائي هولندي في علم الإجرام:

«أنني مقتنع بأنّ الكلمة الإنجيليّة «أحبب قريبك كنفسك» (...)، ينبغي أن تأخذ كلّ معناها في ما نحن بصدده، كما في كل مجالات الحياة الاخرى».

واضاف في موضع آخر من المحاضرة نفسها:

«فقط عندما نبدأ بالتعامل مع من نحتكّ بهم من الاستجناسيين على أنهم بشريّون مثلنا، يصبح باستطاعتنا أن نقيم معهم اتصالًا حقيقيًا، نتّخذه قاعدة لمقاربة لهم لا تكون عبارة عن صدقة مهنية موجّهة لشخص في حالة خطر (علمًا بأنه من المستبعَد ان تكون هذه حالتهم دائمًا)، إنّما تكون تعبيرًا عن هذا التضامن الانسانيّ الذي يحتاج اليه الاستجناسيّون أكثر من كثيرين غيرهم».

G. Th. KEMPE: Aspects sociaux de l'homophilie, pp. 101 et 109-110, in A. OVERING, Th. KEMPE, T.

VERMEULEN, H. RUYGERS: Homosexualité, op. cit., pp. 82-111.

o هذا وينهي البروفسور رويجرز مداخلة عرض فيها حصيلة خمسة أعوام من العمل الرعائي بين الاستجناسيّين، مستشهدًا بمقطع من تقرير وضعه فريق من «الكويكرس» Quakers الانكليز (و «الكويكرس» او «الاصحاب» فرقة بروتستانتية تدعو الى السلام والبساطة ومحبة البشر) يقولون فيه إنّهم ليسوا مع تشجيع كل الاعمال او العلاقات الاستجناسية، وإنّه ينبغي شجب العشوائية او الانانية، وهذا الغياب الكامل للودّ الحقيقي الذي يتّسم به العديد من العلاقات بين الراشدين، جنسية غيرية كانت او جنسيّة مثليّة. في كل ذلك، يقولون، لا يسعنا أن نرى سوى فسق بارز رغم تستّره... اما حيث يوجد حنان صادق، وقبول صريح بالمسؤولية، ونواة علاقة اصيلة، فمن المؤكّد ان الله ليس مقصيًّا عن (Sunday Times, 17 février 1963)

راجع:

Professeur H. RUYGERS: Regards en arrière sur cinq années d'expérience pastorale, pp. 188-189, in: OVERING, KEMPE, RUYGERS: Homosexualité, op. cit., pp. 145-190.

(٣٨) راجع:

Gilbert TORDJMAN: La violence, le sexe... et l'amour, R. Laffont Paris, 1979, pp. 129-132.

o في ٢٣ آذار ١٩٦٠، نظّمت الجمعية الكاثوليكية الهولنديّة للصحة الروحية، يوم دراسة لظاهرة الاستجناس، القيت فيه ثلاث محاضرات عن هذا الموضوع. وفي المناقشة التي تلت هذه المحاضرات، قال البروفسور رويجرز انه يبدو ان العديد من ذوي الاتجاه الجنسيّ المثليّ الصميم يستطيعون ان ينعموا بالصداقة مع انسان من نوعهم دون أن يؤدي ذلك الى ممارسة جنسية بينهما. راجع:

Professeur H. RUYGERS, in Discussion, p. 140. in: OVERING, KEMPE, VERMEULEN, RUYGERS:

Homosexualité, op. cit., pp. 126-144.

○ يقول الباحث شلدون كاشدان :

« وفي السنوات الاخيرة أخذ الاهتمام يتزايد بوجود أصحاب الجنسية المثليّة في حضارتنا، وبالتعرّف على مدى إشباع جماعات الجنسية المثلية للحاجات المنحرفة عندهم. ومن النتائج التي هي اكثر طرافة من غيرها ان الجنسية في ذاتها ليست من الاهمية في الجنسية المثلية بقدر ما كان يُظنّ عادة. وهذا هو ما نتبيّنه بوضوح من التعليق التالي الذي تقدم به واحد من اصحاب الجنسية المثليّة :

« وأكبر الظنّ عندي إن الناس الذين يصادف بعضهم البعض الآخر لا تقوم بينهم العلاقات الجنسية. أعني أن الاصدقاء من اصحاب الجنسية المثليّة لا يضاجع أحدهم الآخر. صحيح انني لا استطيع أن افسّر لك هذا، ولكنهم لا يفعلون ذلك (...).»

شيلدون كاشدان : علم نفس الشواذ، مرجع مذكور، ص ٨٤-٨٥.

هذا ما تؤيده ايضًا الباحثتان شين وديباريد في الملف الصادر في « لموند التربية » عن الاستجناسيّن الشباب، فتقولان إن كل الشبان الاستجناسيّين الذين تمّ الاتصال بهم في إطار استقصاء قامت به الصحيفة المذكورة، أكّدوا كثيرًا على الصداقة، التي تتّخذ بنظرهم قيمة خاصة بعد سني الصمت الذي كان مفروضًا عليهم سابقًا بسبب الضغط الاجتماعيّ. وقد قال احدهم، وهو مؤسّس حركة المراهقين الاستجناسيّين، انهم، في هذه الحركة، يتحدّثون عن كل شيء، ما عدا الجنس. راجع :

C. CHAINE et A. DÉBRARÈDE: Les jeunes homosexuels (dossier) art. cit., p. 60.

(٣٩) راجع :

D. J. WEST: Homosexualité, op., cit., pp. 186-196 et pp. 288-289.

القسم الثاني

الزواج وممارسة الجنس

تقديم

يشمل هذا القسم ثلاثة فصول صيغت عناصرها في أوقات ومناسبات مختلفة :

١- هل من ترابط بين الممارسةِ الجنسية والزواج؟ (١٩٩٨)

٢- الالحاح الجنسي في مواجهة عوائق الزواج (١٩٩١)

٣- ممارسة الجنس في إطار الزواج (١٩٨٩)

الفصل الاول

هل من ترابط بين الممارسة الجنسيّة والزواج؟ (١٩٩٨)

تقديم

في أواخر عام ١٩٩٧، نقل إليّ المطران بولس بندلي، راعي ابرشية عكار الارثوذكسية، رغبة عدد من شبان أبرشيته في أن أخوض معهم مسألة الممارسة الجنسية قبل الزواج، وهو موضوع كان قد بُحث تكرارًا في ندوات تلفزيونية في لبنان واختلفت حوله الآراء، مما أثار البلبلة في نفوس الكثيرين. أبديتُ استعدادي للاستجابة مع رغبتهم، انطلاقًا من أسئلة تردني عنهم وتعبّر عن هواجسهم. فوافاني المطران بولس بما حمّلوه من أسئلة، فاستلهمتها في كتابة مداخلتي، التي نشرت في آذار ١٩٩٨، في عدد خاص من نشرة «البشارة» الرعائية الاسبوعية التي تصدرها أبرشية عكار الارثوذكسية. نصّ هذه المداخلة يُستعاد هنا، مع كثير من الاضافات.

اما الاسئلة التي استندت اليها المداخلة، فأثبتها في ما يلي:

١- الجنس قبل الزواج ، هل تسمح به الكنيسة ؟

٢- الجنس لغة الجسد ، أيُفرح الله حديث الحبيبين ؟

٣- هل الجنس مرتبط فقط بالزواج ولماذا ؟

٤- الحرية الجنسية أليست من ضمن حرية الفرد العامة ؟ لماذا تقيّدها الكنيسة ؟

٥- خوفًا من عدم انسجام الأجساد في الزواج ، يجرّب البعض قبل الزواج الجنس لكي لا يُضطروا للطلاق وللخيانة الزوجية أو هجر الجسد ورغباته ، ما هو موقف الكنيسة من ذلك ؟

مقدّمة

الأسئلة المثبّتة أعلاه ترتبط كلّها بسؤال واحد محوريّ طالما شغل بال الشباب ، مما دفع وسائل الاعلام الى تعاطيه بتواتر في الحقبة التي نعيش. فأذكى هذا التعاطي حدّة السؤال ودفعه الى واجهة الاهتمامات الشبابية . هذا السؤال ، الذي ترتبط به وتتفرّع عنه كلّ الأسئلة التي سبق ذكرها ، يمكن صياغته على الوجه التالي :

« لماذا الربط الحتميّ بين الجنس والزواج ؟ »

ما لا شكّ فيه أن السؤال هذا وجيه ، لا يمكن بأية حال تجاهله او الاستخفاف به او معالجته بتسرّع او استعلاء ، او الاجابة عنه

باجترار عبارات منمّطة جاهزة ، سواءً أكانت متشدّدة أو متساهلة ، ولكن الإجابة المسؤولة التي يتطلّبها ويستحقّها ، لا بدّ لها ، برأيي ، من الانطلاق من استجلاء عناصر السؤال نفسها ، كي لا يكتنفها غموض يعطّل وضوح الرؤية ويؤدّي الى التباس في المفاهيم يكثُر ، للأسف ، في النقاش الذي يحتدم حول ما نحن بصدده ، فيحوّله غالبًا الى ما يشبه « حوار طرشان » .

ما أخشاه هو أن يكون كثيرون من دعاة ممارسة الجنس قبل الزواج ، ومن معارضيها ، على حدّ سواءً ، ملتقين ومتَّفِقين على خلفية واحدة غير مُعلنَة ، الا وهي اعتبار مفهومَي الجنس والزواج وكأنّهما مفهومان متقابلان لا إرتباط عضويّ بينهما ، بل مجرّد صلة خارجية هي من أعراف المجتمع . في منظور كهذا ، يُعتبر الجنس أمرًا غريزيًا وحسب ، فيما يُعتبر الزواج شأناً اجتماعيًا وحسب . ويُنظر اليه بالتالي على انه بمثابة إذن بممارسة الجنس يمنحه المجتمع (ومن ورائه « كنيسة » تبدو ، في هذا الإطار ، لا تيّار حياة ، بل مؤسسة اجتماعية ذات وزن خاصّ لانه إلهيّ) . إنطلاقًا من هذه الارضيّة المشتركة ينشأ الخلاف : فبينما يرى فريق ضرورة التقيّد بهذا « الإذن » حفاظًا على الانضباط و« الاخلاق » ، يرى الفريق الآخر – وعدده بتزايد ملحوظ في الوقت الحاضر – أن يصار الى الاستغناء عن « الترخيص » الآنف الذكر ، لصالح « الحرية » والأصالة والانتعاش . واذا بنا أمام تصادم عقيم يراوح فيه كل من الطرفين مكانه ويتشبّث بموقعه ، دون أن يهتديا الى لغة مشتركة

يتفاهمان بها ، ولو الى حدّ ، أو سبيل حياة يلتقيان عليه ، ولو تشعّب الدرب .

من هنا كان لا بدّ ، قبل أي خوض في موضوع إرتباط الجنس أو عدم إرتباطه بالزواج ، من توضيح المعنى الانسانيّ الأصيل الكامِن في كلّ من عبارتَي « الجنس » و« الزواج » ، لئلّا تتحوّلا ، كما يحصل غالبًا في النقاش الذي أشرنا اليه ، الى مفاهيم مجرّدة ، جامدة ، مبتورة ، مصطنعة ، تمسخ حقيقة كل من الجنس المعاش والزواج المعاش بكل ما فيهما من ثراء إنسانيّ .

لذا سوف يكون دأبي ، في البحث الحاضر ، أن أسلّط ما استطعت من أضواء بغية استقصاء معنى عَيش الجنس في عمقه الانسانيّ ، وأنّ أصل منه إلى معنى الزواج في حقيقته الانسانية الوجدانية ، لعلّ ما قد يتجلّى بينهما من ارتباط يبدو لنا آنذاك لا أمرًا تعسّفيًا بل من طبيعة الاشياء . ولعلّ دور الكنيسة يتكشّف لنا ، عبر ذلك ، على حقيقته ، فندرك أن شأنها ليس أن « تسمح » او « تقيّد » (وهما عبارتان وردتا في السؤالين ١ و ٤) ، وأن تضطلع بالتالي بدور « شرطي الاخلاق » ، بل أن تنكبّ على القلب البشري ، تستقصي أعماقه بالنور الذي ألقاه الربّ فيها ، فتقرأ فيه ما سجّله خالق هذا القلب من صورة بهائه التي لا تزال بادية رغم حجاب الأهواء ، كمثل كوكب لم يقوَ سواد الغيوم على إطفاء تألّقه في كبد السماء .

أولًا : اللقاء هدف الاتصال الجنسيّ

يجدر بنا ، برأيي ، أن ننطلق من ملاحظة الخبرة الجنسية في انطلاقتها العفوية وواقعها الراهن المعاش ، وأن نلقي عليها نظرة صريحة صافية ، علّنا نستقصي سائر أبعادها الانسانية . أعرف أن هذا الصفاء ليس بالامر السهل ، لأن إرثًا ثقيلًا قد أحاط الجنس بالريبة والتأثيم والتخويف ، مما أفرز انفعالات وانفعالات مضادة ، من شأنها أن تعكّر وضوح الرؤية . فلنجتهد اذًا أن نعود الى بساطة النظرة الاولى ، تلك التي يصوّرها سفر التكوين في وصفه لفجر الخليقة ، فيروي أن آدم ، اذ شاهد المرأة الاولى المعدّة له ، هتف مفتونًا : « هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي ! » (تك ٢ :٢٣) .

ماذا يبغي الانسان اذًا عند ممارسته الاتصال الجنسي ؟ إن طبيعة هذا الاتصال نفسها توحي بالجواب . فهناك جسدان يلتحمان أحدهما بالآخر الى ابعد حدود التلاحم ، وكأنّهما يتداخلان وينتزعان الى اختراق الحدود بينهما ، الى الانصهار معًا . فهل هي ، يا تُرى ، مجرّد عملية جسدية ، هل هو مجرّد تَماسّ الجلد واللحم والدم والعظام والاعصاب ؟ إن أجبنا هكذا ، غاب عنا أن لا شي ، عند الانسان ، يقف عند حدود الجسد وحده ، وأن أعماله التي تبدو بدنية محضّة يشغل فيها الوجدان حيزًا كبيرًا . فلنأخذ الطعام على سبيل المثال . إن تناوله عند الإنسان ليس هو مجرّد التهام قوت للجسد ، بل هو مُشبَع بالعناصر الوجدانية[1] . لذا نرى أن الطعام

يحلو للمرء اذا ما أعدّه له شخص عزيز، كما أنّ مذاقه يبدو له شهيًا اذا ما جالسه الى المائدة من تجمعه بِهم روابط المودّة[٢]. وبالعكس فقد لا تخلو اللذّ الاطعمة من مرارة بالنسبة اليه، لا بل «تبقى على معدته» كما يقول التعبير الشعبيّ، اذا ما تناولها في العزلة او الغربة.

فإذا كانت الصفة الوجدانية على هذه الاهمية في عملية كالطعام لا تصل الانسان بسواه إلا بصورة غير مباشرة عن طريق مأكل يتناوله منه او معه، فكم بالاحرى يكون ذلك صحيحًا في الاتصال الجنسي حيث الأجساد على هذا التداخل الذي اشرنا اليه. خاصة اذا تذكّرنا أن الجسد لدى الانسان ليس نوعًا من الغلاف الخارجيّ او اللباس. انما هو مكان حضور الكيان الشخصي وإطلالته على الكون وعلى الآخرين (هنا يلتقي فكر الكتاب المقدس، بشكل مُلْفِت، مع الفكر الحديث). لذا فإن التحام الأجساد، اذا كان أصيلًا، لا يبلغ غايته إلّا اذا كان معبرًا لالتحام وجدانيّ صميم، إلّا اذا كان تواصلًا حميمًا بين شخصين[٣]. لذا دعته اللغة «وصالًا»، وهو تعبير بليغ عن غايته ومداه[٤].

فإذا حصل هذا «الوصال»، صار التحام الاجساد «لغته»، كما عبّر السؤال رقم ٢، وهي لغة أبعد وأمضى من لغة الكلام. فالكلام يمدّ جسرًا بين عزلتين ولكنه لا يقوى على إزالتهما، اما «الوصال» فهو أقصى محاولة تُبْذَل لتخطيّ العزلة ودخول كلّ واحد من الشريكين في صميم عالم الآخر، «في جلده» اذا صحّ التعبير.

الاتصال الجنسيّ لا معنى له اذًا إلّا إذا آل الى لقاء ما بعده لقاء[٥]. ان مشروع هذا اللقاء مُسجَّل في التحام الاجساد نفسه، وهو الذي يعطيه أصالته وكثافته. فإذا تحقّق، صار «الاثنان جسدًا واحدًا»، على حدّ تعبير سفر التكوين (تك ٢:٢٤) الذي ردّده الانجيل من بعده (متى ١٩:٥و٦، مرقس ١٠:٨)، والمقصود، على ما نعرفه وأشرنا اليه أعلاه من معنى كلمة «الجسد» في الفكر الكتابي، وهي تشير الى الانسان برمّته، انهما يصيران كيانًا واحدًا عبر الجسد. اما اذا غاب هذا المشروع، او انفسد أو تشوّه، فإن الاتصال الجنسيّ يضيع في صحراء اللامعنى. اذ ذاك، لا يعود «لغة»، لان حركات الاجساد تكون قد أُفرغَت من معناها التواصليّ وأبقت بالتالي كلًّا من الطرفين في عزلته، محرومًا من اتصال حقيقي بالآخر. شأنها في هذه الحال شأن الكلام الأجوف الذي يُطلقه المتكلمون لمجرّد كسر جدار الصمت او لمحض التباهي او الخداع، ولكنه لا يمدّ بينهم جسورًا ولا يدخلهم الى دفء المشاركة وثراء التبادل.

كون الاتصال الجنسي عند الانسان مسخَّر بطبيعته لتحقيق اللقاء الوجدانيّ، يتّضح بشكل أفضل اذا تطلّعنا الى ظاهرتَين يجدر التوقّف عندهما.

○ أولهما، الخيبة التي يخلّفها الاتصال الجنسيّ، مهما برعت وتنوّعت «تقنيّاته»، اذا كان المرء منهمكًا بذاته اثناء إقدامه عليه (وكأنّه «يضاجع نفسه» من خلال الآخر، على حدّ تعبير أحدهم). قد يجني منه لذة حادّة ولكنها لا تتعدّى كونها اشتعالًا

وقتيًا يترك وراءه طعم الرماد. هذا ما خبره الأقدمون وعبّروا عنه بالحكمة الشهيرة "post coïtum animal triste" (الحيّ بعد الجماع كئيب)، اذ سرعان ما يهبط المرء من ذروة النشوة المحمومة الى هوّة الفراغ المصقِع، ويزداد سقوطه هذا ايلامًا نظرًا لكونه قد أشرف برهة على اكتمال لمح وميضه ولكنه ما لبث أن افلت منه كما لو كان قبض على الريح(٦). فالجنس قد يُشبَّه من هذه الناحية بصاروخ ذي طابقين يُطلَق في الفضاء، فيجري بسرعة فائقة بزخم طابقه الاول (الذي هو طاقة الرغبة الجنسية)، ولكنّه ما يلبث أن يهبط من حيث أتى، دون أن يبلغ الكوكب المقصود، لان الطابق الثاني (وهو يمثّل قصد اللقاء)، الذي كان مُفترَضًا أن يتوّج المسيرة، كان أضعف من أن ينطلق(٧).

هذا ما تؤكّده لنا الفورة الجنسيّة الحاضرة، التي تبدو، في الظاهر، وكأنّها تعظيم للجنس، في حين انها تفضح هزالتها وضعفها الناتجَين عن إغفال العنصر الانسانيّ الاساسيّ فيه، وهو هاجس الخروج من الذات للقاء الآخر. فما الإفراط في كمية عمال الجنسية إلّا محاولة للتعويض عن سوء نوعيّتها (وكأنّ «ممارسة الحبّ» - وهي ترجمة العبارة الفرنسية الشائعة faire l'amour - بوسعها، كما قيل، أن تغني عن الحبّ نفسه). وما التركيز المهووس على «تقنيات» الاتصال الجنسي سوى تعليل للنفس، خادع، بأنّ التفنّن في الوسائل يمكنه أن يقوم مقام حقيقة الاتصال الغائبة. وما الانحرافات المتكاثرة في ممارسة الجنس، من ساديّة وماسوشيّة ولواط واغتصاب، وممارسة الجنس مع الاطفال، المقترنة

أحيانًا بالتلذّذ بتعذيبهم (!)[٨]... سوى محاولات يائسة لإعادة الطعم الى جنس غابت نكهته لأنه فقد معناه نتيجة إفراغه من جوهره[٩]. تبخيس الجنس هذا، المستتر وراء تضخيمه الظاهريّ، يفسّر لنا ايضًا لماذا أصبح الكثيرون يديرون له الظهر ليرتموا في المخدّرات وجنّاتها الكاذبة[١٠] او ليسكروا بسرعة سيارات السباق الجنونية.

○ أما الظاهرة الثانية التي أودّ التوقّف عندها، فهي تعكس مسيرة الاولى، لانها اهتداء من اللامعنى الى المعنى. فكم من متهتّك لم يكن يرى في الجنس سوى المتعة يسعى اليها دون سواها كما تنتقل الفراشة من زهرة الى زهرة، لا يعنيها من كل واحدة سوى امتصاصِ رحيقها، وجد ذات يوم امرأةً لم يكن يتوقّعها أيقظته من سباته الطويل. فإذا به يكتشف، مذهولًا، أنّه أضحى مشدودًا الى ما هو أبعد من المتعة، الى لقاء شخص لا يمكن لأحد أن يقوم مقامه، وأن متعته لا تكتمل إلا بهذا اللقاء (وقد أفضى احد هؤلاء بالانقلاب الذي اعتراه، بقوله: «كنتُ، حتى الآن، أتعامل مع أجساد، وإذا بي اصادف وجهًا»). واذا بهذا الانسان، الذي كان يمعن في تجريد الجنس من كلّ بعد وجدانيّ، قد بوغِتَ ببروز هذا البعد الذي طالما استطاع تغييبه، وكأنّه الآن انقضّ عليه فجآة وأخذه في حبائله وذهب به الى حيث لم يكن يريد أن يمضي[١١].

وقد تتحوّل حياته كلّها، كما جرى لبطل فيلم Pretty woman. كان هذا رجلَ اعمال غنيًا جدًا، استأجر في أحد

أسفاره إحدى البغايا[١٢] ليلهو بها ليلة في الفندق الذي كان يقيم فيه ، وإذا به يكتشف الحبّ مع تلك البغيّ وتتلوّن به شخصيته كلّها ، فيصبح ، مثلًا ، أقل قسوة في التعامل مع منافسيه . وينتهي به الامر ، بعد معاناة ، الى تخطّي الحواجز الاجتماعية الهائلة التي أقامها انتماؤه الطبقيّ ، ليقدم على الزواج من تلك المرأة واتّخاذها رفيقة لحياته .

ثانيًا : شرط اللقاء الأصيل اعتبار الآخر شخصًا

اذا كان الاتصال الجنسيّ يهدف في جوهره ، كما رأينا ، الى اللقاء الوجدانيّ ، وإذا كان مقياس الانتعاش الذي يمنحه للشريكين هو بالضبط نجاحه في اقامة اللقاء ، بقي علينا أن نوضح شروط هذا اللقاء كي يأتي أصيلًا ، محقّقًا سمات التواصل الانسانيّ الصحيح . قد نقول بهذا الشأن إنّ ممارسة الجنس على حقيقته تقتضي ان يجمع الحبّ بين الشريكين . هذا صحيح مبدئيًا ، ولكن عبارة « الحبّ » لا تخلو عن غموض والتباس لا بدّ من رفعهما خشية السقوط في الوهم . ذلك أنها تُطلَق على أمور هي غاية في التباين ، كأن أقول إنني أحبّ التفاح او السجائر أو إنني أحب امرأة . وقد يكون حبّي لامرأة شبيهًا الى حدّ ما بحبيّ للسجائر او الفواكه . لذلك سنُعمل مفهوم « اللقاء » للتمحيص بين حبّ وحبّ ، وبالتالي لاكتشاف نمط الحبّ الذي به يتحقّق فعلًا اللقاء بين الشريكين في الاتصال الجنسيّ .

سوف أنطلق من مُسلَّمة بديهية ، وهي أن اي لقاء حقيقي لا

يمكن أن يتمّ الا بين شخص وشخص، لا بين شخص وشيء. فالشيء يمكنني أن أمتلكه، أن أستحوذ عليه، أن أحتويه، أن أستهلكه، أن أستخدمه، أن أستمتع به، ولكن لا يمكن بحال من الاحوال أن ألاقيه، أي ان ألِجَ الى داخليّته، أن أتحسّس دائرة وجدانية فيه، أن اشاركه في خبرة يعيشها بحيث يغتني وجوده بي وأنا أغتني بوجوده. لا مجال للتبادل بيني وبينه: فجلّ ما أستطيع هو أن أضمّه اليّ، أن أستوعبه في ذاتي، أن أتعامل معه بالاضافة الى حاجاتي، ولكنه غير وارد أن أتجاوز ذاتيَ اليه. مجمل الكلام، إنه لا يمكن أن يقوم بيني وبين شيء من الاشياء، تداخل وجدانيّ يثريني ويثريه. فاذا أكلت تفاحة، تلاشت هذه فيّ وبقيت أنا وحدي بعد أن غيّبتها في جوفي وبدني. بهذا المعنى ايضًا يمكن ان نفهم، على ما أظنّ، قول الرسول بولس: «إننا، إن أكلنا، لا نزيد» (١ كو ٨:٨). وحده اللقاء مع شخص يخرجني من عزلتي اذ يشركني في حياة هذا الآخر كما يشركه في حياتي أنا.

ولكن حذارِ من التعامل مع شخص كما لو كان شيئًا من الاشياء، لانني إذ ذاك أُحرَم من نعمة اللقاء التي وحده الشخص يوفّرها لي. هذا التباس كثيرًا ما يقع فيه المرء عن قصد او عن غير قصد، وفي ميدان الجنس بشكل أخصّ. فالحبّ، على هذا الصعيد، كثيرًا ما يعني الالتهام، التهام أحد الطرفين للآخر او التهام كل واحد منهما للثاني، بمعنى تغييبه او ملاشاته في الرغبة الذاتية، تحويله الى مجرّد أداة وذريعة لإشباع هذه الرغبة، وبعبارة أخرى «تشييئه» اي اعتباره لا شخصًا ألاقيه بل شيئًا أستهلكه لارواء

غليلي . اذ ذاك يتعطّل اللقاء ولا يبقى لل « شريكَين » من الشراكة سوى الإسم ، ويضحيان مجرّد عزلتين متقابلتين ، بسبب غرق احدهما ، أو كليهما معًا ، في الانهماك بذاته . اذ ذاك يصحّ القول إنه يتحكّم بأحدهما ، أو بكليهما على السواء ، موقف من الآخر عدوانيّ بطبيعته ، ولو تستّر بستار الحبّ ، لانه موقف يُعرّي هذا الآخر من صفته الشخصيّة الاساسية لينحدر به الى مستوى الاشياء . عناق « الشريكَيْن » ، إذ ذاك ، زائف ، لأنه لا يعني اللقاء ، ولو اتّخذ شكله في الظاهر ، بل الصراع والاقتحام[١٣] . وتصبح « لغة الجسد » (التي يتحدّث عنها السؤال رقم ٢) ، في هذه الحال ، كاذبة ، وتضْمِر عكس ما تظهر ، ولا يمكنها بالتالي ان « تُفرح الله » (وهي عبارة وردت في السؤال نفسه) لأنَّه لا يفرح الا بالحبّ الحقّ الذي يقيم الآخر ولا يلغيه .

مجمل القول إنّ اللقاء لا يتمّ فعلًا لا شكلًا ، إلّا في ظلّ الاعتراف بشخص الآخر على انه شخص وليس شيئًا ، أي انه كائن موجود بذاته ومهمّ بذاته ، وليس مبرّر وجوده إشباع رغائبي وسدّ حاجاتي .

ثالثًا : أصالة الجنس تتحقق اذًا في حبّ للآخر من أجل نفسه ، في وحدانيته وديمومته

فإذا كان الجنس لا يحقّق هدفه البعيد والصميم إلّا في لقاء الآخر ، واذا كان هذا اللقاء لا يتوفّر ، كما راينا ، إلّا إذا اعتُبِرَ هذا الآخر شخصًا لا شيئًا ، وإذا كانت ميزة الشخص ، كما أوضحنا ،

أنه مهمّ بحدّ ذاته لا مجرّد أداة لرغائبي ، نتج عن ذلك كلّه أن اصالة الجنس واكتماله لا يتحقّقان إلّا في حبّ يتناول الآخر من أجل نفسه ، وبالتالي في وحدانيته وديمومته .

١- حبّ يتناول الآخر من أجل نفسه

الوهم الشائع في الحبّ هو أن أعشق بالفعل لا الحبيب نفسه ، بل النشوة التي يمنحني إياها حبّي له . وبالتالي أن أعشق ذاتي من خلال الحبيب ، مغيّبًا بالفعل ، بحجّة افتتاني به ، حقيقة شخص هذا الاخير ، ومحوّلًا اياه الى مجرّد ذريعة ورمز لنشوتي . في هذه الحال يصبح ما أدّعيه من لقاء حميم بيننا سرابًا ، لانني لا أخرج من ذاتي لأذهب اليه ، ولا ألاقي بالفعل سوى نفسي ، وابقى وحيدًا في صحراء رغبتي(١٤) .

ان المفكّر المسيحي الكبير اوغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م)، الذي خبر الهوى في شبابه وكانت له معرفة ثاقبة بالنفس البشرية ، قال ان شيمة المراهق أنه « يحبّ الحبّ » amare amare، اي أنه ، في توهّمه السعي الى المحبوب ، يبقى بالفعل أسير سعيه أساسًا الى النشوة التي يمنحه اياها غرامه بالمحبوب . اما الراشد ، فيؤهّله ما يُفتَرض فيه من النضج ، يقول اوغسطينوس ، أن يحبّ فعلًا amare، اي أن يصبح قادرًا على التعلّق بالمحبوب من أجل نفسه ، وليس فقط من أجل النشوة التي يجنيها من جراء حبّه له . هذا ما يستتبع ان المحبّ الحقيقيّ يهمّه ان يعرف الآخر لا كصورة لرغائبه هو ، بل كما يعرف الآخر نفسه ، اي من الداخل ، وأن يلج

الى سرّ شخصه . كما أن معاناة الآخر تصبح معاناته هو . ثم انه يهمّه أن يوفّر للآخر كلّ ما يريده لنفسه من خير وانتعاش[١٥] .

٢- حبّ يتناول الآخر في وحدانيته وديمومته

ولأنَّ الحب الحقيقي يهتم بالآخر من أجل نفسه ، فلا بدّ أن يتناوله في ما تتّصف به هذه الذات من وحدانية وديمومة .

أ- في وحدانيته

التركيز على النشوة ، وبالتالي على الرغبة ، يجعل موضوعها قابلًا للاستبدال ، وفق الظروف والأحوال ، والحاجات ، وسعيًا وراء الإثارة والتنويع . وكأنّ موضوع الحبّ يُعتبَر آنذاك شيئًا من الاشياء ، يمكن أن يقوم مقامه شيء آخر يفي بنفس الغرض ، مع اختلاف مرغوب به في النكهة . فسيّان بين تفاحة وتفاحة ، بين لفافة تبغ وأخرى ، بين سيارة وسيارة يختلف « موديلها » عن الاولى . ولكنّ هذا كلّه استهلاك وليس لقاء . اللقاء ، كما قلنا ، يفترض التعامل مع شخص لا مع شيء . وكل شخص كائن فريد لا يمكن أن يقوم مقامه كائن آخر . الجنس الذكوريّ ، اذا تحكّمت به الرغبة ، طارد الأنوثة بحدّ ذاتها ، بغضّ النظر عمّن تتجسّد فيه من النساء[١٦] ، وهام بالتالي في صحراء لا لقاء فيها[١٧] . أما إذا بلغ اكتماله ، فإنّ طاقة الحياة المتوثّبة فيه تتركّز على امرأة واحدة بالذات يرى فيها الأنوثة كلّها مجتمعة في وجه فريد لا يرضى عنه بديلًا وإن استهوته محاسن الأخريات . هكذا يهتف الحبيب في نشيد الأنشاد :

«لَئِنْ كانت المِلكات ستّين والسّراري ثمانين
والفتيات لا عدد لهنّ ،
لكن وحيدة بنظري هي حمامتي ، كاملتي ...»
(نش ٦:٨-٩)

ب - في ديمومته

وكما يقيم الحبّ الحقيقيّ الشخص في وحدانيّته ، فإنه يريده في ديمومته . ذلك أنّه نفذ ، في المحبوب ، الى عمق أعماقه ، ذلك العمق الذي يبقى وراء الظواهر المتعاقبة ويشكّل خلفيّتها الثابتة ، ويوفّر للشخص وحدة هويّته رغم التغيّرات التي تطرأ على الجسد والنفس وتقلّبات العمر والآثار التي يخلّفها تحوّل الاوضاع والظروف . الحبّ الأصيل يطال ، وراء هذه التحوّلات كلّها ، قلب كيان المحبوب ولبّ وجوده ، ذاك الذي يخوّله أن يقول « أنا » (١٨) وأن يشمل بهذه العبارة الجامعة شبابه وشيبه ، صحته ومرضه ، نجاحه وفشله ، هناءه وشقاءه . وفي حين أن الرغبة المتحكّمة تنبذ الآخر اذا لم يعد يلبّي مقاييسها وتسعى الى سواه ممن تتوفّر فيهم هذه المقاييس ، فإن الحب الحقيقي ، الذي هذّب الرغبة وسما بها ، يقبل الشريك قبولًا غير مشروط ، لانه وفيّ لا لظواهر عرضيّة عابرة ، بل لجوهر دائم يتعهّده بالحنان .

ج - « بحبّك لوحدك وبحبّك على طول »

هناك أغنية باللغة العامية تلفتني فيها هذه الكلمات التي يبدو

لي انها تعبّر، في سذاجتها الظاهريّة، عن توق كلّ حبّ أصيل، أعني كل حبّ ينزع الى تسخير طاقة الجنس لتحقيق لقاء صميم بين رجل وامرأة، عبر التحام جسديهما. تقول الاغنية: «بحبَّك لِوَحدك وبحبَّك على طول»، أي إنني أحبّك في فرادتك وديمومتك. تلك هي، كما رأينا في كلّ ما سلف ذكره، أمنية الحبّ في انطلاقه نحو لقاء يتحقق فيه ما يصبو الجنس اليه، في عَيشه الانسانيّ الأصيل.

د- «الجاعل لميل القلب رباطًا لا ينفكّ»

عبارة الاغنية هذه، تنقلني، رغم اختلاف الإطار والاسلوب، الى كلمات وردت في أحد أفاشين سرّ الاكليل، وهي تقول مخاطِبَة الله إنه «الجاعل لميل القلب رباطًا لا ينفكّ». باعتقادي اننا نسيء الفهم اذا تصوّرنا أن هذا «الرباط» يلقيه الله على «ميل القلب» من الخارج ومن فوق، عن طريق شرائع وقوانين يلزمه بها كيفيًا ليكبح انطلاقته العفوية. فالشرائع بوسعها أن تقيّد السلوك، اما القلب فكيف تقيّده؟ وهَب انها قيّدته عن طريق تحوّلها الى رقيب داخليّ يهيمن على النوازع على شاكلة ما يسميه التحليل النفسي «الأنا الأعلى»، فكيف يقيَّد «مَيْلٌ» ويبقى ميلًا؟ وبالتالي، هل تكون ارادة الله أن يجمّد ويحيّد، وبالتالي أن يبطل بمعنى من المعاني، ميلًا محوريًا زرعه هو في قلب الانسان؟ أو، يندم الله على عطاياه التي نظر فرأى انها حسنة جدًا. (تك ١: ٣١)، بما في ذلك الزوج الانسانيّ الذي خلقه على صورته (تك ١: ٢٧) والذي به تُوِّجَت رواية الخليقة؟

ارى اذًا ان معنى العبارة لا يستقيم الا اذا فهمنا منها ان الله انما جعل الرباط المشار اليه ، **في الميل نفسه** ، في جوهر هذا الميل وطبيعته ، كضابط ذاتي له يحافظ به على حقيقته ويتقي الزيف والانحراف . هذا يعني أن هذا الميل لا يحقّق اصالته ولا يحتمي من زيغان النزوات ، الا اذا ارتبط – وفقًا لتوقه الذاتي لا خضوعًا لناموس خارجيّ – بمحبوب واحد ، وتَعهده من اجل نفسه ، في وحدانيته وديمومته[١٩].

مهمّ جدًا ، بنظري ، أن نعي ذلك ، حفاظًا على حقيقة الله وحقيقة الانسان ، وأن ندرك أن هذا « الرباط » لا يعني اذًا أيّ انتقاص للجنس ، من باب اعتباره ميلًا مشبوهًا لا بدّ من اتّقاء شرّه بحدّه وتقييده (وهو مفهوم شائع للأسف حتى بين المؤمنين) ، انما يسمح له بأن ينطلق بالفعل متحررًا مما قد يقزّمه ويشوّهه ، وأن يؤتي بالتالي أشهى ثماره ، تلك التي زرع الله وعدها فينا لفرحنا .

وفي حين ان التفلّت من هذا « الرباط » بذريعة حرّية زائفة ، يقضي على الحبّ باسم الحبّ احيانًا[٢٠] ، وبالتالي يدمّر حقيقة الجنس ويفرغه من معناه المحيي ويجلب تلك الثمار السامة التي أتينا على ذكرها ، فإنّ التمسّك به عن اقتناع داخليّ نابع من خبرة تعاش وتذاق ، يضفي على الجنس هذا البهاء الذي يصفه كتاب « نشيد الانشاد » ، ذلك الكتاب الذي جُمع في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد من تنسيق أناشيد غزلية ، والذي أدخله شعب العهد القديم ، والكنيسة من بعده ، في مجموعة الكتب الموحاة ، لان جمال الحبّ البشريّ الذي يُغَنّى فيه انما هو صورة ، بالغة

التعبير، لحبّ الله للانسان، جماعة وأفرادًا، وليس مجرّد صورة بل هو أكثر من ذلك، قَبَسٌ من الحب الإلهيّ أشعله الله في طيّات القلب البشري[٢١].

هذا الكتاب[٢٢] يقدّم لنا وصفًا فائق الشاعريّة للحبّ بين رجل وامرأة، بتعابيره الجنسية المشار اليها بصراحة مذهلة، ولكن الجنس لا يتّخذ فيه رونقه الأخّاذ ولا يتاح له أن يحتفل، ببهجة عارمة، بانتصار الحياة، الا لكونه متمحورًا حول حبّ أصيل يتّسم بوحدانيته وبالتزام الشريكين النهائي احدهما حيال الآخر[٢٣]. لذا تنشد الحبيبة في نشوتها: «حبيبي لي وأنا لحبيبي» (نش ١٦:٢)، وتعيد لاحقًا هذا الكلام عينه، انما بترتيب معكوس: «أنا لحبيبي وحبيبي لي» (نش ٣،٦)، وكأنّها بذلك تشير الى منتهى التبادل الوجدانيّ.

هـ - عهد يكرّس «رباط القلب»

«رباط القلب» هذا، وهو شرط نجاح الجنس في مسعاه اللقائي، لا يمكن ان يُترك امر الحفاظ عليه لمجرد العفوية. فالعاطفة، اذا تُركت لشأنها، عرضة للتقلبات لا محالة، وقد يتوهّم المرء أن في مجاراة التقلّب اصالة، في حين أنها تنمّ عن غفلته عن أعماق وجوده وحقيقة توقه، وبعبارة أخرى عن نداء «قلبه»، اذا أخذنا كلمة «قلب» لا بالمعنى العاطفيّ الذي غالبًا ما تتخذه اليوم، بل بمعناها الكتابيّ والآبائي الذي يشير الى لبّ الكيان الانسانيّ، حيث تلتقي كل ملكاته من عقل وشعور ورغبة وإرادة. من هنا انه لا بدّ

من تعهّد واعٍ للميل وما يُنشئه من رباط، وهو تعهّد تلعب فيه الإرادة دورها دون أن تعطّل دور الشعور، مكتفية بضبطه لتحميه من التشتّت الرخيص والتبعثر الأهوج. بعبارة أخرى، لا بدّ من «عهد» بين الحبيبين لتحصين الحبّ وترسيخه.

هنا يأتي دور الزواج كما سنرى.

رابعًا: الزواج: تصديق وتكريس لنضج مشروع اللقاء، ومكان لاكتماله

بالعهد اذًا تبلغ العلاقة بين الشريكين نضجها، ويضحي الجنس بالتالي، اذا مارساه بينهما، حاملًا لمعناه الانساني، معنى اللقاء الصميم. ولكن العهد يحتاج هو نفسه، اذا شاء أن يكون كامل الرسوخ، الى ان يتّخذ شكل الوعد العلنيّ. فالانسان كائن اجتماعيّ في صلب كيانه. ولذا فإنه لا يرى نفسه ملتزمًا كلّ الالتزام اذا لم يكن مستعدًا إلى إعلان التزامه امام الملأ. فإذا اقدَم على هذا الالتزام العلنيّ، تأكّد اذ ذاك من انه قام بخطوة مستقبلية حاسمة وقطع على نفسه إمكانية التراجع. اما من تردّد في إعلان عهده امام الآخرين، فهناك احتمال كبير بأن يضمر، شاء ام أبى، عَلمَ ام لم يعلم، فكرة الرجوع عن وعده. مما يشير الى تذبذب هذا الوعد، وبالتالي الى هشاشة لقاء هذا المرء بالشريك.

هذا العهد العلنيّ انما هو جوهر الزواج، الذي يأتي اذًا بمثابة تصديق وتكريس لنضج مشروع اللقاء بين الشريكين، لانه إعلان

احتفاليّ ، يشهده ويصادق عليه المجتمع (وبالنسبة للمؤمن ، الجماعة الكنسية ايضًا) ، بأنهما أي الشريكين ، يتعهدان أحدهما الآخر نهائيًا ، وبأنّ الاتصال الجنسيّ الذي هما مقدمان عليه سوف يجمع لا جسديهما وحسب ، بل ، ومن خلال هذين الجسدين ، كيانيهما في الصميم ، بحيث يبلغ الجنس بينهما مرماه الانساني الأصيل .

هذا لا يعني انهما ، في هذه المرحلة ، بلغا في تلك الأصالة آخر المطاف ، بل إنهما وَلَجا عتبتها فقط بإقدامهما على التزام لا رجعة فيه . انما اللقاء الكامل بينهما مشروع طويل النفس مرشَّح أن يتواصل طوال حياتهما المُشتركة . علمًا بأنّ هذه الحياة المشتركة عينها تقدّم لهما افضل شروط السعي الى إنجازه . والإنجاز هذا لا يتمّ دون معاناة ، توضحها طقوس الاكليل باشارتها الصريحة الى فرح هيلانة عند وجودها الصليب ، والى جهاد الشهداء وإكليلهم . ذلك أنّ العروسين ، مهما صفا حبّهما ، الا أنّ قدرًا لا يُستهان به من الوهم لا يزال يشوبه في بداية الطريق . ففي نشوة هيامهما ، يتصوّر كلّ منهما أنّ اتحاده بالمحبوب سوف يروي كلّ غليله ويحقّق كلّ مبتغى قلبه وجنون أحلامه . وهو لا يعي أنه ، إذ ذاك ، يتخيّل الآخر صورة طبق الاصل لأمانيه ورغائبه ، وأنه يقولبه وفقًا لهواه ، أي أنه لم يقبل بعد ، في العمق ، تمايزه عنه واختلافه عن تصوّراته ، وبعبارة أخرى أنه لا يزال ، الى حدّ بعيد ، ورغم صفاء نواياه ، مرتبطًا لا بشخص حقيقي ، بل بأحلام ذاتية يسقطها على هذا الشخص ، وأنه بالفعل ما لبث يذيب المحبوب في ذاته بدل أن يخرج من الذات للقائه في حقيقته .

ذلك الوهم، وهم انصهار الآخر في أحلامي بحيث ابلغ به الملء الذي اشتهيه والاكتمال الذي اصبو اليه، ممكن طالما أن الآخر لم يشاركني بعد حياتي اليومية بتفاصيلها، طالما أن مسافة لا تزال تفصل بيني وبينه، متاحة للخيال كي يسرح فيها (هذا ما يفسّر كيف ينزع المتزوّجون احيانًا الى استعادة هذا الوهم «الورديّ» مع غير شريكهم، مع شخص تكمن جلّ فتنته في نظرهم، من حيث لا يدرون، في كونه غريبًا وبعيدًا أو غير مألوف، وبالتالي موضوعًا قابلًا لإسقاط الأحلام عليه). إلّا أنّ الحياة جنبًا الى جنب، ليل نهار، مع الشريك، تفتّت الوهم شيئًا فشيئًا. يومًا بعد يوم يتكشّف لي ان المحبوب آخر، قائم بذاته، وليس مجرّد صورة وامتداد لأحلامي، وانني، مهما ارتويتُ منه، فلن ينطفئ ظمأي بالتمام، ومهما آنستُ به، فلن تزول بالكليّة وحدتي. مجمل الكلام أنني أتحقّق، يومًا بعد يوم، أن الحبيب لن يُحقّق لي حلم الاكتمال الضارب جذوره في أعماق طفولتي، وأنني سأبقى ناقصًا وقلقًا وظامئًا، رغم غنى وحلاوة ما يهبني اياه[٢٤].

ذلك هو التحدّي الذي تواجه به الحياة الزوجية الحبيبين، وهو تحَدٍّ قاسٍ يضع حبّهما على المحكّ. فإمّا انه يتلاشى بالقطيعة او الروتين. وإما انه يكبر وينمو، بفعل الأزمة التي يجتازها، متحرّرًا من وهم احتواء الآخر، مهتديًا الى مزيد من الاعتراف به كائنًا متميّزًا عني، قائمًا بذاته، عَطَشًا يقابل عطشي، محدوديّة تقابل محدوديّتي[٢٥]. فإذا قَبِلَ الحبّ أن يسير في هذه الطريق، تناقص فيه وجه الهوى وتعاظم وجه الحنان، ونما اللقاء بين الحبيبين نتيجة

اعتراف كلّ منهما بحقيقة الآخر وخروجه اليه من قوقعة أحلامه[٢٦]. هذا التحوّل ليس من شأنه، كما قد يُظنّ، أن يخمد وهج الاتصال الجنسيّ، الذي يصبح به، على العكس، أكثر إشباعًا، لانه يمارس بِنَهم أقلّ وإحساس أكثر إِرهافًا بالشريك[٢٧].

يبقى أن أزمة النموّ التي يفرضها الزواج على الحبّ قاسية ومحفوفة بالمخاطر، وقد تتداعى من جرائها، بشكل أو بآخر، الكثير من الزيجات، وقد يكون شكل الفشل الاكثر انتشارًا تحوّل حبيبَي الامس الى شبه غريبَين يعيشان مع ذلك جنبًا الى جنب، في تجاور لا لقاء فيه، وتلازم خارجي يزيد من وطأة الغربة الداخلية. من هنا ضرورة الوعي واليقظة وكل ما من شأنه أن ينميهما (بما فيه الارشاد الزوجيّ المتخصّص) والذي نفتقده بشكل مؤلم في مجتمعنا.

ولكن إدراكنا لقسوة الازمة التي تواجه الحبّ في الحياة الزوجية (وهي أزمة تتحدّى الحبّ أن ينمو اذا شاء أن يبقى)، من شأنه أن يزيدنا وعيًا للمعاني المصيرية الكامنة في رفع الزواج الى رتبة السرّ في تراثنا المسيحيّ. فمعنى ذلك انه، بالمسيح، الممتدّ كجسر حيّ بين الله والانسان، لم يعد حبّنا البشريّ متروكًا لوحده في مواجهة معطوبيّته وعثراته، انما «انسكب حب الله (والمقصود هنا الحبّ الذي يحبّنا الله به: ك. ب) في قلوبنا بالروح القدس» (رومية ٥:٥)، على حدّ تعبير الرسول، اي ان الحب الإلهيّ يمتزج بهشاشة حبّنا ليعضده وينعشه وينيره ويجمّله (طبعًا اذا شئنا الانفتاح الى فعله المحيي، وعلى قدر هذا الانفتاح). الحبّ الذي يجمع اقانيم

الثالوث في وحدة كاملة وتمايز كامل، يرشد هو نفسه حبّ الزوجين الى ذلك التوفيق العسير، الذي لا لقاء أصيل بدونه، بين التوق الى الانصهار وضرورة الاعتراف بتمايز الآخر. الحبّ الالهي المجّانيّ، الذي ينسكب على خلائق لا يحتاج اليها، فيخرجها من العدم ليمدّها بوجوده، ولا يزال حاضنًا إياها رغم معاصيها، وقد وحّد ذاته بها بالتجسد والفداء، هذا الحبّ، اذا حلّ في قلب الزوجين، حريّ بأن يفتح لكلّ منهما درب احتضان الآخر من أجل نفسه. هذا يفترض أن لا يكون سرّ الاكليل مجرّد احتفال طقسيّ، يُنسب اليه زورًا مفعول شبه سحريّ، بل أن يدأب الرعاة والمربّون على ترجمته الى نمط عيش، الى مضامين حيّة حريّة بأن تلهم تعامل الازواج في واقعه اليوميّ.

خامسًا: والآن ماذا عن ممارسة الجنس قبل الزواج؟

والآن، وفي ختام هذه الجولة الطويلة، التي أبعدتنا في الظاهر عن السؤال المطروح، ولكنها بالفعل أدخلتنا الى صلب المعاني التي تخوّلنا وحدها الإجابة عنه بشكل مسؤول، دون تسرّع وانفعال، الآن وقد وصلنا الى ما وصلنا اليه، صار بوسعنا أن نلخّص المسيرة بقولنا إن الجنس طاقة زرعها الله في قلب الانسان ليقتلعه من قوقعة ذاته[٢٨] بفعل جوع وعطش الى الآخر لا يرتوي الا بلقاء به صميم، وإن لهذا اللقاء شروطًا تحميه من الإخفاق والزيف واتّخاذ الآخر مجرّد ذريعة للارتداد الى عزلة الذات، وإن تتويج هذه الشروط يكون بأن يصبّ ميل القلب في عهد يتّخذ بموجبه كل من

الحبيبين الآخر نهائيًا شريكًا له، متعهّدًا إياه في وحدانيّته وديمومته، وإن الزواج يعطي هذا العهد مصداقية وتكريسًا، فيكون الإطار الطبيعي لعيش مشروع اللقاء الذي يحمله الجنس لدى الانسان، ولدفعه باتجاه النموّ والاكتمال.

هكذا يتّضح لنا إن الجنس والزواج لا يخرجان عن اعتبارهما مفهومعين متقابلَين، لا بل متنافرَين، إلّا اذا جمع بينهما مفهوم اللقاء، اي اذا تحققنا من أن الجنس، عند الانسان، ليس محض غريزة بل مشروع لقاء، واذا اعتبرنا الزواج، بالمقابل، إطار تحقيق هذا المشروع (مما ينفي بالطبع أن يكون الزواج زواجًا جديرًا بهذا الاسم اذا تحوّل الى صفقة تسخّره للمتعة، او المال، او الجاه والنفوذ، او المصالح العائلية، او حتى إنجاب ذريّة). وحدها محوريّة اللقاء تعطي الجنس والزواج، على حدّ سواء، معناهما الانسانيّ الأصيل، وتقيم بينهما صلة عضوية تتعدى الشكليات والعرف والناموس.

في ضوء ذلك، ماذا يمكن أن نقول عن احتمال ممارسة الاتصال الجنسيّ قبل الزواج؟ في محاولتي الإجابة عن هذا السؤال، ليس بنيّتي أن اصنّف اشخاصًا، لأنني أتذكّر تحذير المسيح لنا بأن البغايا قد يسبقننا الى ملكوت الله (متى ٢١:٣١)، بل أن اقيّم أنماط سلوك عبر التساؤل هل انها تحقّق ذلك اللقاء الذي يصبو اليه الجنس في توقه الانساني.

○ في استعراضي لهذه الانماط، أتوقف أولًا عند سلوك الذين

يتعمّدون فصل الجنس عن الحبّ وممارسته من باب محض الإثارة. هؤلاء يلهون بالشريك (وقد يكون اللهو متبادلًا، مما لا يغيّر شيئًا في جوهر الامر) ولا يأبهون للقائه فعلًا لا شكلًا. لذا فهم برأيي خاسرون، على الصعيد الجنسيّ نفسه، ولو سمّوا انفسهم «متحرّرين». ذلك أن إنهماكهم بالمتعة يلهيهم عن الافق الذي تشير اليه، وبذلك يقزّم متعتهم نفسها، مجرّداً اياها من عمقها ورحابتها، وأنّ افتتانهم باللهيب يحجب عنهم الكوكب الذي كان منتَظَرًا أن تدفع اليه قوة هذا الاشتعال.

○ هناك ايضًا من ذاقوا طعم الحبّ وتاقوا الى التوحّد بالمحبوب، ولكنهم، كما يشير نص السؤال رقم ٥، أحجموا عن المضيّ بحبّهم الى مرحلة العهد النهائي قبل أن «يجرّبوا» مدى «انسجام الأجساد». وقد غاب عن بال هؤلاء ان الجسد ليس كيانًا قائمًا بذاته بل هو جزء لا يتجزّأ من وحدة الكيان الانسانيّ الحيّ، وان الاستجابات الجسدية في الاتصال الجنسيّ تتأثّر الى حدّ بعيد بالعوامل الوجدانية[٢٩] (ثابت مثلًا ان معظم اضطرابات الوظيفة الجنسية مرتبطة باسباب نفسية[٣٠]، وأنّ التوافق الجنسيّ مشروط، الى حد كبير، بالتوافق الوجدانيّ)[٣١]. لم يدركوا بالتالي ان مجرّد ممارسة الاتصال الجنسيّ بقصد «التجربة»، وليس كتعبير عن التزام كلّ من الشريكين للآخر كلّيًا، نهائيًا، يقلّل من فرص نجاح هذا الاتصال، خاصة بالنسبة الى الفتاة، التي عادة لا تعرف الاشباع الجنسي الا مع شريك تطمئن كليًا الى حبّه لها[٣٢] (علمًا بأن مدى تجاوب المرأة ومشاركتها في الاتصال الجنسي له تأثير لا

يُستهان به على إداء شريكها وإشباعه) . « التجربة » هنا ملغومة اذًا من الاساس ولا تثبت شيئًا ...

اما اذا كان المقصود هو اختبار كل من الشريكين حقيقة انشداده الى الآخر جنسيًا ، وليس فقط على صعيد المشاعر والطباع ، فهذا أمر طبيعي ومشروع ، ولكن تحقيقه لا يحتاج الى اتصال جنسيّ كامل يأتي قبل أوانه . فالأحاسيس التي ترافق معاشرة الحبيبين احدهما للآخر وما يتخلّل هذه المعاشرة من تعابير جنسية تمهيدية (من ملامسات وقبلات ، من الطبيعي أن يتبادلاها للتعبير عن حبّهما وأن يترافق نموّها مع نموّ هذا الحبّ ، مع الحرص بأن لا تستقل ابدًا بذاتها) ، هذه الأحاسيس كافية للتأكّد من سلامة الميل الجنسيّ الى الآخر لدى كلّ من الطرفين (هذا اذا تمّ التبادل في ظروف ملائمة ، كأن لا يتسرّع الشاب في إبداء تعابيره الجنسية لرفيقة غير مستبعدة بعد نفسيًا لاقتبالها ، وأن يمهّد لها دومًا ويغلّفها برقّة الكلام وتعابير الودّ ، وإلاّ نَفَرت الفتاة بحقّ واعتبرها هو ، عن غير صواب ، باردة جنسيًا ...).

○ هناك اخيرًا كلّ هؤلاء الشبان والشابات (وعددهم متزايد في الغرب[٣٣] الذين يساكنون بدون زواج ، انطلاقًا من حبّ صميم يحيونه (وكثيرًا ما يقودهم لاحقًا الى تحويل المساكنة الى زواج) ولكنّهم لا يجرأون أن يذهبوا به الى آخر الشوط ، اي الى مرحلة العهد النهائي . إن حبّ هؤلاء اصيل بالتأكيد ، انما يعوزهم اليقين بأنه بلغ مرحلة الالتزام الذي لا رجعة فيه[٣٤]، لذا يقررون

ترجمته على صعيد الاتصال الجنسي ريثما يتّضح لهم مقدار رسوخه .

هؤلاء جديرون ، برأيي ، بكل احترام ، نظرًا لأصالة علاقتهم ، انما يغيب عن بالهم هذا الامر وهو أنّه ، اذا كان العهد يأتي نتيجة لرسوخ الحبّ ، فإنّه ، بالمقابل ، يساهم ، بما لا يُستهان به ، في توطيد هذا الرسوخ وفي إضفاء صفة النهائية عليه . قد يكون هؤلاء اشرف من كثيرين من المتزوجين الذين تركوا الحبّ يغيب عن علاقتهم وسمحوا لزواجهم بأن يتحوّل الى صكّ ملكيّة ، والاتصال الجنسيّ فيه الى مجرّد « واجب زوجيّ » باهت ، ولكن لا يسعني إلّا أن أعتقد إنهم ، بممارستهم الجنس قبل ان يبلغ مشروع اللقاء بينهم كامل نضجه عبر عهد نهائي يكرّسه ويعطي بالتالي لوصال أجسادهم ملء كثافته وحقيقته ، انّما يتصرّفون كمن يأكل حنطته فيما لا تزال عشبًا ، أو عنبه فيما لا يزال حصرمًا . هذا على صعيد السلوك . امّا سرّ القلوب ، فمن يسبره سوى الله وحده ؟

الخلاصة : الجواب هو في إعادة الاعتبار لكلّ من الجنس والزواج .

ان الضجة المثارة حاليًا حول الندوات التلفزيونية التي تتناول موضوع ممارسة الجنس قبل الزواج ، والاهتمام الواسع الذي تستقطبه هذه الندوات في أوساط الشباب ، أمر ينبغي التوقّف طويلًا عنده (وبرأيي انه من « علامات الازمنة » (متى ١٦:٣) التي يشير اليها

الانجيل)، لانه يعبّر، كما أعتقد، لا عن مجرّد « صرعة » مصطنعة، بل عن مشكلة حقيقية ومعاناة، وعن رغبة صحيّة ومشروعة في جلاء موضوع يمسّ الحياة في صميمها، ومع ذلك فقد اكتنفه التعتيم حتى الآن، وهو موضوع الجنس.

وقد يتساءل القارئ، مستغربًا ومعترضًا، اين هو التعتيم الذي أشير اليه، طالما ان صور الجنس، بشتى اشكاله السافرة، الى حدّ الوقاحة أحيانًا، تملأ دنيا الإعلام وتحاصر منها العيون والنفوس؟ ولكنني اسأل بدوري: هل هو الجنس فعلًا، في كثافته وبهائه الانسانيين، الذي يطلّ هكذا على الشباب، ام انها صورة عنه ممسوخة، مقزَّمة، مشوَّهة، مبتورة، مسطَّحة، تدّعي تمثيله زورًا وبهتانًا، في حين أنها تقمعه بالفعل - اذ تبتره من مرماه اللقائي - بحجة الغلوّ به وتحريره، كلّ ذلك خدمة لمصالح تجارية بحتة تتّخذ الاغراء الرخيص مطية لها؟[٣٥]

اذًا كيف السبيل الى مواجهة هذه الدعوة السافرة الى الانحراف؟ أيكون ذلك، كما قد يظنّ الكثيرون، بمزيد من القمع والتعتيم والزجر والتأثيم؟ كلا، على الاطلاق. فالإباحية والتزمّت وجهان لعملة واحدة، أَخَوان ضِدّان، يجمعهما قاسم مشترك وهو تحقير كليهما للجنس باعتباره مجرّد فورة غريزيّة، علمًا بأنّ هذا التحقير يتّخذ شكلين متناقضين في ما يظهرانه، متّفقَيْن في ما يضمرانه، اذ يتّخذ في التزمّت شكل نبذ للجنس واحتماء منه (لا يخلوان من استحواذ هاجسه على المرء الى حدّ الوسواس)، بينما يتّخذ في الإباحية شكل الاستغراق، حتى السفاهة والتفاهة،

في قشور يُخلَط بينها وبين الجنس. هذا وإنّ كلًّا من التزمّت والإباحية يغذّي الآخر، اذ يمنحه ذريعة للتمادي في غيّه بحجة التصدّي لتوأمه اللدود.

الجواب اذًا على قلق الشباب حول شؤون الجنس، وعلى ما ينتابهم من ضياع امام الهجمة الإعلامية - والإعلانية - التي تتناول الجنس بالتحريف والتشويه، انما هو، وهو فقط، إعادة الاعتبار الى الجنس بإعادته الى ملء قامته الانسانية، من حيث أنه مُطلِق للحبّ ومُوقِد للحنان. الجواب هو في دعوة الشباب، لا الى قمع الجنس فيهم، وهو ما يحسّونه بحقّ بَترًا وإفقارًا لشخصيتهم وتنكّرًا لميولهم العميقة، بل الى تهذيبه وتلطيفه وترويضه بإنماء بعده الوجدانيّ، مما يبرزه الى كامل معناه وملء حيويته بآن. هذا يتطلّب، ليكون أكثر من مجرّد كلام، أن يقبل الوالدون والمربّون والرعاة بوادر الحبّ الفتيّ، دون استخفاف او قمع، وأن يرافقوا، بكثير من الرفق والتأنّي والتفهم، سعيه الذي تكتنفه الاخطاء والعثرات، كي يساعدوه على اكتشاف متطلباته العميقة وراء فورة الغريزة وتقلّبات العاطفة، وعلى الاستفادة حتى من اخطائه. هذا يتطلب من الوالدين أن يعيدوا النظر في وضع حبّهم الزوجيّ، وأن يسعوا صادقين الى نفض الرماد عنه اذا خبا بفعل مشاكل التعايش أو رتابة الايام، لانه البؤرة الأساسية التي يتعلّم منها البنون كيف يحيون الحبّ حقيقة والجنس في اصالته المحيية.

إعادة الاعتبار الى الجنس ينبغي أن تقابلها وتكمّلها إعادة الاعتبار للزواج كي يصبح، فعلًا لا شكلًا، لا مجرّد عقد مساكنة

وإنجاب، بل « سرّ الحبّ »، كما يعرّفه يوحنا الذهبي الفم، هذا الحبّ الذي يعطي وحده المساكنة والانجاب ملء معناهما. وذلك ابتداءً من إعادة النظر في نمط إداء سرّ الإكليل، كي لا تطغى فيه أبهة الطقس على معانيه، التي ينبغي، برأيي، ايضاحها، بالعودة الى النصّ الاصليّ من جهة: فقد أدهشني وأفرحني مثلاً، ما سمعته مؤخرًا - ويا ليتني عرفته من زمان! - من المطران جورج خضر، اثناء مشاركته في احتفال عرسيّ، من ان الترجمة الصحيحة للنصّ اليونانيّ تقضي بأن يقال: « يكلّل عبد الله (فلان) بـ أمة الله (فلانة) » و« تكلّل أمة الله (فلانة) بـ عبد الله (فلان) »، بدل الصيغة الدارجة: « **على** أمة الله ... **على** عبد الله »، وأن ذلك يعني أن المطلوب من كلّ من الزوجين أن يكون تاجًا للآخر بالحبّ الذي يحيطه به، فيقيمه هكذا، بالحبّ، ملكًا أو ملكة، اي شخصًا بالغ الاهمية .... هذا، وللغرض نفسه، أي ايضاح معاني طقس الاكليل، ينبغي أيضًا، باعتقادي، تعديل صياغتها الحاضرة كي تصبح أكثر مخاطَبَةً لانسان اليوم، فتحدّثه مثلًا، في نور الله، عن الحبّ، الذي هو من مفردات حضارته ومعاييرها، في حين أننا لا نجد له أثرًا صريحًا في النص الحاضر. ولماذا لا نغني هذا النص بقراءات من نشيد الانشاد(*) يتجلّى الله عبرها في بهاء الحب البشري ومعاناته كما حضر يسوع عرس قانا الجليل فحوّل فيه الماء الى خمر البهجة؟ وفي الخطّ نفسه، ينبغي، برأيي، مزيد من السهر على أن يكون ما يحيط بسرّ الاكليل

(*) كما هي الحال في الغرب المسيحي.

منسجمًا مع فحواه، كأن يُسعى، لا بالزجر الفوقيّ بل بالتوعية الصبورة (التي من شأن الاصلاحات الطقسية التي أشرنا اليها أن تساهم في إحقاقها)، إلى إزالة طقوس التعرّي الرائجة في الاعراس، والتي تكذّب، بمجرّد حصولها، معنى السرّ المحتَفَل به، لانها تهتك بشكل استعراضيّ، سعيًا الى غواية الأنظار، ما لا يليق كشفه الا للحبيب، في حميميّة لقاء تكون فيه الاجساد مطلًّا على الأعماق ومعبرًا اليها.

هناك ايضًا حلقات الإعداد للزواج التي سبقتنا اليها كنائس مسيحية في الغرب ومصر ولبنان، وهي تجمع الخاطبين في حوار تتوضّح لهم عبره بمساعدة رعاة وإخصائيين في حقول مختلفة تعني الزواج (من طبية ونفسية واجتماعية وروحية)، مختلف أبعاد الإلتزام الذي هم مقبلون عليه[٣٦].

هذا وانني أرى أن يُشجَّع العروسان، وهما على عتبة السير في طريق تكريس كل واحد منهما لشريكه مدى العمر، على الإقدام على عمل من شأنه أن يُعدّهما لهذا التكريس اذ يفتح حبّهما على آلام الآخرين، منجّيًا إيّاه من التقوقع الخانق الذي يهدّد الحبّ بالتحوّل الى تملّك متبادل يجهض مسعاه اللقائي. ولنا على ذلك مَثَلٌ، في سلوك ينتشر اليوم لدى مسيحيي الغرب، وهو أن يتحرّر العروسان من الانهماك بذاتيهما عبر استئثارهما بهدايا الأهل والاصدقاء، مغتنمَين، بدل ذلك، فرصة هذه الهدايا ليفتحا عيد لقائهما على بؤس الآخرين، ضاربَيْن بذلك هوى التملّك في نفسيهما، وقاطعَين عليه طريق التسلّل الى حبّهما لتشويهه. هذا

ما فعله شاب وشابة فرنسيان (يُدعى هو فابيان وينهي دراسة الطبّ، وتدعي هي فيرونيك) اتفقا على تقاسم ما يُهدى اليهما من مال بمناسبة زفافهما، مع المحتاجين، جاعلينَ منه حصَّتين متساويتين، يحتفظان بواحدة منهما ويخصصان الثانية للمساهمة، عن طريق الهيئة الكاثوليكية ضد الجوع ومن أجل التنمية CCFD، في تمويل مشروع تعاونيّ لصالح فقراء فلسطين[٣٧].

فإذا عاد الجنس تربة للحبّ ومفجّرًا لطاقته، وإذا عاد الزواج تتويجًا لهذه الطاقة وسيرًا بها الى الاكتمال، صار الترابط طبيعيًا بينهما، ووُضِعَ السؤال حول العلاقة بين الممارسة الجنسية والزواج في إطاره الصحيح. واذا توضّحت الرؤية على هذا المنوال، وتجاوزت الذهن لتشمل الكيان برمّته، تسنّى للمرء أن يكون حُرًّا (كما يتمناه طارح السؤال رقم ٤)، انّما بالمعنى الأصيل لهذه العبارة، ذاك الذي يشير اليه الرسول بقوله: «أما أنتم ايها الاخوة فقد دُعيتم الى الحرية» (غلاطية ٥:١٣)، اي أن لا يكتفي بالتفلّت من قيود الأعراف والتقاليد لينساق الى طغيان نزواته وينقاد الى كل ما يستهويه في اللحظة الآنيّة[٣٨]، بل أن يختار بوعي، ومشقّة لا تخلو من فرح صميم، ما يخوّله أن «يكون» فعلًا لا أن يتمتع وحسب، أي أن يسير نحو تحقيق معنى وجوده كإنسان، وثراء ذلك الوجود. فالحرية والحبّ متلازمان.

الشارقة ٦/١/١٩٩٨

في نور عيد الظهور الالهي

حواشي الفصل الاول

(١) يقول سانتكزوبيري في رائعته « القلعة » :

« وجبة الطعام ليست لبطنك وحسب ، انها أيضًا لقلبك » .

Antoine de SAINT-EXUPÉRY: Citadelle (1ere éd., 1948), nouvelle édition, établie par Simone Lamblin, avec la collaboration de Pierre Chevrier et de Léon Wencelius, "Folio", nº 108, Gallimard, Paris, 1993, p. 500.

(٢) من سانتكزوبيري ايضًا :

« تقاسم الخبز (...) أحلى من الخبز » .

A. de SAINT-EXUPÉRY: Citadelle, op., cit., p. 338.

(٣) وكأن هذا التواصل مسجّل في التكوين الجسديّ نفسه ، من حيث ان الانسان هو الكائن الوحيد الذي بإمكانه أن يتّصل بشريكه الجنسيّ وجهًا لوجه ، علمًا بأن الوجه مطَلّ الشخص كما هو معلوم .

(٤) في كتابه « الزمن والآخر » (١٩٤٧) ، كتب الفيلسوف الفرنسي الكبير عمانوئيل لاڤيناس :

« ان الملامسة caresse هي نمط وجود للذات تذهب فيه الذات ، في تماسّها مع آخر ، الى ما ابعد من هذا التماسّ » .

Emmanuel LÉVINAS: Le Temps et l'Autre, Montpellier, Fata Morgana, 1979, p. 82, cité par Jean-François Six: Le Chant de l'amour. Eros dans la Bible, DDB-Flammarion, Paris, 1995, p. 229.

(٥) راجع :

* François CHIRPAZ: L'intention de rencontre, in La sexualité, numéro spécial de la revue ESPRIT, Paris,

novembre 1960, pp. 1833-1838.

* François CHIRPAZ: Dimensions de la sexualité, in ETUDES, Paris, mars 1969, pp. 409-423.

(٦) أرت بتّنغتون بطل رواية «المتاهة» للكاتب الاميركي لارّي كولّنس، يعبّر عن خبرة الفراغ الكئيب هذه. فقد تولّه بامرأة انجذبت هي ايضًا بشدة اليه و، بعد تحفّظ طويل، قبلت ذات ليلة ان تضاجعه. فتطارحا الغرام برغبة مشبوبة آلت الى انسجام جنسيّ خارق، عاشاه كأنّهما، على حدّ تعبير الكاتب، «شخصان منفردان أبحرا لفترة ساعة على مركب أسطوريّ». لكن مدّ هذه النشوة، النابعة من اتصال جنسيّ طغت عليه الرغبة – ولو كانت هذه متبادلة – أعقبه جزر مرير يصفه كولّنس بهذه العبارات يصوّر بها حالة بطله:

«كان حزينًا ومرهقًا. هكذا كانت الامور تجري دائمًا. فبعد تجرع الشهوة كلّها، كانت تبقى الكآبة».

Larry COLLINS: Dédale (1989), traduit de l'américain par Marie-Lise Hieaux - Heitzmann, Coédition Robert Laffont, Paris-FMA, Beyrouth, 1990, p. 243.

(٧) من هنا ان سانتكزوبري يعتبر، في «القلعة»، أن الذين يكتفون من الجنس باللذة، انما يسعون الى تخدير توقهم الى الحبّ، بافتعال عمل يشبه فعل الحب في الظاهر ولكنه خالٍ من معناه اللقائي. يقول مثلًا إن المرء يلجأ الى البغيّ «لينسى فيها الحبّ» ولكنه، ولو كانت جميلة، يخرج وهو خالي الوفاض (ص ٢٦). ويقول ايضًا ان من يمارس الجنس عشوائيًا إنما يبغي ان «يخمد في ذاته الميل الى الحبّ» (ص ٥١).

A. de SAINT-EXUPÉRY: Citadelle, op. cit.

(٨) تقول كلير بريّسيه، مديرة اللجنة الفرنسية لليونسيف، ان تسجيلات إباحية، متداولة في أوروبا كلّها، تمثّل رضعانًا أخضعوا لمعاملات من هذا النوع وبعضهم مات من جرائها. راجع:

Claire BRISSET: Le Monde, 14 août 1996, citée par Jean-Claude GUILLEBAUD: La Tyrannie du plaisir, Seuil, Paris, 1998, p. 304.

غريب ومقزّز هذا الربط بين المتعة الجنسية ومشاهدة موت الآخرين، الذي يصوّره فيلم Crash للمخرج David Cronenberg وغريب الاعجاب الذي حظي به عندما عُرض في مهرجان كان Cannes في تموز ١٩٩٦. يُمثّل الفيلم المذكور أشخاصًا متأنقين يستمتعون جنسيًا لدى مشاهدتهم صورًا متحركة التقطت لحوادث سير قاتلة ويعيدون عرض الشريط بوتيرة أبطأ اذا فاتهم احد التفاصيل المرعبة ويهتفون أن لا شيء أكثر إثارة من مشهد موت الآخرين؛ راجع:

Jean-Claude GUILLEBAUD: La tyrannie du plaisir, op., cit., p. 66, note 3.

(٩) يلاحظ الكاتب والصحفي جان كلود غيّبو، في كتاب مُلفت صدر له حديثًا بعنوان «طغيان اللذة»، ان الجنس المعاصر هو «قبل كل شيء، انفراديّ»، وكأنّه قد «صرف **الآخر** (التشديد للكاتب) اذا ما أخذنا بعين الاعتبار إنسانية هذا الآخر»، اذ جعل منه «أداة للاستمناء، آلة متفاوتة الفعالية»، وأن الجنس هذا اتّسم بتمحور عجيب للرغبة حول الذات بلغ حدّ توفير مشقة اعتبار الآخر موجودًا، في حين انه يُستمتَع به. ولكن غياب الآخر في حقيقته، يقول هذا الكاتب، حكم على الرغبة بأن تبقى أسيرة دوّامة ظمأ لا يرتوي: «لقد اعتقدنا أننا أدركنا (...) متعة بدون قيد، وإذا بالمتعة تنساب بين اصابعنا كأنّها حفنة ماء، وتتركنا محبَطين ومذهولين». هكذا انقلب السعي المهووس الى اللذة وحدها، على اللذة نفسها، فقلّصها الى «عزلة قَلِقَة» واقتلعها «من حقيقتها الحميمة، من **فرحها** الاكثر جوهرية» (التشديد للكاتب) راجع:

Jean-Claude Guillebaud: La tyrannie du plaisir, op cit., pp. 381-383, 384, pp. 126-127.

وقبله لاحظ المفكّر واللاهوتي الارثوذكسيّ بول افدوكيموف ان المجون المعاصر يخيّم عليه سأم عارم لا تقوى على تبديده انتفاضات تكهرب الاجسام سحابة لحظة عابرة، وأن هذا السأم، الذي يرشَح في روايات فرنسواز ساغان وغيرها، نابع من كون الناس «يمارسون الحب بدون حب وبدون فرح». راجع:

Paul EVDOKIMOV: Sacrement de l'amour, L'Epi, Paris, 1962, pp. 206 et 220-223.

(١٠) راجع: كوستي بندلي: الجنس ومعناه الانساني، منشورات النور، بيروت، ط ٣، ١٩٨٥، ص ٤٨-٥٠.

(١١) قد يكون ذلك لمجرّد لحظة عابرة - وبالغة الدلالة بآن - يعود بعدها كل شيء الى ما كان عليه، ولكنها، مع ذلك، ومضة مضيئة تكفي لينسلخ المرء، ولو برهة، عن ذاته المألوفة، ويكتشف باستغراب مشاعر نابعة من اعماق فيه كان يجهلها، تجتاحه وتقلب موازينه في حين أنه لم يكن يقيم لها حسابًا.

خبرة من هذا النوع يصوّرها، ببراعة وعمق، كاتب يتقن وصف الشهوة، هو الروائي الكبير نيكوس كازنتزاكي، في مقطع من روايته المأساوية «الاخوة الاعداء»، التي تجري حوادثها اثناء الحرب الاهلية التي نشبت في اليونان بعد الحرب العالمية الثانية.

يصوّر لنا الكاتب كيف أن دراكوس، قائد فصيل من الانصار، وقد قسّى القتال الضاري قلبه وأخمد فيه مشاعر الرحمة، قابل يومًا امرأة من الانصار، مثيرة ومستهترة، أتت تنقل اليه نبأ عزله لصالح رجل كان عشيقها. اختلطت لدى دراكوس اذ ذاك، حيالها، مشاعر الكراهية بشهوة جارفة، فعنّف المرأة وشتمها، ولكن الامر انتهى به الى اغتصابها بشبه جنون. انما، في الوقت الذي كان فيه يقضي منها شهوته - ليس دون استجابة منها ولو قسرية - كان الرجل - يلاحظ الكاتب - وبدون أن يدري ما يفعل او يقول، «يهدل كحمامة، بصوت رقيق وخافت لم يكن بصوته: «يا حبّي... يا حبّي...»».

غريب فعلًا أن يفتح التحام الاجساد - ولو كان اقتحامًا - كوة يطلّ منها الحنان على عالم قاتم مغلق تعصف فيه الشهوة والعدوان، وتتسرّب منها نسمة رقيقة تهمس بندائها في خضّم إعصار العنف الافتراسيّ، ويتجلّى منها - ولو من باب التلميح الخاطف - الوجه الانسانيّ للجنس وامضًا لبرهة في قلب أبشع انحرافاته. حقًّا لقد صدق فرويد بقوله ان الانسان خلوق اكثر مما يتصوّر. راجع:

Nikos KAZANTZAKI: Les frères ennemis, roman traduit

du grec par Pierre Aellig (1965), Le livre de poche, n°
3410, Paris, 1972, pp. 297-302.

وقد يتعدى الامر مجرّد ومضة عابرة، فيخترق الحنان النزعة الاغتصابية فيبدّلها ويؤنسنها، ويشقّ التوق الى الآخر طريقه عبر النزعة الاقتحامية الى تذويب هذا الآخر والغائه كذات، فيكتشف المغتصب انسانيته المغيَّبة باكتشافه لانسانية الآخر، وقد يتعلّم تذوّق طعم الشراكة مع كائن يراه متميّزًا عنه كليًا وأقرب اليه من ذاته بآن، فيحلّ، مكان الهمجيّة الافتراسيّة، عهدٌ يضمن للعلاقة الجنسية أصالتها الانسانية. هذا ما تعبّر عنه رواية سفر التكوين عن حادثة دينة ابنة يعقوب، التي اغتصبها رجل يدعى شكيم، ولكنه أحبّها بعد ذاك وطلب يدها، فأعطيت له، ولكن أخويها شمعون ولاوي قتلاه بعد ذلك غدرًا واستردّاها:

«وخرجت دينة بنت لَيئَة التي ولدتها ليعقوب، لترى بنات البلد. فرآها شكيم بنُ حَمُور الحُوِّي، رئيس البلد، فأخذها وضاجعها واغتصبها. وتعلّقت نفسه بدينة بنت يعقوب وأحبّ الفتاة وخاطب قلبها (او لاطفها) وكلّمَ شكيم حَمورَ أباه قائلًا: «خذ لي هذه الفُتَيَّة زوجة».. (تكوين ٣٤: ١-٤).

(١٢) لقد حيّرتني طويلًا كلمة الرسول بولس:

«أو ما تعلمون ان من اقترن ببغيّ صار وإياها جسدًا واحدًا، فإنّه قيل: «يصير كلاهما جسدًا واحدًا».» (١ كورنثوس ٦:١٦)

وكان سبب تحيّري هو ان العبارة التي يستشهد بها الرسول هنا (تك ٢:٢٤) انما قيلت في الاصل عن اتحاد الحبّ بين الزوجين، فكيف لها أن تنطبق على مجامعة يُقصد منها اشباع الشهوة وحسب؟ ولكني فطِنْتُ اخيرًا الى ان الرسول ربّما شاء أن يشير بذلك الى أن كلّ اتصالٍ جنسي لدى الانسان يحمل، بطبيعته، شاء أو ابى من يمارسه، توقًا الى لقاء الآخر عبر جسده والتوحّد معه، مسجّلًا، اذا صحّ التعبير، في بنية هذا السلوك، ببُعديها الجسديّ والنفسيّ، وأن هذا التوق حاضراذًا، بشكل ضمنيّ، حتى في الاتصال ببغيّ، ولكنه يُجهَضَ في هذه الحال. وكأن الرسول يقول ان «الاقتران» ببغيّ انما هو تمثيل ممسوخ، كاريكاتوريّ اذا صحّ التعبير، للاقتران الاصيل. ولكن الحقيقة المغيَّبة قد

تقوى على الزيف وتنفض عنها بهارجه، كما يحصل في الفيلم الذي نحن بصدده.

(١٣) والملفت ان اعضاء الجسد التي تؤدّي دورًا رئيسيًا في التحام الاجسام، يحمل كلّ منها معانٍ متناقضة يتشابك فيها الحبّ والعدوان: فالأذرع التي تضمّ وتحتضن، تأسر ايضًا وتكبّل وتعصر وتشدّ الخناق، والفم الذي يقبّل، ينهش ايضًا ويلتهم...
وفي أقصى الحال، يصحّ ذلك الوصف لعناق جنونيّ بين «عاشقَين» الذي يرسمه عمر بريغو في روايته «دلميرا» (مدريد، ١٩٩٧)، المستوحاة من قصة حقيقية، اذ يتحدّث عن «مجامعات عنيفة ومتشنّجة، يستحيل فيها معرفة اي من الطرفين كان يقهر الآخر، اذ كانا يبدوان وكأنهما يسعيان بضراوة الى تدمير أحدهما الآخر، الى افتراس احدهما الآخر، تحدوهما شهوة قاتلة، بالكاد محتجبة».
Omar PREGO: Delmira (Madrid, 1997), cité par Françoise BARTHÉLÉMY: recension de ce roman, in LE MONDE DIPLOMATIQUE, Paris, 45e année, n° 532, juillet 1998, p. 30.

(١٤) يقول بطل «القلعة»، كتاب سانتكزوبري، في مراجعة لنفسه أمام الله:
«لقد فتّشت في المرأة عن الهدية التي يمكنها تقديمها(...) وكنت اسير على غير هدى (...) لم أجد في الشهوة سوى لذة بخيلٍ، خالية بشكل عجيب من الجدوى. لم اجد فيها الا ذاتي. لا حاجة بي الى ذاتي، يا ربّ، ويتعبني صدى لذتي الذاتية.
اريد أن أبني طقوس الحبّ كي يقودني العيد الى أبعد».
A. de SAINT-EXUPÉRY: Citadelle, op. cit., pp. 564 et 567-568.

(١٥) راجع: كوستي بندلي: هل من حب حقيقيّ في زمن المراهقة؟ في: هواجس شبابية حول الاسرة والحب (١٩٨٦)، ط ٢، جرّوس برسّ، طرابلس، ١٩٩٨، ص ٧١-١٠٩.

(١٦) على هذا النمط من السعي الذكوريّ تنطبق العبارات التالية للشاعر النمساوي الكبير راينر ماريا ريلكه: «هنا عالم جنسيّ لم يكتمل نضجه

ولا نقاوته، هنا رجل ليس **إنسانيًا** بما فيه الكفاية، رجل ليس سوى ذَكَرَ (...). انه لا يحبّ إلّا كذكر، وليس كإنسان». راجع:

Rainer Maria RILKE: Lettre du 23 avril 1903, in Lettres à un jeune poète (1903-1908). Proses. poèmes français. Traduction nouvelle, préfaces et notes de Claude Mouchard et Hans Hartje, 1989, Le livre de poche, n° 6904, Paris, 1993, p. 45.

(١٧) يقول سانتكزوبري إن الحبّ لا يُعرف بالواقع الا اذا تركّز على شخص واحد، على امرأة بالذات: «تلك، التي هي مُفرَدة، تفتح لي طريقًا (اليه). انها تتكلم بهذه الطريقة بالذات، لاخلاف ذلك. بسمتها هي تلك بالذات وليس غيرها. لا أحد يشبهها». ومع ذلك، يضيف كاتبنا، فإن خصوصيتها ليست جدارًا أرتطم به، بل نافذة تطلّ على اللانهاية. هذه الخصوصيّة وحدها ترسم لي سبيلًا حقيقيًا لإرواء عطشي. اما بدونها، «فإنّ الذي يموت عطشًا يخطو في الحلم نحو الينابيع. ولكنه يموت» لانه لا يلتقي الا السراب. راجع:

A. de SAINT-EXUPÉRY: Citadelle, op. cit., pp. 544-545.

(١٨) المقصود انما هو المرتكز الثابت (Je) لكافة حالات الأنا (Moi) المتقلّبة والعابرة، ذلك الذي يتيح لي أن أدرك أنها، على تباينها، الشاسع احيانًا، انما مردّها ذات واحدة هي ذاتي. هذا التمييز جليّ في اللغة الفرنسية كما اشرنا، وفي ضوئه يتضّح معنى قول الشاعر ابولينير Apollinaire:

"Les jours s'en vont, Je demeure"

(تمضي الايام وابقى أنا).

(١٩) «لا حبّ إلا حيث يكون الاختيار لا رجوع فيه...»

Antoine de SAINT-EXUPÉRY: Citadelle, op. cit., p. 515.

(٢٠) يقول سانتكزوبري: «انك تطالب بالحبّ ضدّ القواعد التي تحرّمه. ولكن هذه القواعد عينها هي التي تؤسّس الحبّ».

A. de SAINT-EXUPÉRY: op. cit., p. 518.

(٢١) «فإنّ الحبّ قويّ كالموت (...) سهامه سهام نار ولهيبُ الربّ» (نشيد

الأنشاد ٨:٦)

(٢٢) راجع شرحًا له في:

Jean-François Six: Le Chant de l'Amour. Eros dans la Bible, Desclée de Brouwer/Flammarion, Paris, 1995.

(٢٣) مما لا يعني انطواءً او انعزالاً كما يحلو للبعض أن ينعتوا وحدانية الحب وحصريّته - بل، بالعكس، مزيدًا من الانفتاح على الكون والناس، بزخم هذا الحبّ المركّز عينه.

ففي نشيد الانشاد، عندما يهمّ الحبيب بالاقتران بالحبيبة، تجاوبًا مع ندائها اليه، ويهتف:

«نعم، يا أختي، يا عروسي،
سوف أدخل الى جنّتي هذه،
سوف أقطف مريّ مع أطيابي،
سوف آكل شهدي مع عسلي،
سوف أشرب خمري مع لبني»

فإنّه يضيف على الفور:

«كلوا، ايها الاصدقاء،
إشربوا واسكروا ايها الاحباء»

(نش ٥:١)

ويعلّق جان فرنسوا سيس، في شرحه لنشيد الانشاد، على هذه الابيات بقوله:

«قد حان وقت وليمة العرس (...). يطلق الحبيب دعوة واسعة: فليأتِ الجميع ليشاركوا فرح اللذين صمّما على الإتحاد أحدهما بالآخر! انها دعوة موجّهة الى الاطراف الاخرى، موجّهة للجميع، لأنّ الذي يحبّ ينظر الى العالم كله على انه ملتقى الإخوة، ويتمنّى أن يلتئم الجميع حول حبّه، ويرى كلّ اشباهه البشر كأنهم اصدقاء واقرباء (...) الحبّ (...) يُعاش ويُحتفل به في نوع من وليمة كونيّة فائقة الاتساع يلتقي فيها الكلّ ...»

J- F. Six: Le Chant de l'Amour, op. cit., p. 52.

هذا ما يلتقي مع فحوى هتاف الشاعر الفرنسيّ المعاصر بول إلوار، مخاطبًا حبيبته:

«ولأننا متحابّان

نريد أن نحرّر الآخرين

من صقيع عزلتهم»

Paul ELUARD: Les Sept poèmes d'amour en guerre, in Choix de poèmes, Le livre de poche, Paris, 1963, p. 291.

(٢٤) لا بل انه لو أتيح للمحبوب ان يحقّق لي الاكتمال المنشود، لخمد ذلك التوق الذي يذكيه فيّ تواريه الدائم عن مبتغاي. اذًا لانقطعت الصلة التي تشدّني اليه. ولانهار الحبّ وبقيت وحدي، مُغلقًا عليّ في مناجاة ذاتي. فلقاء الحبّ، ايا كانت حميميته، ليس انصهارًا، لان الانصهار يعني موت الحبّ بزوال التمايز بين قطبيه، هذا التمايز الذي يعبر منه تيار الحياة من الواحد الى الآخر. اللقاء الحقيقي يفترض اذًا التخلّي عن حلم الانصهار.

يقول الفيلسوف عمانوئيل لاڤيناس:

«ما هو مُشجٍ pathétique في الحبّ يكمن (...) في ثنائية يستحيل تخطّيها بين الكائنات. انه علاقة مع ما يتوارى ابدًا (...) الآخر من حيث هو آخر ليس هنا شيئا يصبح لنا او يصبح نحن. إنه، على العكس، ينسحب في سرّه»

Emmanuel LÉVINAS: Le temps et l'autre, pp. 78-79, cité in Emmanuel LÉVINAS: Ethique et Infini. Dialogues avec Philippe Nemo (1982), Le livre de poche, Paris, 1996, p. 59.

وفي دراسته عن «نشيد الانشاد»، ينقل لنا جان فرنسوا سيس رأي عمانوئيل لاڤيناس كما عبّر عنه في كتابه:

Totalité et infini, La Haye, Nijnoff, 1961, p. 271.

وهو ان العلاقة الاكثر عشقية «لا تردم فجوة الانفصال بل تؤكّدها».

ويضيف سيس ان استمرار هذه الثنائية وعدم تحوّلها الى وحدة، شرط لاستمرار التواصل في الحبّ. اما اذا امتلكتُ الآخر، او تصوّرت انني امتلكه، فلا يؤول ذلك سوى الى إبطال صلة العشق لتحلّ محلّها مناجاة الذات monologue والتماثل uniformité. من هنا، يقول لاڤيناس: «إن الآخر يجب أن يبقى غيابًا وسرًا».

E. LÉVINAS: Noms propres, Montpellier, Fata Morgana, 1976, p. 156.

وإلّا انحلّ العشق. راجع:

J. F. Six: Le Chant de l'Amour, op. cit., p. 227.

(٢٥) يقول راينر ماريا ريلكه:

«الحبّ (...) قوامه في أن وحدتين deux solitudes تحميان إحداهما الأخرى، وتتراسمان حدودهما، وتتبادلان التحية».

Rainer Maria RILKE: Lettres à un jeune poète ..., op. cit., lettre du 14 mai 1904, p. 66.

(٢٦) يقول جان فرنسوا سيس - وهو كاهن ومفكّر كاثوليكيّ معاصر - انه، فقط عبر قبول الغياب والليل، تبلغ الرغبة المتبادلة والحب حقيقتهما مرورًا بما يشبه الموت. ويستشهد بما قاله لويس برنارت Louis Beirnaert، وهو كاهن يسوعيّ ومحلّل نفسيّ معروف، في كتابه:

Aux frontières de l'acte analytique, Paris, Le Seuil, 1987, pp. 157-158.

من ان الامر الاهمّ في حياة الرجل والمرأة، هو تحوّل رغبتهما، بحيث تبلغ الاصالة بتعرّيها من السعي الى امتلاك موضوع الحبّ. ويرى برنارت تشابهًا بين هذه التعرية، التي يقتضيها الحبّ البشريّ حتى يستقيم، وبين تلك التي تتطلّبها إقامة علاقة اصيلة مع الله. فالله اله متوارٍ ابدًا، اله لا يستجيب للطلب الفوريّ، وكأنّه لا يحبّنا بالطريقة التي نودّ أن نُحَبّ بها منه. من هنا اننا لا نبلغ حقيقة معرفته الا عبر قبولنا الفراغ وعدم الإشباع الفوري لأمانينا. هكذا فإنّ كلًّا من الحب البشريّ والحبّ الإلهيّ يتطلّبان زهدًا واحدًا، اذ ينبغي، كي يستقيم هذا

وذاك ، أن نرتضي نقصنا الجذريّ وأن نسلك درب الايمان العاري .
راجع :
Jean - François Six : Le Chant de l'amour .., op. cit., p. 253.

(٢٧) يوضح الباحث اندريه الستانس ان الوفاق الجنسيّ ثمرة علاقة زوجية اصيلة ، وأنه بسبب ذلك ، مسيرة بطيئة ، عمل يتطلّب النفس الطويل .
راجع :
André ALSTEENS : Dialogue et Sexualité, Feuilles Familiales, Casterman, Tournai - Paris, 1969, pp. 114-117.

ونجد شهادة بليغة عن حقيقة هذا الامر ، في ملاحظة طريفة ومؤثّرة ساقها طبيب اميركيّ يُدعى كارل هويتاكر . كان هذا يقود ، مع زميل له ، علاجًا نفسيًا عائليًا ، وفي إحدى جلسات هذا السياق العلاجيّ ، عبّر فرد من تلك العائلة ، وقد تقدّمت به السنّ ، عن اعتقاده بأنّه وزوجته وصلا عمليًا الى نهاية عمرهما ، وبأنه لم يبقَ بالتالي أمامهما مجال ليتغيّرا كثيرًا . عند ذاك لم يتمالك الدكتور هويتاكر من التدخّل ، قال :

« لا يسعني الا ان اروي لكم قصة (...) تعود الى الحقبة التي كنت فيها أعمل في قسم الطبّ النسائيّ في احد المستشفيات ، قبل أن أتفرّغ الى الطب النفسيّ . كنت حينها قد أجريت فحصًا طبيًا لامرأة عمرها ٧٦ عامًا . أثناء المعاينة ، سألتها عن حياتها الجنسية . قلتُ : « ألا يزال بينك وبين زوجك علاقات جنسية ؟». بدت فجأة مصدومة ، فتساءلتُ إذا كنت قد استخدمتُ عبارة جرحت إحساسها (...) . قالت : «دكتور هويتاكر ، زوجي وأنا متزوجان منذ **خمسة وأربعين عامًا ، وعلاقاتنا الجنسية تحسّنت في كلّ عام** من هذه الاعوام الخمسة والاربعين ، وإذا قُدّر لنا أن نعيش حتى سن التسعين ، فكليّ رجاء بأنها سوف تتحسّن ايضًا » . (التشديد في النص) .

وقد علّق الطبيب ، منوّهًا بهذا الوفاق الجنسي المذهل الذي لم يكن فيه للجنس ، من حيث هو طاقة بيولوجية ، قسط كبير ، انما كان تعبيرًا عن

الحميمية المتزايدة التي اختبرها هذان الزوجين بينهما على مرّ الايام.

راجع:

Augustus NAPIER et Carl WHITAKER: Le Creuset familial (The Family Crucible, 1978), traduit de l'américain par Denise Hélie, Coll. "Réponses", R. Laffont, Paris, 1991, pp. 316-317.

لقد كان تحسّن العلاقة الجنسية بين هذين الزوجين، المتزايد رغم تقدّمهما في السنّ وطول الزمن الذي قضياه معًا، وليد توافقهما الوجدانيّ المتعاظم سنة بعد سنة. إن لفي هذه الشهادة المؤثّرة ما يدعو الى إعادة النظر في التصور الشائع عن النجاح الجنسي، الذي يردّه الى عوامل آلية صرفة، وقد يكون من ابلغ تعابير هذا التصوّر المغالي في التبسيط، ما يشهده العالم اليوم من اقبال منقطع النظير على عقار كالفياغرا.

(٢٨) راجع اقوال الشاعر الكبير بول كلوديل:

"Qui a mis en marche tout cela? dit Dieu, ce trébuchement initial? qui a ménagé ce certain manque et ce vide secret?
De peur que mon enfant n'existe par lui-même (...)"

Paul CLAUDEL: Feuilles de Saints, p. 191.

(«من أطلق كلّ هذه المسيرة، يقول الله، مَن جعل هذا التعثّر في الاساس؟ مَنْ دبّر هذا القدر من النقص وهذا الخواء الخفيّ؟
خشية أن يوجد ولدي بذاته (...)»

راجع أيضًا:

Dr Jacques SARANO: L'Esprit, le Sexe et la Bête, in ESPRIT, nov. 1960, p. 1848.

(٢٩) يقول الدكتور جورج ديماس، أحد رواد علم النفس العلميّ في فرنسا، وعضو الاكاديمية الطبيّة:

اللذة الجنسية volupté (...) تقتضي (...) حالات عاطفية من

الامان، والثقة، وزوال الحذر والتوتر، تتميّز عن الرغبة».

Georges DUMAS: La vie affective. Physiologie, psychologie, socialisation, PUF, Paris, 1948, p. 30.

ويقول الاخصائي في علم الجنس، فيليب برينو، في كتاب صدر له حديثًا:

«الانشراح الجنسيّ يتطلّب (...) ايضًا قدرة كبيرة علىالإنصات الى الآخر».

Philippe BRENOT: L'Education sexuelle, PUF, Paris, 1996, Coll. "Que sais-je?", n° 3079, p. 95.

(٣٠) وقد يصيب اضطراب مرحليّ من هذا النوع ايّ رجل او أيّة امرأة في بعض ظروف حياتهما (فمثلًا قد يعاني الرجل من ضعف انتصاب القضيب او من قذف سريع، وقد تعاني المرأة من غياب الرغبة او استحالة الإحساس بالمتعة)، ويساعد آنذاك على تخطّيه، تفهّم الشريك أو الشريكة وتعاطفه الدافئ والمطمئن. راجع:

Philippe BRENOT: L'éducation sexuelle, op. cit., p. 113.

(٣١) «هذا ما تؤكّده الخبرة الطويلة التي حصل عليها الإخصائيان الاميركيان الشهيران، وليم ماسترس وفيرجينا جونسون، في علاجهما الناجح (توصّلا الى نسبة شفاء تعادل ثمانين بالمائة من الحالات التي عالجاها) لحالات التنافر الجنسيّ. فإنّهما مع تركيزهما البالغ على اهمية إتقان اساليب الممارسة الجنسية بغية ازالة التنافر المذكور وما يلحقه من أذى بالعلاقة الزوجية، يؤكّدان ان حالات التنافر تلك هي غالبًا وليدة اضطراب حاصل في العلاقة بين الطرفين ونقصٍ في الاتصال الوجدانيّ بينهما. لذا فهما يعتبران انها تعني «الكوبل» بطرفيه (وإن لم يتعادل هذان من حيث اهمية الدور الذي لعبه كلّ منهما في إفشال التوافق الجنسيّ بينهما)، فيعالجان «الكوبل» معًا ليساعداه على استعادة تواصله على كافة الاصعدة. راجع:

William H. MASTERS et Virginia E. JOHNSON: Les mésententes sexuelles et leur traitement (1970), traduit de l'américain sous la direction du Dr Michel Meignant (1971), Ed. Marabout, Verviers, 1981".

عن كوستي بندلي: صورة المسيح في الزواج والاسرة، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٣، ص ٤٥-٤٦.

(٣٢) يقول فيليب برينو:

«...معروف كم تولي الفتيات من أهمية لإطار الحبّ (الذي يندرج فيه العمل الجنسيّ) والعلاقة العاطفية (...)، في حين ان الوجه الجسمانيّ للحبّ يشغل بتواتر أكبر ذهن الشاب».

Philippe BRENOT: L'Education sexuelle, op. cit., p. 105.

(٣٣) ان ١٢٪ من المساكنات في فرنسا قائمة بدون زواج (المرجع: «إذاعة فرنسا الدولية» RFI، صباح ١٩٩٨/٦/١١). وفي ما يتعلّق ببدء المساكنة، فقد كان يتمّ بدون زواج، في فرنسا، قبل ثلاثين عامًا، بالنسبة الى ١٠٪ من الكوبلات. اما حاليًا فإن ذلك يحصل بالنسبة الى ٩٠٪ من الكوبلات (المرجع: INSEE, cité in Michèle GUY, Le couple et son histoire, Cerf, Paris, 1997, page 26).

(٣٤) من سمات المجتمع الصناعي الحديث، صعوبة يجدها المرء في إدراج التزامه العاطفي في سياق الزمن. وكأن التغيير المتلاحق الذي يطال كل شيء حوله في عصر يشهد تحوّلات متسارعة، ينعكس على نفسيّته ويطبعهابطابع استعداد للتقلّب وعدم الاستقرار.

ويتساءَل جان فرنسوا سيس اذا لم يكن معاصرونا يعانون من شكل من العنّة (العجز الجنسيّ) يتميز بشيء من استحالة عيش زخم العلاقة وكثافتها في الامتداد الزمني. راجع:

Jean- François Six: Le chant de l'amour, op. cit., p. 257.

(٣٥) كل القرائن تشير الى ان مبيعات سوق الجنس في عالم اليوم قد بلغت رقمًا قياسيًا. فإذا أخذنا، على سبيل المثال، مجال الافلام الخلاعية، علمنا من مجلة US News and World Report أن الاميركيين أنفقوا عليها، سنة ١٩٩٦، أكثر من ٨ مليارات من الدولارات (مقابل ١٠ ملايين دولار فقط قبل ذلك بعشرين عامًا، بالاستناد الى تقدير الحكومة الاميركية، مما يشير الى النموّ الهائل الذي حققته هذه المبيعات في فترة محدودة من الزمن). أما «ملك الافلام الخلاعية» في الولايات المتحدة، المدعو لاري فلنت Larry Flint، فهو من اصحاب الثروات الطائلة. وقد كسب مليونه الاول من الدولارات عن طريق بيع صور التقطت لجاكي اوناسيس، وهي عارية، في إحدى الجزر اليونانية، وقد تعرّض لاعتداء سنة ١٩٧٨، صار بعده يتنقّل على كرسيّ سيّار ملبّس بالذهب. راجع:
Jean-Claude GUILLEBAUD: La tyrannie du plaisir, op. cit., pp. 91-92.

(٣٦) في ندوة عقدها المركز الكاثوليكي للمثقفين الفرنسيين CCIF، في تشرين الاول ١٩٧٠، حول الزواج، أشار رينيه سيمون، وهو كاهن ولاهوتيّ كاثوليكيّ، الى أهمية الإعداد للزواج، وأوضح أنه لا يقتصر على مجرّد نقل معلومات، على ضرورة هذا، بل انه يشمل تربية للعقل والقلب. من هنا، قال المتحدّث، انه ينبغي أن يتعدّى هذا الإعداد الفترة الزمنيّة المحدودة التي تخصصها له الهيئات المشرفة عليه، والتي هي قصيرة نسبيًا، فيمتدّ الى مرافقة للكوبلات في تطوّرها، والى منحها فرصة إعادة تأهيل دائمة recyclage permanent. فهناك مراحل تتعاقب في الحياة الشخصية وفي الحياة الزوجية. لذا فمن المرغوب أن يجد الكوبل، في سائر مراحل حياته، أزمنة وأمكنة، مؤسسات واشخاصًا اكفاء، كفيلة بأن تتيح له إمكانية التفكير في أوضاعه وإجراء مراجعة النفس التي تقتضيها هذه الاوضاع. راجع:
René SIMON: Questions à propos du divorce, p. 109, in Le mariage. Engagement pour la vie? (Colloque du CCIF, octobre 1970),

RECHERCHES ET DÉBATS, n° 74, Desclée de Brouwer, Paris, 1972, pp. 103-111.

(٣٧) راجع :

Jacques GAILLOT: Et l'Evangile poursuivra sa course, in Jacques GAILLOT et Catherine GUIGON: Monseigneur des autres (1989), Coll. "Points Actuels", Seuil, Paris, 1993, pp. 124-125.

(٣٨) أو لينصاع، دون ان يدري، الى التصوّرات الرائجة في زمانه، ظانًّا، لمجرّد كونها شائعة، انها من المسلّمات البديهيّة، وفاقدًا حيالها كلّ حسّ نقديّ. وهو موقف يفضحه لدى العديد من معاصرينا، أحد محلّلي الصرعة الجنسية الحاضرة. راجع: J. - Cl. GUILLEBAUD, La tyrannie du plaisir, op. cit., pp. 376-380.

ويصوّر هذا الكاتب كيف أن إنسان المجتمعات الغربية الحديثة يظن أنه حطّم قيوده وتسكره حرّية زائفة، في حين أنه بالفعل يسجن نفسه بخوف في حدود الطاعة لنموذج يُفرَض عليه التقيّد به. راجع: id. ilvid. p 130.

كما ان الباحث نفسه يشير الى البراعة التي يُستغَلّ بها مطلب الحرية، ويتمّ احتواؤه إعلانيًا، من أجل تسويق الجنس وبيعه لصالح تجار ال porno business الذين لا يدينون الا بالكسب ولا يرون في الحرية سوى شعار يسخّر له: راجع:

J. - Cl. GUILLEBAUD: La tyrannie du plaisir, op. cit., pp. 93-94.

مراجع لنفس الكاتب

لمن شاء متابعة موضوع هذا الفصل

١- الجنس ومعناه الإنساني (١٩٧١)، الطبعة الرابعة، منشورات النور، بيروت، ١٩٩٩.

٢- مع تساؤلات الشباب (١٩٧٤)، الطبعة الرابعة، جرّوس برسّ، طرابلس (قيد الطبع).

٣- الحرية والشباب على ضوء المأساة اللبنانية (١٩٨٢)، الطبعة الثانية، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٨.

٤- صورة المسيح في الزواج والأسرة (١٩٨٣)، طبعة ثانية موسّعة بعنوان «الزواج درب الحب ومختَبَره. الأبعاد النفسية والروحية للزواج والأسرة، دار زخّور، حلبا، ١٩٩٩.

٥- كيف نواجه أسئلة أولادنا عن الجنس؟ (١٩٨٤)، طبعة ثانية مزيدة، جرّوس برسّ، طرابلس، ١٩٩٧.

٦- الأبعاد الروحية للتربية الجنسية (١٩٨٥)، طبعة ثانية، منشورات النور، بيروت (قيد الطبع).

٧- هواجس شبابية حول الأسرة والحبّ (١٩٨٦)، طبعة

ثانية ، جرّوس برسّ ، طرابلسّ ، ١٩٩٨.

٨- مع تساؤلات المرشدين. قضايا وحالات تربوية ، منشورات النور ، بيروت ، ١٩٩١.

الفصل الثاني

الالحاح الجنسي في مواجهة عوائق الزواج (١٩٩١)

تقديم

سنة ١٩٩١، كان فريق من شباب الرعية الأرثوذكسية في طرابلس - الميناء يجتمع دوريًّا في كنيسة صغيرة سُميت باسم يوحنا المعمدان، باشراف الشماس باسيليوس دبس، للتداول، في ضوء ايمانهم، حول مختلف مواضيع الحياة. وقد طُلب منّي أن أقود بضع حلقات في هذا الإطار، تمحورت اثنتان منهما حول الزواج وما يدفع إليه من حاجات رأى الشباب انها تلعب أحيانًا، في الإقدام عليه، دورًا طاغيًا يطرح تساؤلًا حول أصالته؛ وما يكتنفه من عقبات، في الوضع الاقتصادي والاجتماعي الراهنين، تتسبب في تأجيله القسريّ وتؤول بالتالي إلى تأزم وضياع لدى «المحتاجين» إليه. من هنا انطلقت مداخلتان ألقيت واحدة منهما في ١٠/٢٥/ ١٩٩١، والثانية في ١٩٩١/١١/١، أخذت كلٌّ منهما بالحساب سؤالًا وردني خطيًّا يعبّر عن هواجس الشباب. ويمكن إجمال موضوع كل مداخلة بأحد العنوانين التاليين:

- **هل نتزوّج لقضاء حاجة؟ (١٩٩١/١٠/٢٥)**

- كيف تواجَه مشكلة الزواج المؤجَّل قسريًّا؟ (١/١١/ ١٩٩١)

وفي ما يلي أعيد صياغة مداخلتيّ هاتَيْن، انطلاقًا مما سجّلته عنهما من مذكّرات. انما أودّ أن أشير إلى أن السؤالين اللذين شكّلا منطلَق مداخلتيَّ استشهدا بآية للرسول بولس، وهي «الزواج خير من التحرّق» (١ كورنثوس ٧:٩). وبما انني أعتقد ان هذه الآية انما هي بحاجة إلى توضيح لئلا يساء تأويلها فيؤدّي إلى تشويه المفهوم الايمانيّ والإنساني للزواج، لذا رأيتُ أن أجعل التوضيح تمهيدًا يسبق عرض مضمون المداخلتين المشار إليهما أعلاه، ويسقط عليه مزيدًا من الضوء.

أوّلًا: تمهيد: إيضاح تفسيريّ حول «الزواج خير من التحرّق» (١ كو ٧:٩)

في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، كتب بولس في معرض إجابته عن أسئلة طرحوها عليه: «وأقول لغير المتزوّجين والأرامل إنه يحسن بهم أن يظلّوا مثلي، فاذا لم يطيقوا العفاف فليتزوّجوا، فالزواج خير من التحرّق» (١ كور ٧:٨ و٩).

قد يُؤوَّل هذا الكلام كما لو ان الرسول بولس لا يرى أية قيمة للزواج بحدّ ذاته وانما يجيزه من باب التساهل اذ يرى فيه علاجًا يخمد نار الشهوة. الا ان هذا التأويل غير صحيح لأنه ينسب إلى بولس ازدراءً بالزواج يناقض مشيئة الله الذي أنشأه منذ البدء (راجع

تك ٢) وثبّته بالمسيح. هذا ما يذكّر به بولس نفسه عندما يضيف، فورًا بعد المقطع المذكور أعلاه، عبارات تؤكّد ديمومة الزواج التي أعاد لها يسوع إعتبارها في وجه الممارسات التي صدّعتها (متى ١:١٩-٩؛ مرقس ١:١٠-٢١): «وأما المتزوجون فأوصيهم، **ولستُ أنا الموصي، بل الربّ**، بأن لا تفارق المرأة زوجها (...) وبألّا يتخلّى الزوج عن امرأته» (١ كو ٧:١٠-١١). كما إننا نراه، في الفصل نفسه، يصف، بشكل رائع، العطاء الجسدي والنفسي المتبادل الذي يجمع الزوجين: «لا سلطة للمرأة على جسدها فإنّما السلطة لزوجها. وكذلك الزوج لا سلطة له على جسده فإنّما السلطة لامرأته (...) والمتزوّج يصرف همّه إلى (...) الوسائل التي يُرضي بها امرأته (...) وأما المتزوّجة فتصرف همّها إلى (...) الوسائل التي ترضي بها زوجها» (١ كور ٧:٤ و٥ و٣٣ و٣٤).

فإذا شئنا أن نفهم بشكل أفضل عبارة بولس التي نحن بصددها، ينبغي أن نعرف انها لم تأتِ في إطار بحث متكامل عن الزواج، بل في سياق أجوبة كان الرسول مضطرًّا أن يقدّمها عن أسئلة رفعتها إليه فئات متباينة من الكورنثيين. كان بين هؤلاء من يعتبر، على ما يبدو، ان ممارسة الجنس مع البغايا (التي كنّ كثيرات في كورنثوس) عملًا حياديًّا من الناحية الخلقيّة، على شاكلة الأكل والشرب (راجع ١ كور ٦:١٢-٢٠)[1]. بالمقابل كان بينهم جماعة من «المتعَفّفين» encratites، ينتمون إلى تيار أتى في الأصل من بلاد فارس وانتشر بين فئة من المسيحيين، وكان

ينادي بتحريم الزواج على الجميع، معتبرًا ذلك على انه شرط ضروري للخلاص[٢]. وقد انطلق حديث بولس عن الزواج في الفصل السابع من هذه الرسالة، من ذكر الرسول لعبارة وجّهها إليه «المتعفّفون». ففي العدد الأول من هذا الفصل ورد ما يلي: «وأما ما كتبتم به إليّ، فيحسن بالرجل أن لا يمسّ المرأة». تلك هي الترجمة المألوفة للنصّ اليوناني الأصليّ. ولكن هناك من يترجم - ومنهم العالم الكبير في تفسير الكتاب، الأب لاون كزافييه دوفور Léon Xavier - Dufour: «وأما ما كتبتم به إليّ، وهو انه يحسن بالرجل أن لا يمسّ امرأة...»[٣]، أي أن الجملة الثانية لم ترد على لسان الرسول ولا تعبّر عن فكره، انما يَنقُلُ بها ما ورد على لسان «المتعفّفين» وما يعبّر عن اعتقادهم. وكما يدحض بولس موقف الاباحيين الذين يشرّعون البغاء، يتصدّى أيضًا لنقيضه، أي لموقف «المتعفّفين» المغالي في تشدّده. وما عبارته «فالزواج خير من التحرّق»، اذا وُضعت في هذا السياق، سوى حجة ضد هؤلاء. وكأنه يقول: إنكم، في اخلاصكم للرب ورغبتكم في أن يتكرّس الجميع كليًّا له، تفرضون على الكلّ أن لا يتزوّجوا. ولكن حذار أن تكونوا كـ«من يطلب الزيادة ويقع في النقصان»، اذ بفرضكم العفة المطلقة على الجميع تعرّضونهم إلى الاكتواء بنار الغريزة التي تُقحِمونَهم في التنكر لها وعدم إقامة الحساب لقوتها، فيفضي بهم الأمر، في آخر المطاف، إلى الوقوع في الفحشاء.[٤]

يبقى ان بولس، في هذا الفصل، إلى جانب تثبيته الحازم

للزواج وتأكيده للعلاقة الحميمة التي تجمع طرفيه، لا يبدو لنا انه يوفيه حقّه كواقع كامل الإيجابية لا تقلّ أهميته، من الناحية الايمانيّة، عن أهمية البتوليّة، وإن كان وإياها يتكاملان. إحساسنا أن بولس، في الفصل السابع من ١ كورنثوس، لا يضعه إلَّا في مرتبة دنيا وينظر إليه خاصّة من زاوية متطلّبات الضعف البشريّ والحاجة الغريزية إلى التنفيس عن ضغط أو إزالة توتّر. وقد يكون السبب في ذلك، أو أحد الأسباب - وهو سبب أدّى، على كل حال، إلى انتشار مذهب «المتعفّفين»[٥] - هو الاعتقاد، الذي شاع بين المسيحيين الأولين، بأن مجيء المسيح الثاني، الذي به ينتهي العالم الحاضر ويحلّ الملكوت المنتظَر، انّما هو على الأبواب. وقد شارك بولس نفسه وقتًا ما بهذا الاعتقاد، كما تشهد أول رِسالة كتبها، على الأرجح في شتاء ٥٠-٥١ للميلاد، وهي الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي، حيث يردّد مرّتَين هذه العبارة «نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الرب» (١ تس ٤: ١٥ و١٧). وكان هذا الاعتقاد يستتبع انه لم يعد من مبرّر للتناسل من أجل استمرار عالم شارف على الزوال، وان الأجدر هو أن لا يترك المؤمن شيئًا يحول دون انشغاله كليًا بمجيء الرب القريب. هذا ما نجد صدى له في الفصل السابع من كورنثوس الأولى، الذي نحن بصدده (راجع ١ كو ٧: ٢٩-٣٢).

حوالي عشر سنوات بعد ذلك، كتب بولس رسالته إلى أفسس. وإذا بها تشهد مزيدًا من النضج في فكره اللاهوتيّ، يتجلّى مثلًا في اللوحة المكتملة، العميقة المعاني، التي يرسمها عن

الزواج (أفسس ٥: ٢١-٣٢)، حيث نرى الجنس يتخطّى مجال الغريزة والنزوة وتقنينهما، ليدخل عالم الله بولوجه في رحاب الحبّ.

ثانيًا: هل نتزوّج لقضاء حاجة؟ (*)

السؤال المنطَلَق:

«زواج اليوم هو زواج شهوة أو لحلّ المشاكل البيتية أو للتخلّص منها، وبالتالي نابع من أسباب مادّية. وبولس نفسه يريد أن يتزوج الناس لأن الزواج أصلح من التحرّق. فما هو القاسم المشترك بين فكر عامّة الشعب وبولس، وما الاختلاف بينهما؟

- فساد الدوافع التي يراها طارح السؤال مهيمنة على «زواج اليوم» ليس في كونها «مادّية» بقدر ما هو نابع من كونها، إذا طغت، أي إذا كانت المحرّك الأساسيّ للإقدام على الزواج، كما توحي صياغة السؤال، تؤول إلى اعتبار الشريك الزوجيّ مجرّد أداة أو وسيلة لتحقيق حاجة من الحاجات. في حين ان كرامة الإنسان تأبى بأن يُعتبر وسيلة لأيّ غرض ما، حتى ولو سما هذا الغرض. وفي حين ان طبيعة الحبّ - ذلك الحبّ الذي لا يستقيم الزواج بدونه ولا تبلغ النزعة الجنسيّة، خلّوا منه، اكتمالها ومعناها

(*) أُلقيت المداخلة، في صيغتها الأصلية، في ٢٥/١٠/١٩٩١، في كنيسة مار يوحنا (طرابلس - الميناء)، وتلتها أسئلة طرحها الحاضرون.

الانسانيّ – تتنافر مع اعتبار الشريك وسيلة ، لأن « تشييء » الآخر على هذا المنوال (أي اعتباره شيئًا لا شخصًا) يؤول إلى علاقة استغلال (قد تكون متبادلة بين الطرفين) لا إلى الحبّ الذي هو ، في جوهره ، علاقة مشاركة حميمة بين ذات وذات[٦] .

– ويبدو أن طارح السؤال يرى صدى لما تراءى له من طغيان الحاجة هذا في دفع الناس إلى الزواج ، في توصية الرسول بولس لغير المتزوجين من الكورنثيين بأن يتزوجوا إذا لم يطيقوا العفاف ، « لأن الزواج أصلح من التحرّق » (١ كور ٧:٩) . وكأني به يفطن ، مع ذلك ، إلى ان موقف الرسول ، رغم ما يبدو في الظاهر من « قاسم مشترك » بينه وبين الموقف الشعبي الشائع الذي نحن بصدده ، لا بدّ وان تكون له فرادته وتمايزه ، إذ لا يُعقل أن يكرّس الرسول ، وهو المتحدث باسم الله ، هيمنة الحاجة على قرار مصيري كالزواج . من هنا استفساره عما يتميز به موقف بولس .

– عبارة الرسول ، إذا سلخناها عن الظرف الذي قيلت فيه وعن الغرض الذي حدّده هذا الظرف (وهو ما توسّعنا به في « التمهيد » الذي سبق هذه المداخلة) ، تبدو بالفعل وكأنها تصبّ في الموقف الذي انطلق طارح السؤال من ملاحظته ، أي من طغيان الحاجة في اتخاذ قرار الزواج ، لأنها قد تفيد بأن يتخذ المرء شريكًا زوجيًا لينجو به من « التحرّق » ، أي ليطفئ الشهوة ، ويزيل توتّرها المضني الذي يقضّ مضجعه وينغّص حياته ويحول دون تفرّغه للسعي الروحيّ وقد يفضي به إلى الانحراف السلوكيّ والارتماء في المجون .

- ولكن إدراكنا للإطار الذي وردت فيه العبارة، وان الغرض منها كان لفت الرسول الكورنثيين المنتسبين إلى مذهب «المتعفّفين» encratites، إلى أن رفضهم المهووس للزواج من شأنه أن يؤدّي إلى عكس ما يبتغون، ان ادراكنا هذا لحقيقة ما كان يقصده بولس، في ضوء دراسة دقيقة وتاريخية للنص، لا يسمح لنا بتبسيط عبارته وتحريفها كما قد يتراءى للقارئ المتسرّع. ثم اننا، إذا تأملنا في مجمل فكر بولس وتعليمه، نرى انه لا يمكن لهذه العبارة، بما تحمله في ظاهرها من اعتبار الشريك الزوجيّ وسيلة لإخماد الشهوة، ان تنقل لنا جوهر موقف الرسول. أوليس هو الذي أكّد على كرامة الإنسان الفائقة - التي تتنافى كليًا مع احتمال اعتباره وسيلة - عندما أعلن مستندًا إلى كلام الله نفسه، ان ذلك الإنسان انما هو «هيكل الله الحيّ» (١ كو ٣:١٦ و١٧؛ ١ كو ٦:١٩؛ ٢ كو ٦:١٦)، وعندما أشار إلى أنّ المسيح لم يمت عن مجمل البشرية وحسب، بل عن كل انسان بمفرده أيضًا («... ابن الله الذي أحبّني وبذل نفسه عنّي» غلاطية ٢:٢٠)؟ أَوليس هو الذي علّم أن ما يُعاش في علاقة الزوجين انما هو علاقة المسيح والكنيسة، علمًا بأن هذه العلاقة الأخيرة علاقة حبّ خالص لا معنى فيها لتحويل موضوع الحبّ إلى أداة ووسيلة (راجع أفسس ٥:٢١-٣٣)؟ من هنا فانه لا يُعقَل أن يكون الرسول قد جعل من الشريك الزوجيّ مجرّد وسيلة، حتى إذا كان الغرض تجنّب الزنى، علمًا بأن جوهر الزنى هو بالضبط في اعتبار الآخر مجرّد وسيلة وليس شريكًا بالمعنى الكامل من الكلمة.

- هذا وان الإنسان، إذا اتخذ من أي إنسان آخر، وبنوع أخصّ من الذي يرتبط به برباط الزواج، مجرد أداة ووسيلة لتحقيق أغراضه، لا يسيءُ إلى هذا الآخر فحسب انما يسيءُ إلى ذاته أيضًا. فالانسان يحتاج فعلًا إلى أشياء كثيرة. يحتاج إلى طعام، يحتاج إلى لذة، يحتاج إلى أمان، يحتاج إلى مقام، يحتاج إلى مال يوفّر له هذه الأشياء كلها، يحتاج إلى حلول لمشاكله وانفراج لأزماته . . . ولكنه أحوج ما يكون إلى تحقيق **لقاء** بالإنسان الآخر يحرّره من سجن عزلته ويسمح للحياة بأن تتدفق فيه ويصله بالوجود قاطبة. من هنا، قالت حكمتنا الشعبية، وليدة خبرة الأجيال: «لاقيني ولا تطعميني». أي ماذا ينفع أن تطعمني إذا لم يتمّ اللقاء في ما بيننا؟ ما الفائدة من أن يصبح جوفي متخمًا إذا ما لبث قلبي خاويًا؟ ولكن هذا ينسحب لا على الطعام وحده بل على كل أشياء الدنيا ومِتَعها. فما الفائدة من أن تمنحني لذة أو أمانًا أو مقامًا أو حلولًا لمشاكلي، إذا بقيتُ وحدي، أعاني من مرارة غربتي؟ فقد يكون جسدي مُترَعًا بالملذّات ولكن قلبي يئن من الجوع، وكذلك قد يكون جيبي ممتلئًا ولكن قلبي فارغ معتم. وقد تكون مشاكلي المالية والعائلية والاجتماعية محلولة، ولكنني أعاني من مشكلة المشاكل، مشكلة عزلتي وخوائي. حياتي، عند ذاك، تفقد كل طعم وجدوى، أحيا وكأنني على هامش الحياة، «أعيش من قلة الموت» كما يقول تعبير لشعبنا. عند ذاك أتذكر عبارة الانجيل: «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر

حياته؟» (متى ١٦: ٢٢) وكلمته الأخرى: «انك تهتمّين وتضطربين بأمور كثيرة، وانما الحاجة إلى واحد» (لوقا ١٠: ٤١ و٤٢).

في أواسط الستينات، عندما قام الشباب، في المدن الأوروبية والأميركيّة، بانتفاضات عارمة هزّت أركان المجتمع (مثلًا انتفاضة أيار ١٩٦٨ في فرنسا)، كان من الأسباب الرئيسية لثورتهم ان مجتمعهم وفّر لهم قضاء حاجاتهم كلّها، قدّم لهم جميع أسباب البحبوحة والرخاء، ولكنه كان مجتمعًا يدين بالكسب ويسوده التسابق على المال والنفوذ والمقتنيات ولا مجال فيه للمشاركة بين البشر، ولذا أحسّه الشباب المنتفضون - وكان كثيرون منهم ينتمون إلى الفئات الميسورة - مجتمعًا خاليًا من المعنى، يُفرز السأم والاختناق، فلفظوه بعنف.

- مشكلة الإنسان إنه يلهي نفسه بأشياء وأشياء، بحاجات وحاجات - ومجتمع الاستهلاك يسايره ليستغلّه، فيوقظ فيه أبدًا حاجات جديدة(٧) - لينسى الأساسية، حاجته إلى اللقاء. إنه يشبه ذاك الذي يتهافت على الأطعمة محاولًا - عن وعي أو غير وعي - أن يملأ بها فراغ قلبه، أن يسدّ بها جوعه المعنوي إلى عاطفة يفتقدها. ولكنه لا يجد ضالته فيزداد اصرارًا في مسعاه العبثيّ دون أن ينال منه جدوى، إذ ان جسمه قد يُتخَم ويصاب بالسمنة ولكن قلبه المحبَط لا يزال يعوي من الجوع.

حتى مع الله يتصرف على هذا المنوال. يطالبه بأشياء وأشياء،

همّه الأساسي أن يسأله ما يسدّ به حاجته . التماسه المهووس لعطايا الله ينسيه وجه المعطي ويُسكت الصوت الهامس في أعماقه بأن لقاء هذا الوجه هو أمنيته المحوريّة : « أما أنا فبالبرّ أظهر أمام وجهك . وأشبع عندما يتجلّى لي مجدك » (مزمور ١٦ :١٥) ، « كما يشتاق الأيّل إلى ينابيع الماء الحيّ كذلك تشتاق نفسي إليك يا الله .» (مزمور ٤١ :١) .

– ولماذا يتناسى الانسان ، يا تُرى ، حاجته المحوريّة – أو قُل بالأحرى شوقه وتوقه ، لأن « الحاجة » تنطبق بالأحرى على الأشياء – ويحاول التلهّي عنها بحاجات وحاجات ؟ ذلك ان اللقاء عسير . اذ انه يفرض تحوّلًا جذريًّا في الموقف . فأنا **أمتلك** الأشياء ، أمتلك المال والمقام والأمان والطعام واللذة ، ولكنني لا **ألاقي** إلَّا شخصًا مثلي . ولكي يتسنى لي أن ألاقيه ينبغي أن أنظر إليه على انه **شخص** لا على انه **شيء** . لأنني ، إذا حوّلتُه إلى شيء لأمتلكه كالأشياء وأذيبه في ذاتي ، بقيتُ وحدي ، كما أبقى وحدي إذا ما اكتفيت بالحصول على طعام أو لذة أو مال أو أمان أو مقام . ولا يسعني أن أرى الآخر كشخص إلَّا إذا اعتبرته مهمًّا كما أنا مهمّ ، أي إزا أردته لا من أجل ما أنتظره منه وحسب ، من لذة أو أمان أو تخلّص من مشاكل وما شابه ذلك ، **بل من أجل نفسه أولًا** . أي إذا اعتبرت مصيره مهمّة كمصيري وسعادته مهمة كسعادتي ومنفعته مهمَّة كمنفعتي وانتعاشه مهمًا كانتعاشي . عند ذاك ، وعند ذاك فقط ، أي إذا لم أعد أطلب

الآخر من أجلي أنا وحسب، بل من أجله هو أيضًا، وبنفس الدرجة، تنشأ محبة أصيلة في ما بيننا: «أحبب قريبك **كنفسك**» (لوقا ١٠:٢٧ ولاويين ١٩:١٨)، «فكلّ ما أردتم أن يفعل الناس لكم، إفعلوه أنتم لهم» (متى ٧:١٢). إذ ذاك يتحرر كل منا من عزلته بلقاء الآخر. ولكن هذا يقتضي منّي اهتداء إلى الآخر لا ينتهي، خروجًا متواصلًا من ذاتي إليه لأجد في لقياه ذاتي الأصيلة الرحبة. هذا الاهتداء هو أيضًا الشرط الذي لا مناص منه ليتمّ، بين رجل وامرأة، لقاء حميم يجعل الزواج بينهما أصيلًا ومثمرًا.

خلاصة القول ان الزواج من شأنه بالفعل أن يلبّي حاجات متنوعة لدى من يقدم عليه، من جسدية ونفسية واجتماعية، مثلًا الحاجة إلى الاشباع الجنسيّ، الحاجة إلى الانجاب، الحاجة إلى الأمان والاستقلال والاستقرار والسلام، إلى ما هنالك. ولكن ذلك ليس بجوهره. انه، قبل كل شيء، توجّه صميم ونهائي إلى شخص آخر أقدّم اللقاء به على سائر حاجاتي، وأخضعها لهذا اللقاء[٨]، فيستقطبها ويضفي عليها معنى جديدًا ونكهة فريدة، ويحقّقها بأبهج وأبهى مما كنت أتصوّر. «الزواج سر الحبّ»، كما قال الذهبي الفم، والحبّ يتخطى الحاجة إلى اللقاء، ولكنه ينعكس على الحاجة فيهبها أكثر مما كانت تتمناه، على صورة ما وعد به الربّ: «أطلبوا أولًا ملكوت الله وبرّه وهذه كلّها تزاد لكم» (متى ٦:٣٣). ذلك ان الحب الأصيل إنما هو بدء الملكوت وتهجئته.

ثالثًا : كيف نواجه مشكلة الزواج المؤجَّل قسريًّا ؟[*]

السؤال المنطَلَق

« الزواج أصلح من التحرّق »

وضعنا الحاليّ (إمكانيات مادية وأزمة مسكن، افتقار وجود المرأة المتواضعة التي تقبل بالسكن مع الأهل) لا يمكّن الشاب من الزواج. فماذا بإمكانه أن يفعل، خاصة ان ليس هناك من مجالات لإشغال النفس بها سوى ملاهي القمار والدعارة والمخدرات والمقاهي، لاسيّما اننا نرى اليوم ان عدم حشمة المرأة والاعلانات تساهم أكثر فأكثر بإثارة هذا التصرف.

فما هي المقوّمات التي يجب إتباعها من قِبَل الأهل والكنيسة من أجل متابعة شبابنا ومن أجل خلق جيل حكيمٍ واعٍ ؟

○ لا يجوز، برأيي، اتخاذ العبارة « الزواج أصلح من التحرّق » قاعدة لبحث الموضوع. فهي، من جهة، كما سبق وأوضحنا

(*) بُحِثَ الموضوع جماعيًّا في لقاء ضمّ حوالي ٢٥ شخصًا، معظمهم من الشباب، في كنيسة مار يوحنا (طرابلس-الميناء)، مساء ١٩٩١/١١/١، برئاسة الشماس باسيليوس دبس. وقد انطلق الحوار من سؤال مفصَّل، أُثبتُه أعلاه، أعدْتُ طرحه على المجموعة بعد أن كنتُ تلقيتُه منها. أما مساهمتي الشخصية، فكانت عِبرَ مداخلات تخلَّلت الحوار، أُعيد صياغتها في النصّ المنشور هنا.

(راجع « أولًا » و« ثانيًا » من هذا الفصل) لا تعبّر عن جوهر فكر بولس . نم ان الانطلاق منها يفترض أن الرجل يتخذ امرأة بالزواج ليطفئ شهوته ، مما يعني ان الشهوة تبقى هكذا على فجاجتها – ولو سُترت بستر الزواج – أي انها لا تقيم وزنًا لأهمية الآخر بحدّ ذاته ، بل تتخذه مجرّد أداة لإشباعها ، مما يؤول إلى :

أ- تحويل الزواج إلى نوع من الدعارة المشروعة ، إلى نوع من الجواز الذي يمنح ترخيصًا بممارسة الجنس دون تحويله .

ب- فقدان الزواج للركيزة التي تضمن سلامته ، وهي اللقاء الصميم بين الشريكين .

ج- تهديد استمرارية الزواج ، لأن موضوع الشهوة يُستنفَد ، فيتحوّل الرجل عن امرأته (« تصبح عينه إلى الخارج » ، كما يُقال شعبيًا) ، أو على الأقل يهجر البيت إلى المقاهي وما شابه ذلك ، ويتفكّك الزواج فعليًا (وإن بقي مصونًا في الظاهر) فتتنغّص حياة الزوجين وتضطرب نفسية الأولاد .

○ الشهوة ، بحدّ ذاتها ، أمر طبيعيّ ومشروع (ولنسمّها « الرغبة » ، إن شئتم ، لأن كلمة « شهوة » قد تحمل معنى التبخيس والتحقير) ، انما ينبغي أن تُهذّب وتُلطَّف بالحنان فتتحوّل إلى ما يحيي الحبّ ويعطيه زخمًا وتوهّجًا . الحنان يضبط الشهوة ويؤمّن استمراريّتها بآن .

○ وإذا كان الزواج « سرّ الحبّ » ، كما يقول الذهبي الفم ، فينبغي بالتالي أن نعدّل كل منطلق السؤال الذي نحن بصدده . فلا نقول ان الرجل يتزوج من أجل إطفاء الشهوة . إنما هو يتزوّج - وهذا هو المعنى الانساني والانجيلي للزواج بآن - إذا ما أحب فتاة ووجدا كلاهما أن هذا الحبّ بلغ مرحلة نهائيّة يسمح لكلّ منهما بالمراهنة على ضمّ مصيره إلى مصير الآخر المحبوب . والحبّ الذي أعنيه ليس من الضروري أن يكون حبًّا رومانسيًّا مشبوبًا ، بل أن يجمع المقوّمات الثلاث التالية ، وهي مقوّمات الحب الأصيل الذي يمكنه أن يؤول إلى زواج : تجاوب على الصعيد الجنسيّ ، تجاوب على الصعيد العاطفي ، تجاوب على الصعيد الروحيّ (صعيد الأفكار والمواقف والتطلّعات والأهداف) .

○ فإذا ما اعتمدنا هذا المنطلق ، اتخذ مجمل الموضوع منحىً آخر . ذلك اننا ، إذا انطلقنا من ان القصد من الزواج هو قضاء الشهوة ، فقد ركّزنا على الشهوة ، وبالتالي فمن لا يسعه أن يقضيها فورًا بالطريقة « الشرعيّة » يفتش عن طرق بديلة عبر الدعارة والقمار والمخدّرات وما شابه ذلك . أما إذا انطلقنا من الحبّ ، فلا بدّ عند ذاك من السعي لتوفير المناخ الملائم لنشوئه ، الذي يُحقّق أيضًا الشروط السليمة لانتظاره . انه مناخ اللقاء الانسانيّ الأصيل والتعاون بين الجنسين . من العبث التفتيش عن لقاء كهذا في الأجواء الصاخبة التي تسود حفلات رقص وموسيقى يهيمن عليها الهاجس الجنسيّ وتتخذ من اذكاء الشهوة محورها وغايتها . انما اللقاء الأصيل الذي أتحدث عنه يحتاج إلى جوّ إنسانيّ وتربويّ سليم

يسمح للشاب والفتاة أن يتبادلا الأفكار والخبرات ، وان يعملا معًا ، وأن يجاهدا سوية من أجل قضية مشتركة تثير حماسهما وتستدعي إخلاصهما . في هذا المناخ يُتاح للشهوة أن « تتسامى » (بلغة التحليل النفسي) ، فيخفّ ضغطها وإلحاحها الغريزيّ بتحوّل طاقتها جزئيًّا إلى تغذية نشاطات إنسانيّة راقية ، من ثقافية واجتماعية وروحيّة . في هذا المناخ يكتشف الشاب في الفتاة لا مجرّد أنثى تثيره ، بل انسان قبل كل شيء ، قابل للتواصل البشريّ على كل الأصعدة ، وكذلك الأمر بالنسبة للفتاة ، فلا ترى فيه مجرد ذَكَر يوفّر لها ما تطمح إليه من استقرار وأمان ، بل انسانًا بالدرجة الأولى . أخيرًا ، ففي هذا المناخ قد ينشأ ، بين شاب وفتاة ، عبر التعارف والتعاون اليوميين ، حبّ مكتمل العناصر والأوصاف ، أي لقاء على كل المستويات . بالطبع قد يصطدم هذا الحب ، في الظروف الراهنة ، بعقبات تحول دون تحقيقه الفوريّ بالزواج وتضطر المعنيّين به إلى الانتظار فترة قد تطول . ولكن كونه حبًّا أصيلًا يخوّله أن يصنع ما يشبه المعجزات في مواجهة الصعوبات التي ذكرها السؤال الذي نحن بصدده :

أ- فالحبّ ، من جهة ، يلطّف الشهوة ويروّضها بالحُسنى ، ولذا فهو يسمح بتأجيل إشباعها دون أن يحصل « تحرّق » .

ب- من جهة أخرى ، فالحب يدعو إلى مواجهة العقبات التي تعترض الزواج بنظرة جديدة وبنّاءة . فلنَأخذ مثلًا قضية

السكَن . انها بالفعل عقدة كأداء . ليس لأن الفتاة التي ترفض السكن مع أهل الشاب هي « غير متواضعة » ، كما يوحي نصّ السؤال . فالمفهوم الحاليّ للزواج هو مفهوم الاستقلال عن الغطاء الأبوي (خلافًا لما كان يحصل في الماضي) وبناء أسرة مستقلّة تعبّر عن بلوغ الزوجين مرحلة الرشد وتتطلّب بالتالي سكنًا مستقلًّا يكرّس استقلالهما ويحميه . ومن الطبيعي ، بالتالي ، أن تريد الفتاة أن تتصرّف كراشدة وأن يسلك زوجها أيضًا على هذا المنوال . القضيّة ليست إذًا قضية عيب عند الفتاة ، بل قضية ظلم اجتماعي ينبغي مواجهته بتحرّك شعبيّ نضاليّ ينبغي أن نكون نحن من دعاته ويستهدف المطالبة بسياسة إسكانية تلبّي حاجات عامة الناس . انما يبقى أن كثيرين لا يقبلون بأن يُقدموا على الزواج إلّا إذا توفّرت لهم جميع وسائل الرفاهية ، وهذا ناتج ، باعتقادي ، من كونهم لا يرون في الحبّ الركيزة الأولى والأساسية للزواج . والفتاة هي عادة ، للأسف ، الأكثر تشدّدًا من حيث هذا الطلب ، لأنها ترى هي أيضًا في الزواج لا تعبيرًا عن الحبّ بالدرجة الأولى وتتويجًا له ، بل وسيلة لبلوغ الاستقرار والأمان والوجاهة الاجتماعية . أما إذا ساد الحبّ ، فهو كفيل بأن يجعل الشاب والفتاة يقنعان بالقليل (كما هي حال الكثير من

« كوبلات » الطلاب الجامعيين في الغرب) . ذلك لأن
الحب يبدو في نظرهما أهمّ من السكن الذي يضمُّه
والأثاث الذي يحتاج إليه ، فيرتضيان له في البداية مأوى
متواضعًا يطوّرانه لاحقًا نحو الأكمل والأفضل بجهاد
مشترك يستمدّ حوافزه من فرح عيشهما معًا .

ينبغي أن نكون دعاة توعية لسوانا انطلاقًا من هذه الطروحات .

* * *

هذه الأفكار ورد معظمها في مداخلاتي أثناء مناقشة الموضوع .
وقد ركّز الحاضرون – وهي فكرة استعدتُها – على ايجاد البدائل عن
أماكن اللهو المُفسد أو الرخيص ، وهي أماكن مفتوحة أمام الشباب
ليتعارفوا ويمارسوا نشاطات رياضيّة وثقافيّة وترفيهيّة . وجوابًا عن
سؤال ، أشرتُ إلى ان المسؤول عن إنجاز كل ذلك هو كل مؤسسة
أو فرد قادر على هذا الأمر ، من المنظمات الشبابية إلى مجلس
الرعية ، إلى تلك المجموعة التي تجتمع في كنيسة مار يوحنا التي
تمنّيت لو تقوم بمبادرة على هذا الصعيد .

الحواشي

(١) راجع:

Xavier LÉon-DUFOUR: Mariage et virginité selon saint Paul, p. 173, in Affectivité et vie spirituelle, "CRISTUS", Paris, nº 168 HS novembre 1995, P 171-185.

(٢) عن هذا التيار encratisme، راجع:

Jean - Claude GUILLEBAUD: La Tyrannie du plaisir, Ed. du Seuil, Paris 1998, P 173-177.

(٣) راجع: X. LÉon-DUFOUR: art. cit., P. 173.

(٤) راجع: X. Léon-Dufour: art. cit, P. 173-174.

(٥) راجع: J- CL. GUILLEBAUD: op. cit, P 174-175.

(٦) بهذا المعنى قال فيلسوف فرنسي معاصر: «أن أحبّ يعني أن أريد الآخر ذاتًا»

"Aimer c'est vouloir l'autre comme sujet" (Gabriel MADINIER).

(٧) راجع: كوستي بندلي: الايمان ومجتمع الاستهلاك، «الانجيل على دروب العصر»، ٢، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٢.

(٨) ما أبلغ هذه العبارات التي سمعت بطلة أحد الأفلام تقولها لزوجها: «لستُ أُحبّك لأنني أحتاج إليك، بل أحتاج إليك لأنني أحبّك»!

الفصل الثالث

ممارسة الجنس في إطار الزواج (١٩٨٩)

تقديم

دعت «الحركة العلمانيّة الرسولية»، وهي حركة ناشطة في أبرشية طرابلس المارونية، إلى ندوة حول الحب والجنس والزواج، عُقدت في الكرمليّة - القبة - طرابلس، في ١٤/٥/١٩٨٩. وقد طُلب مني الإجابة فيها عن أسئلة طرحها عليّ مسبقًا - بناءً على طلبي - أفراد من الذين كان متوقّعًا أن يؤلّفوا جمهور الندوة. توزّع حديثي، بوحي من هذه الأسئلة، على محاور متعدّدة، فتناولتُ على التوالي: طبيعة النزعة الجنسيّة عند الإنسان - الجنس والحبّ - الحبّ والزواج - مسألة العلاقات الجنسيّة قبل الزواج - ممارسة الجنس في الزواج.

وقد انطلق بحثي لهذه النقطة الأخيرة - التي اتُّخِذَت موضوعًا لهذا الفصل - من الأسئلة التالية، أُثبتها كما وردتني:

١- لو استطاع الناس السيطرة على حواسّهم وقهر شهواتهم، لأصبح معظمهم نسّاكًا وكهنة وبتولين. إذن: هل

الهدف في الزواج عند العديد من الناس : إطفاء الشهوة والمتعة الجنسيّة ؟

(٢٩ سنة . الثقافة : فلسفة)

٢- هل هناك علاقة جنسيّة شاذة بين الرجل والمرأة (طبعًا بعد الزواج) . هل هناك علاقة محدّدة مفروض أن تُطبّق بين الرجل والمرأة ؟ للتوضيح أكثر يُقال ان هناك أوضاعًا أو علاقة لا يمكن تجاوزها بين الرجل والمرأة . فهل لنا أن نعلم ما هي صحّة هذه العلاقة ؟

(٢٣ سنة. المستوى العلمي : ثانوي)

٣- هل العجز الجنسي يؤثّر على الحياة الزوجيّة ؟

(شابة . ٢٥ سنة)

٤- هل العجز الجنسي يؤثّر على استمرار الحياة الزوجية ، بالرغم من وجود الحبّ ؟ وهل لهذا العجز مبرّر لدى المحكمة الروحية يسمح بالطلاق ؟

(٢٤ سنة . شابة)

٥- هل تعتبر العلاقة الجنسيّة في إطار الزواج تعبيرًا عن الحب المتبادَل بين الزوجين أو واجبًا زوجيًّا ؟

٦- لقد رَسى في أعماق الباطن البشري أن الجنس مدنَّس بشكل أو بآخر وان الزواج يعفو عنه . وفي حالة أخرى يقول الرسول بولس : « إن أجسادكم هي هيكل الروح

التقدس. فمجّدوا الله اذن في أجسادكم». فهل نمجد الله بالزواج أو بالانعدام عنه؟

٧- الانجيل ونظرته إلى العلاقة الجنسيّة: هل هي للمتعة فقط أم للمشاركة في الخلق فقط؟ وإذا كانت للمشاركة في الخلق هل تستمر العلاقة بين ذكر وأنثى أحدهما غير قادر على الانجاب؟

١- ليس الزواج شرعنة لجنس «مدنَّس» (راجع السؤالين ١و٦)

ليس الجنس، في الأصل، شهوة «مدنَّسة» كان من الأفضل لو لم توجد أصلًا أو تخلّص المرء منها نهائيًا، ولكن، بما انها لا تُقهَر وبما ان لا بدّ منها لاستمرار النوع البشريّ، يأتي الزواج ليعطيها متنفّسًا شرعيًا، فيضبطها ويقيّدها ويسخّرها لعملية التناسل. هذا منظار ضيّق ومغلوط، يحقّر الجنس ويقزّمه، كما انه يفرغ الزواج من مضامينه الوجدانية ويجزّئ الانسان ويسجنه في دوّامة صراع عقيم، تضيع فيه إنسانيته، بين غريزة لم «تتأنسن» بعد، وشريعة فوقية، قمعيّة، ساحقة. كما ان هذا المنظار - ولو كان شائعًا بين المسيحيين - غريب بالفعل عن الانجيل ومناقض له، لأنه يتنكّر لصورة الله الكامنة في الانسان كلّه، بما في ذلك الطاقة الجنسية التي زرعها الخالق فيه، ويتجاهل عمليًا التجسد، الذي تعهّد الله به الانسان كله، بكافة قواه النفسية والجسدية.

لذا ، ولكي لا يُعتبر الزواج شرعنة لا بدّ منها لأمر مستهجَن بحدّ ذاته ، وهو موقف يبطنه الكثيرون ، للأسف ، فيعكّر صفو حياتهم الزوجية ويقيم غربة مصطنعة فادحة بينها وبين مسعاهم الإيمانيّ ، من أجل تفادي ذلك كلّه ينبغي استعادة الحلقة المفقودة بين الجنس والزواج ، ألا وهي (**الحبّ**). فبالحبّ يتحوّل الجنس نوعيًّا من مجرّد شهوة إلى تعبير عن الأصالة الإنسانيّة ، وترتقي النزوة إلى مستوى التواصل واللقاء . والزواج هو ، بالضبط ، المكان الطبيعي لهذا التحوّل وهذا الارتقاء ، لأنه ، في الأصل ، انما هو تكريس الحب والسير به إلى اكتماله . وإذا كان كل حبّ أصيل مكانًا يتجلّى فيه الله (الذي عرفنا بيسوع انه « محبّة ») ، يكون الزواج الأصيل « تمجيدًا لله » (بالعودة إلى عبارة طارح السؤال ٦ وإلى ما استشهد به من أقوال الرسول بولس) . ويكون الجنس الممارَس في إطار هذا الزواج مكانًا لحضور الله وبالتالي تمجيدًا له . أما أن نمجّد الله بالامتناع عن الزواج (وهو احتمال يطرحه نفس السؤال) ، فهذا ممكن أيضًا ومبرور ، شرط أن لا يكون هذا الامتناع من باب تحقير الجنس والزواج ، انما من باب التسامي بالطاقة الجنسيّة ، وتوظيفها بصورة غير عاديّة ، والسير بها ، بنعمة الله ، إلى ما يتجاوز كل تحقيق جسديّ لها ، في طريق حبّ أبعد وأشمل .

٢- المتعة الجنسية في الزواج إيجابية إذا اندرجت في المسعى اللقائي (راجع السؤالين ١ و٧).

العلاقة الجنسية في الزواج ليست إذًا المتعة غايتها الأساسية، وان كانت المتعة التي تمنحها تلك العلاقة أمر إيجابي ومشروع بحد ذاته، خلافًا لما يتصور الكثيرون، بشكل واعٍ أو غير واعٍ، نتيجة تربية قمعية تركت في نفوسهم خوفًا من كل لذة جنسية وتأثيمًا لها واشمئزازًا منها. ولكن هاجس المتعة، اذا طغى، يحكم على أحد الشريكين، أو على كليهما، بالانهماك بسعيه إلى لذته الذاتية، فيعتبر الآخر مجرّد وسيلة وأداة لاقتناص تلك اللذة، فيتعطّل من جرّاء ذلك اللقاء بينهما، ويُجهَض بالتالي المرمى الأخير لسعيهما الجنسي، الذي، إذا استقام هذا السعي ولم ينحرف عن قصده الإنساني الصميم، لا يمكن أن يكون سوى التواصل الحميم بين شخصين يحققان الحبّ في تلاحم جسديهما، المقترن بأقصى انتباه كل منهما إلى ذات الآخر. هذا التركيز على الآخر وعلى حضوره وإسعاده، ليس من شأنه، كما قد يُظنّ، أن ينتقص من المتعة، بل بالحري، أن يعطيها كل حجمها وأبعادها ونكهتها. وكأنما تخطّي السعي المهووس إلى اللذة الذاتية، يتيح لهذه الأخيرة فرصة أفضل للتوهّج والاكتمال.

٣- التواصل الزوجيّ يتقدّم على الانجاب (راجع السؤال ٧)

وكما ان الغاية الأساسية للاتصال الجنسي بين الزوجين ليست

المتعة بل التلاقي – الذي تشكّل المتعة المشتركة احدى مقوّماته الرئيسية – فانها ليست أيضًا « المشاركة في الخلق » ، إذا اعتبرنا ان تلك المشاركة تقتصر على الانجاب . ذلك ان العلاقة الشخصيّة الصحيحة التي يكرّسها الزواج والتي تترجمها العلاقة الجنسية ، لا يمكن اعتبارها مجرّد وسيلة لتخليد النوع (على أهمية هذا التخليد وما يتخذه من بعد إيماني من حيث هو مساهمة في بناء ملكوت الله) . وإلّا نكون قد تنكّرنا لكرامة الشخص الانساني المخلوق على صورة الله والذي لا يمكن بالتالي اعتباره وسيلة لأية غاية مهما سمت .

هذا وإن من يعود إلى رواية الخلق في سفر التكوين يجد ان وصية التناسل وتخليد النوع أُعطيت للأزواج الحيوانية والزوج الإنسانيّ على حدّ سواء (راجع تكوين ١:٢١ و٢٢ و٢٧ و٢٨) ، في حين ان خصوصية اتحاد الجنسين لدى الإنسان أوضحها النصّ الآتي :

« وقال الرب الاله : لا يحسن أن يكون الإنسان وحده فأصنع له عونًا بازائه (أي عونًا يتناسب وإيّاه) »

(تكوين ٢:١٨)

وذلك دون أية إشارة إلى التناسل . مما يعني ان الهدف الأساسي للزواج البشري في نظر الله ، انما هو أن يكون تواصلًا بين شخصين يصبحان به « جسدًا واحدًا » (تك ٢:٢٤) أي كيانًا انسانيًّا موحّدًا في تمايز قطبيه وتفاعلهما . الأهمّ إذًا من « المشاركة

في الخلق »، على خطورتها، هو أن يشارك الزوجان بحبّهما في الحبّ الإلهيّ، الذي يجمع أقانيم الثالوث في وحدة متمايزة، وأن يتخذا من علاقتهما الجنسية مكانًا لعيش ذلك الحبّ الذي يوقظه الله فيهما، والتعبير عنه وتوطيده. عند ذاك يصبحان تلقائيًا « مشاركَين في الخلق »، إذ، كما ان الحبّ الإلهيّ فاض عن الثالوث فأوجد الأكوان، هكذا يفيض حبّهما إنجابًا لكائنات جديدة تستدفئ به وتنمو وتترعرع برعايته. ولكن « مشاركتهما في الخلق » هذه لا تنحصر بالانجاب، فانها تتعدّاه إلى خلق كلّ منهما للآخر بحبّهما المتبادَل، وإلى ما يستمدانه من حبّهما من طاقات يوظّفانها في خدمة محيية يقدّمانها للكنيسة والمجتمع في شتّى الميادين. من هنا ان الزوجين اللذين حُرما من نعمة الإنجاب، لا يفقد مع ذلك زواجهما مبرّره، ولا داعي بالتالي لانقطاع العلاقة الجنسيّة بينهما، كما ان مجال الخلق لا يزال مفتوحًا أمام حبّهما وإن كان في غير ميدان الإنجاب.

٤ـ العلاقة الجنسيّة لغة الحبّ الزوجيّ وتربطها به صلة جدَليّة (راجع السؤال ٥)

العلاقة الجنسيّة في الزواج هي إذًا، قبل كل شيء وفي الأساس، « تعبير عن الحبّ المتبادَل بين الزوجين » (وهي عبارة وردت في السؤال ٥) وسعي إلى تحقيقه عبر لقاء الأجساد. انها لغة الحب المميَّزة التي تتعدى لغة الكلام وتحاول أن تعبّر عما يعجز الكلام عن التعبير عنه. وكما ان الكلام لا ينقل الفكر وحسب،

بل يسمح للفكر بأن يتبلور ويكتمل، هكذا فالعلاقة الجنسية تعبّر عن الحب الزوجيّ وتبنيه بآن. من هنا أهميتها البالغة في تنمية الحبّ الزوجيّ وتوطيده ومساعدته على تجاوز العوائق والصعوبات التي تعترض الحياة المشتركة. ولكن العلاقة بين الحب الزوجي والعلاقة الجنسية التي تترجمه، جدليّة كعلاقة الفكر بالكلام. فكما ان الكلام يبلور الفكر ولكنه بالمقابل يستمدّ غناه من تحفّز الفكر وتوثّبه، كذلك فالعلاقة الجنسيّة عنصر أساسي لتغذية الحبّ الزوجيّ ولكنها، بالمقابل، تحتاج، كي تكون ناجحة منعشة وكي لا تتحوّل إلى روتين مملّ أو مجرّد تنفيس دوريّ عن ضغط الغريزة، إلى حبّ زوجيّ دائم التجدّد ودائم الابتكار.

٥- خطر اعتبار هذه العلاقة «واجبًا زوجيًّا» (راجع السؤال ٥)

هذا وان العلاقة الجنسية في الزواج، لا يحسن، برأيي، تسميتها بـ«الواجب الزوجيّ»، ذلك ان «الواجب»، بمعناه الشائع، يوحي بالاضطرار، بإذعان الإنسان لفريضة قد لا يكون متجاوبًا معها في الصميم. ولكن العلاقة الجنسية الناجحة هي التي يهب الإنسان نفسه فيها تلقائيًّا للآخر وينفتح إليه بكل جوارحه. فكيف يمكن أن يتمّ ذلك عن اضطرار وبفعل المجهود الإراديّ وحده؟ ثم ان إطلاق عبارة «الواجب الزوجيّ» على العلاقة الجنسيّة الزوجية، يوحي بأن لكل من الزوجين الحقّ بأن يطالب الآخر بها (علمًا بأن الرجل يستأثر عادة بهذا «الحقّ»)، باسم

« العقد الزوجيّ » الذي يربط بينهما ، وذلك أيًا كانت مشاعر هذا الأخير ورغباته واستعداداته الذاتية ، وأيًّا كانت حالة العلاقة الوجدانية الراهنة بين الطرفين. فهل يمكن أن تؤول العلاقة الجنسيّة ، إذا ما مورست على هذا المنوال ، إلى لقاء حقيقيّ صميم؟ ألا تتحوّل بالعكس إلى اقتحام؟ ألا تنحرف إلى نوع من الاغتصاب الشرعيّ؟

٦- هل من شكل مفروض للعلاقة الجنسية الزوجية؟ (راجع السؤال ٢)

هناك سؤال عن الشكل الذي ينبغي أن تتخذه العلاقة الجنسية الزوجية ، وهل أن هناك أوضاعًا جسدية محدّدة ينبغي لتلك العلاقة أن تتقيد بها وإلّا اعتُبرت شاذة. رأيي أن لا قاعدة في هذا المجال سوى قاعدة الحبّ. فكلّ ما يعبّر عن الحب وينمّيه ، مقبول بهذا الصدد. انما ينبغي التنبّه إلى أن الحبّ ، بمعناه الأصيل ، يقتضي لا الانقياد وراء مزاجيّتي ، بل الانفتاح إلى أبعد حدّ إلى مشاعر الآخر وخصائصه النفسيّة واستعداداته الذاتية ، وأخذ مواضع الرغبة ومواضع النفور عنده على محمل الجدّ. فإذا تمّ انفتاح كلّ من الشريكين على الآخر ، صار بالإمكان أن يتفاعل كلّ منهما مع الآخر وأن يتغيّرا كلاهما بفعل هذا التفاعل بحيث يقبلان معًا بتبديلات في أوضاعهما الجنسية تُرضي الطرفين وتضفي على جماعهما نكهة جديدة يستفيد منها الحبّ في آخر المطاف.

٧- الحياة الزوجية ومشكلة العجز الجنسيّ (راجع السؤالين ٣ و٤)

هناك سؤالان حول العجز الجنسيّ وتأثيره على الحياة الزوجيّة. والعجز الجنسيّ نوعان: الأول - وهو المقصود عادة بهذه العبارة - هو «العفّة» الجنسيّة لدى الرجل، أي عجزه الجزئي أو الكامل عن القيام بعملية الولوج الجنسي أثناء الجماع، لضعف في انتصاب القضيب أو قذف مبكّر. والنوع الثاني - وقد يكون أكثر انتشارًا بكثير - هو البرودة الجنسيّة لدى المرأة، أي عدم قدرتها على بلوغ المتعة الجنسيّة أثناء الجماع. العجز الجنسي، بنوعيه، يعطّل العلاقة الجنسية، وبالتالي يحرم الحبّ الزوجيّ من أحد العناصر الرئيسية للتعبير عنه وتغذيته. من هنا انه محنة تعترض الحياة الزوجية، لا بدّ من إيلائها كل الاهتمام الذي تستحقّه والتعامل معها بوعي وجدّية، حفاظًا على الانسجام الزوجيّ الذي تهدّده.

ولا بدّ من الإشارة بهذا الصدد إلى أن الحبّ، إذا كان بالفعل قائمًا بين الزوجين، فهو حريّ بأن يمنحهما أفضل الشروط لمواجهة هذه المحنة معًا بشكل فعّال. ذلك ان العجز الجنسيّ، في أكثر الحالات، يعود لعوامل نفسية قد تمتدّ جذورها إلى نشأة المرء وتأثير التربية عليه وما عاناه من مآزم في أطوار عمره. ولكنها تتأثر أيضًا إلى حدّ كبير بنوعية العلاقة التي تربطه بزوجه وبعناصر الخلل التي قد تشوب هذه العلاقة بالرغم من الحبّ الذي يجمع الزوجين. فقد يكون لدى الرجل خوف دفين من المرأة قد يعود أصله إلى علاقة

آسرة بأمّه، ممّا يؤول إلى تهيّب العلاقة الجنسية خشية عدم التمكّن من إثبات رجولته أمام شريكته، خاصّة إذا كانت هذه الأخيرة، ربما عن غير قصد، تغذّي شكّه بنفسه في سياق حياتهما المشتركة. هكذا يشلّ الخوف من الفشل قدرته الجنسيّة أثناء الجماع، فيُصاب بالعجز، ويغذي هذا العجز بدوره شكّه برجولته، وهكذا دواليك. وقد تعبّر المرأة بالبرودة الجنسيّة عن رفضها لدورها الأنثوي، بسبب ما يثيره هذا الدور فيها من نفور نتيجةً لما عانت منه كأنثى من دونيّة في أسرتها وفي المجتمع، وبداعي الاحتجاج على ما قد يعاملها به زوجها من دونيّة، دون وعي منه ربّما، ورغم حبه الصادق لها، بفعل موقعه كذَكَر.

ان انفتاح الزوجين أَحدهما على الآخر والانتباه إلى حاجاته ومراعاة مشاعره وإحاطته بالحنان والاهتمام، إضافة إلى حصر العلاقة الجنسية بينهما، لفترة معيّنة، بالحضور الحبّي أحدهما للآخر عبر مختلف تعابير الملاطفة، من جسدية وغيرها، انما دون محاولة القيام بجماع، كل ذلك من شأنه أن يزيل تدريجيًّا التوتّر بينهما وأن يؤول بالتالي إلى زوال العجز الجنسيّ. أمّا إذا لم ينجحا بوسائلهما الخاصة هذه في التغلّب عليه، فيبقى أمامهما اللجوء إلى الارشاد الزوجيّ أو الارشاد الجنسي اللذين أتمنى أن ينتشرا في بلدنا كما انتشرا في غيرها، واللذين هما قادران حاليًّا على معالجة حالات العجز الجنسي بشكل رصين وفعّال (وقد بلغت مثلًا نسبة النجاح الذي أحرزه الأخصائيان الجنسيّان الأميركيّان الشهيران وليم ماسترز وفيرجينيا جونسون، في هذا المجال، ثمانين بالمئة).

أما الطلاق فانه ، في معتقدي ومعتقد كنيستي الأرثوذكسية ، لا يرد إلّا إذا مات الحبّ ولم يعد يبدو أي أمل بشريّ ببعثه ، وإذا تحوّل الزواج بالتالي ، وهو « سرّ الحبّ » كما حدّده الذهبي الفم ، إلى قالب فارغ وإطار لا مضمون له . الكنيسة ، عند ذاك ، لا تبطل الزواج ولكنها تلاحظ بطلانه الفعلي وتحوّله من رباط محيي إلى نير ساحق ، فتحرّر الزوجين من هذا النير رحمة بهما وبقصد اتاحة فرصة جديدة أمامهما .

القسم الثالث

عناصر نظرة شاملة إلى الجنس

تقديم

هذا القسم يعرض عناصر نظرة شاملة إلى الجنس، يتضافر فيها - أو هكذا حاولنا أن يكون - البعدان الإنسانيّ والإيمانيّ. وقد ألهمت هذه النظرة، بالطبع، فصول القسمين السابقين، لكنها تُبسط هنا بمزيد من التركيز، نتناول به طبيعة الجنس وديناميّته وآفاقه. قد يبدو غريبًا لأول وهلة أن نتطرّق، في حديثنا عن آفاق الجنس، إلى البتوليّة المكرَّسة، التي نُفرد لها الفصل الرابع بأكمله وجزءًا لا بأس به من الفصل الثالث. ولكن الاستغراب يزول إذا فَطِنْنا إلى أمر سوف نجتهد في تبيانه، وهو ان البتولية المكرَّسة ليست نفيًا للجنس، كما قد يترائى، ولكنها، إذا استقامت، تندرج في سياقه لتمضي به، عبر تجاوز تعابيره المألوفة، إلى محجّة حبّ أكبر يبلغ به الجنس أسمى معانيه.

يتوزّع القسم الثالث إلى أربعة فصول:

١- الجنس والجسد (١٩٧٢)

٢- الجنس في ضوء الكتاب المقدّس (١٩٨٤)

٣- الجنس في آفاقه الانسانيّة والروحية (١٩٩٢)

٤- عفة يسوع : بلادة أم نار؟ (١٩٨١)

الفصل الأول : الجنس والجسد (١٩٧٢)

تقديم

أستعيد هنا نص حديث ألقيتُه في ٦ أيلول ١٩٧٢، في مؤتمر مسكونيّ للشباب ، عُقد في « بيت السلام » - العجمي- الاسكندريّة (مصر) .

أوّلًا : المفهوم الحديث للجسد

لا بدّ لي أن أبدأ حديثي بالتنويه بالمفهوم الذي يتخذه الجسد في الفكر الحديث . ذلك المفهوم بعيد ، كما يبدو لي ، عن كلّ من موقفين متناقضين طالما تجاذبا الفكر الفلسفيّ ، ألا وهما الثنائية dualisme من جهة ، والأحدية monisme من جهة أخرى . فالمنظار الثنائي ، الذي تميّزت به الأفلاطونيّة وجدّده ديكارت ، كان يفصم بين الجسد والنفس ، جاعلًا منهما كيانين مستقلّين مع انهما متعايشان . أما المنظار الأحدي ، فكثيرًا ما ادّعى ، بلسان فلاسفة القرن الثامن عشر المادّيين مثلًا ، أن النفس إنما هي مجرّد مظهر من مظاهر الجسد . أما الفكر الحديث فانه ، حتى في التيارات المادّية منه ، يتنكّر لذلك الخلط بين الصعيد البيولوجيّ والصعيد النفسيّ في الانسان ، فيقول المفكّر المادّي جاك مونو Monod مثلًا ، وهو حامل

جائزة نوبل في البيولوجيا، في كتابه الشهير «الصدفة والضرورة»: «ان مفهوم الدماغ ومفهوم النفس لا يختلطان في خبرتنا الحالية، بمقدار عدم اختلاطهما في نظر أناس القرن السابع عشر» (ص ١٧٣). ولكن الفكر الحديث، من جهة أخرى، وحتى في تياراته الروحانية، يتنكّر للانفصام الذي طالما نودي به بين الصعيدين المذكورَين، بل يشدّد على وحدة الكيان الانسانيّ، وحدة «الروح المتجسّدة» esprit incarné أو «الجسد المرَوْحَن» corps animé، وحدة لا اختلاط فيها ولا انفصام.

فما هي، والحالة هذه، نظرة الفكر الحديث إلى الجسد؟ لقد بيّن الفيلسوف المعاصر موريس مارلو - بونتي Merleau-Ponty في كتابه «ظواهرية الادراك الحسّيّ» Phénoménologie de la perception، أن الجسد الذي نختبره في وجودنا الراهن، أو بعبارة أخرى «الجسد المعاش» Le corps vécu، مختلف عن ذلك الكيان البيولوجيّ البحت الذي يدرسه الطبيب أو عالِم الأحياء، والذي إن هو إلّا مجموعة أعضاء ووظائف متناسقة. هذا الكيان البيولوجي المحض هو وليد التجريد الذي يقتطع بموجبه كل علم دائرة اختصاصه، فاصلًا ما ينتمي إلى هذه الدائرة عما قد يرتبط به صميميًّا في الواقع الراهن. عالِم الاحياء، بداعي اختصاصه، مضطرّ أن ينظر إلى الجسد كما إلى مجموعة أعضاء ووظائف ليس إلّا، ولكنه يختبر جسده وجسد الآخرين على وجه آخر بالكلّيّة، اذ يحسّه مرتبطًا في الصميم بالوجود الانسانيّ كلّه، ارتباط الأصوات اللفظية بالمعاني التي تحملها. فقلبه مثلًا ليس مجرّد

مضخّة تتلقّى الدم وتطلقه في الدورة الدموية، انما هو كيان ينبض بالمشاعر والانفعالات، وعينه ليست مجرّد آلة فوتوغرافيّة دقيقة لالتقاط الصور، انما ألحاظها تناجي الحبيب، وهكذا دواليك.

هكذا فالجسد الذي نعيشه لا ينحصر في ما يصوّره لنا علم التشريح وعلم الفيزيولوجيا، انما يظهر على انه المكان الحسّي الذي يتجذّر فيه الشخص ويصبح به حاضرًا وعاملًا في الكون وبين الآخرين. بهذا المعنى يقول ابال جانيير Abel Jeannière في كتابه «انتروبولوجيا جنسيّة»: «جسدي ليس شيئًا من الأشياء، انما هو وضع» (ص ١٢٢). إنه بالفعل وضعي الراهن، الحسّيّ، في الكون، وضعي في الزمان والمكان، في هذه أو تلك من الظروف البيولوجية والجغرافية والتاريخية والإجتماعية وغيرها. إنني هذا الوضع، بمعنى من المعاني، اذ لا يسعني أن أتجرّد منه، ولكنني بآن متميّز عنه لأن بمقدوري أن أعيه وأتعهّده وأوجّهه وأطوّره.

فإذا فهمنا الجسد على هذا المنوال، أي على انه وضع الشخص الراهن، في الكون وبين الآخرين، أصبحت عبارة «الجسد» مرادفة، كما هي في لغة الكتاب (مثلًا عندما يقول: «سيعاين كل **جسد** خلاص الله»: أشعيا ٤٠:٥ ولوقا ٣:٦)، لواقع حياتنا المحسوس، بكلّ ما في هذا الواقع من أبعاد بدنية بيولوجية، ونفسيّة، واجتماعيّة، وروحية، تتفاعل معًا في وحدة كيانيّة صميمة، تلك الوحدة التي تفرض ذاتها لا على الفكر الحديث وحسب، بل على الطب المعاصر أيضًا، اذ أنه يؤكّد، في نزعته النفسجسدية psychosomatique المتعاظمة، على التداخل والتفاعل

الصميمَين بين العوامل البدنية البيولوجية من جهة ، والعوامل النفسية من جهة أخرى .

والآن ، حان لنا أن نتساءل ما هي العلاقة القائمة بين الجنس والجسد بمفهومه الذي أوضحناه .

ثانيًا : إرتباط الجنس بالجسد

الجنس مرتكز في الجسم البيولوجيّ ، ولكنه مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالجسد بمفهومه العام ، يؤثّر فيه ويتأثّر به .

١- إنه مرتكز في الجسم البيولوجيّ

فالجسم البيولوجي يحمل طابع الجنس في تكوينه العام . فالذَكَر والأنثى لا يختلفان فقط من جهة أعضائهما التناسليّة ، بل بكل تلك الميزات التشريحية التي تُعرف بال« صفات الجنسيّة الثانوية » والتي تطبع تركيب الجسم ككلّ . لا بل أن ارتباط الجنس بالجسد البيولوجيّ يتجلى بشكل أعمق في كون خلايا الجسم كلّها تحمل طابع الجنس في بنية نواتها . ففي نواة كل خلية من خلايا الذَكَر الانسانيّ يوجد ، كما هو معلوم ، ٢٢ زوجًا من الصبغيّات chromosomes، يضاف إليها صبغيّتان جنسيّتان مختلفتان إحداهما عن الأخرى ، الصبغيّتان x و y؛ في حين انه يوجد لدى الأنثى الانسانيّة ٢٢ زوجًا من الصبغيّات ، يضاف إليها صبغيّتان جنسيّتان متماثلتان x و x. أضف إلى ذلك أن الجنس مرتبط ارتباطًا وثيقًا بعوامل هرمونية ، وخاصّة بما تفرزه الغدد الجنسية في الدم من

هرمونات تحدّد، إلى حد بعيد، أوان نضج الجنس ومدى حيويته وسيرَ وظائفه المختلفة، كما انها، بتأثيرها على المراكز العصبية القائمة في أسفل الدماغ (وخاصّة «تحتَ المِهاد» hypothalamus و«مسيخ الأنف» rhinencéphale)، توقظ الأحاسيس والرغائب الجنسيّة وتدفع إلى السلوك الجنسيّ.

هكذا فالجنس يجد مرتكزه في التكوين البيولوجي نفسه، وذلك ليس في الأعضاء التناسلية فحسب، بل في تركيب الخلايا وبنية الجسد والافرازات الهرمونيّة وتحسّس المراكز العصبيّة لهذه الإفرازات. ولكن ارتباطه لا ينحصر بتلك العوامل البيولوجية، انما يتعدّاها إلى ارتباط بالجسد ككلّ، بالجسد بمعناه الواسع الذي أشرنا إليه.

٢- الجنس مرتبط بالجسد ككلّ

الجنس مرتبط بالجسد ككلّ، أي بواقع الحياة البشريّة المحسوس، لأنه يؤثّر فيه عميقًا ويتأثّر به، بالمقابل، تأثّرًا بالغًا.

فمن جهة، لا بدّ من الإشارة إلى ان للجنس دورًا محوريًّا في واقعنا الراهن، دورًا يتعدّى الممارسة الجنسيّة بمعناها المحصور، على أهميتها في حياة الإنسان. ذلك أن الطابع الجنسيّ الذي رأيناه يطبع التكوين البيولوجيّ حتى في أدقّ عناصره، يتعدّى هذا التكوين ليشمل، من خلاله، السلوك الإنساني بجملته. فهناك نمط وجود وأسلوب تصرّف يتميّز به الجنسان سواءً على صعيد الفكر، أو الشعور، أو المواقف والعمل، وبعبارة أخرى فهناك نمط ذكوريّ

للوجود ونمط أنثوي للوجود، يختلفان، ليس بتأثير العوامل الاجتماعية وحسب، رغم أهميتها البالغة في هذا المضمار، بل بتأثير العامل الجنسي البيولوجي أيضًا. ثم إن من أهمّ ما بيّنه فرويد ومدرسته، هو ان الجنس، ليس بمعناه التناسليّ génital المحصور (وقد أكّد فرويد على التمايز بين ما هو جنسيّ بالمعنى العام sexuel وما هو تناسليّ بمعنى محدود génital، انما لم يُحسَن دائمًا فهمه)، بل بمعناه الأوسع، أي من حيث انه نزعة أساسية إلى اللذة والاندماج، ترتبط بالتناسل وتتجاوزه بآن، من حيث هو شوق وحنين إلى التواصل والانصِهار (Eros)، وبعبارة واحدة من حيث هو «نزوة الحياة» pulsion de vie، انما هو حاضر وفاعل كمحرّك للنشاطات البشرية قاطبة، من جنسية بالمعنى المعروف وعاطفية واجتماعية وفكرية وفنية وروحية، وذلك انطلاقًا من ذلك التكوين الجنسيّ البيولوجيّ الذي تنبع منه طاقته التي سمّاها فرويد libido وهو ما يمكن ترجمته بـ«طاقة الحب الغريزية».

وإذا كان الجنس يطبع، كما رأينا، الكيان البشري بكلّيته، فانه، بدوره، يتأثر بهذا الكيان تأثّرًا عميقًا. فالجنس، عند الانسان، وإن كان يرتكز إلى عوامل بيولوجية، الا انه يحمل طابع الشخص ككلّ. انه، كما قيل، ليس جنسًا بيولوجيًا بحتًا، بل «جنسًا نفسيًا» على حد تعبير الدكتور شوشار Chauchard، أو بعبارة أصحّ «نفسيًا اجتماعيًا». فالعوامل النفسية والاجتماعية تحدّد، إلى حدّ بعيد، مصير الجنس عند الانسان. هذا ما تثبته ملاحظات علميّة عديدة. منها ان الميل الجنسيّ لدى الإنسان متحرّر

إلى حدّ كبير من الإيقاع الهورموني الذي يتحكّم به عند الحيوان ، ومما يؤكد ذلك كون الرغبة الجنسيّة عند أنثى الانسانية غير مقيّدة بأزمنة الخصوبة ، كما هي الحال عامة عند أنثى الحيوان ، بل قد تكون حادّة في حقبات عقم ، سواء في الدورة الشهريّة أو أثناء الحَمَل أو في فترة الإياس ménopause. ومنها أيضًا ان الجنس العضوي لا ينسجم دائمًا مع الجنس النفسي ، فقد تكون للذكر ميول أنثوية والعكس بالعكس ، دون أن يكون لذلك في معظم الحالات أسباب عضوية تُذكَر ، من باب اضطراب في إفراز الهورمونات الجنسيّة وما شاكل ذلك ، بل أسباب نفسية عائدة إلى تاريخ الفرد ونوعية علاقاته في فترة الطفولة . ومنها أخيرًا ان حالات العجز الجنسي لدى الرجل والبرودة الجنسيّة لدى المرأة تعود ، في أكثر الأحيان ، لا إلى خلل عضويّ ، بل إلى اضطرابات نفسيّة متفاوتة العمق . هذا ويمكننا القول ان السلوك الجنسي عند الانسان هو من أدقّ المقاييس لاتزانه وانشراحه الشخصيّين ولسلامة العلاقات النفسيّة التي تربطه بالانسان الآخر بشكل عام .

هكذا تُظهر لنا دراسة الجنس ، بنوع متميّز ، تلك الوحدة الكيانيّة « النفسجسديّة » التي يتميّز بها « الجسد » بمفهومه الوجوديّ العام ، تلك الوحدة ذات الأبعاد المختلفة المترابطة . في تلك الوحدة الجسدية الحية يشغل الجنس مركزًا مرموقًا ، كما رأينا ، لأنه قاعدة الكيان من جهة ، ومرآة له من جهة أخرى . لذا جاز لنا ، إذا تحدّثنا عن الجسد بمفهومه الشامل ، أن ندعوه « جسدًا جنسيًا » ، بالنسبة إلى أهمية الجنس كمصدر لحيويّته ومعبّر عنها .

من هنا ننطلق إلى تساؤل جديد . ما هي المواقف التي يمكن للجسد ، لهذا « **الجسد الجنسي** » (corps sexué) كما وصفناه ، أن يتخذها من الوجود عامة ؟

ثالثًا : موقفا « الجسد الجنسي » من الوجود

« الجسد المعاش » ، ببعده الجنسيّ الأساسي ، قابل لاتّخاذ موقفين :

١ـ موقف الانغلاق

في هذا الموقف ، يكون الجسد منهمكًا بقضاء حاجاته الخاصة ليس إلّا ، بازالة التوتّرات النفسيّة والجسدية التي تنشأ فيه ، فلا ينظر إلى الكون وإلى الآخرين الا من خلال هذه الحاجات وبالإضافة اليها . هذا يعني ، على الصعيد الجنسيّ ، ان الآخر يُعتبر مجرّد شيء يُستهلَك أو يمتلَك من أجل إزالة توتّر وبلوغ متعة ، دون إقامة وزن لفرادته ، بل باعتباره قابلًا للاستبدال بآخر من شأنه أن يتيح الاشباع عينه أو مزيدًا منه . جسد الآخر ، في هذا المنظار ، يُجَرَّد من بعده الشخصيّ ، يُشَيَّئ وبالتالي يُفرَغ من غنى الحضور الانساني الذي يتجلّى فيه . لا بل يُبتَر هذا الجسد باختزاله في إحدى وظائفه وحصره فيها . جسد الآخر هو في نظر المجون عضو تناسليّ وما يمتّ إلى هذا العضو بصلة ، كما أن جسد الأم هو بالنسبة للطفل الرضيع ، في أول عمره ، ثُدي ليس إلّا ، « موضوع جزئي » objet partiel كما يقول المحلّلون النفسيّون ، أي موضوع لم يكتمل

ليصبح شخصًا بكل معنى الكلمة في نظر المتعامل معه ، لأن هذا الأخير يقتطع منه ما يناسب حاجته الراهنة وحسب .

٢- موقف الانفتاح

في هذا الموقف يتخطّى الجسد هاجس إزالة توتّراته الذاتية ، ليتصل بما هو خارج عنه ويقيم علاقة حقيقية به تتعدّى التملّك أو الاستهلاك . همّه ، والحالة هذه ، لا أن يردّ الآخر إلى ذاته ليذيبه فيها كما تُدمَج الأطعمة بالجسد الذي يستهلكها ، بل أن يقيمه في الوجود ، أن يعترف بكيانه المتميّز ، المستقلّ ، وبالتالي أن يتجاوز ذاته للقائه . عندئذ يصبح الآخر في نظره لا شيئًا بل شخصًا فريدًا ، لا مجرّد متعة بل شريكًا في المتعة ، لا وسيلة بل غاية ، لا ملهاة بل مسؤوليّة . عند ذاك يتّخذ جسد الآخر كلّ أبعاده ويصبح مكان حضوره الشخصيّ ، هذا الحضور الذي يعبّر عنه **الوجه** الانسانيّ بشكل مميّز[١] . من هذا القبيل ينبغي أن نفهم تلك العبارة البليغة التي سمعتُ شخصًا ينقلها عن صديق له كان متهتّكًا ثم أتيح له اكتشاف المرأة كشخص عندما عرف الحبّ ، فقال : « حتى الآن ، لم أكن أعرف سوى أجساد ، أما هذه المرة فقد وجدتُ وجهًا » .

هذان الموقفان يتجاذبان حكمًا « الجسد الجنسيّ » فيسم تواجدهما السلوك الجنسي بالتناقض والالتباس . هناك توتّر قائم لا محالة بين عنصر الكثافة وعنصر الشفافية ، بين التقوقع والمشاركة ، بين « الحاجة » ، التي تغرق وتذيب كلّ شيء في الجسد الذاتي ، و« الرغبة » ، التي همّها أن تجمع ، دون اختلاط ،

جسدين يتجاوز كل منهما ذاته في اتجاه الآخر (هذا الازدواج بين « الحاجة » و« الرغبة » ، يقيمه المحلل النفسي دنيس ڤاس Denis Vasse في كتابه : « زمن الرغبة » Le temps du désir) . تغلّب أحد هذين العنصرين المتواجدَين والمتعارضَين ، على الآخر ، هذا ما يحدّد مصير المسعى الجنسيّ الانسانيّ .

رابعًا : فشل « الجسد الجنسيّ » المغلَق

فـ« الجسد الجنسيّ » عند الإنسان ، إذا سعى إلى جسد جنسيّ آخر ، مقابل ومضادٌ له ، انما يسعى ، في آخر المطاف ، إلى وحدة في التكامل . هذه الوحدة المرجوّة ليست مجرّد اتّصال عضوين متكاملين – كما هي الحال عند الحيوان – فهذا ليس بوحدة ، انما هو مجرّد احتكاك خارجيّ . الوحدة المرجوّة انما هي أعمق من ذلك بكثير ، لأنها اتصال بين كيانين شخصيين من خلال أعضائهما .

ذلك ان الإنسان وحده يعي ذاته ككائن متميّز – لذا فهو وحده شخص – وبالتالي فهو وحده يحسّ ، بآن ، بعزلته وبرغبته في تخطّي هذه العزلة بملاقاة كائن آخر . ولكن هذا اللقاء يفترض تخطّيًا للذات إلى ذات أخرى . فالشيء لا يلاقى بالحقيقة ، انما يُستهلَك أو يُمتلك ، مبقيًا مستهلكه ومالكه على عزلته . لذا فان « الجسد الجنسيّ » ، إذا انغلق على حاجته ولذّته ، ولم ينظر إلى الآخر إلَّا من خلالهما ، وحوّله بالتالي إلى شيء ، فهو فاشل لا محالة في مسعاه اللقائي وسائر نحو خيبة لا مناص منها ، خيبة تُعاش في الجسد ، أي انها تصيب الخبرة الجنسيّة ككلّ .

فالاستمناء، كما هو معلوم، لا يمنح سوى لذة يكتنفها الفراغ: لأنه يسعى إلى إزالة توتّر بمعزل عن الآخر (الذي يقتصر حضوره على الخيال في أفضل الاحتمالات). ولكن الكثير من الاتصالات الجنسيّة لا تتعدّى كونها نوعًا من «الاستمناء المزدوج»، اذ يعتبر فيها أحد الشريكين أو كلاهما أن الآخر مجرّد ذريعة للذّته، «فيضاجع فيها المرء ذاته» بالواقع (على حد تعبير أندريه مالرو Malraux، متحدّثًا عن أحد أبطال رواياته)، يتعشق ذاته كنرجس الأسطورة، فلا يجني من ذلك سوى لذة قد تكون حادّة ولكنها سطحية لا تولّد إشباعًا عميقًا وطمأنينة وانشراحًا، بل تخلّف شعورًا بالفراغ يثير القلق ويدعو بالمقابل إلى الاكثار من العمل الجنسي، لعلّ الإكثار منه أو التفنن الآليّ في ممارسته يسمحان ببلوغ السعادة المنشودة. ولكن هذه تبقى سرابًا يتوارى أبدًا، لأن الإكثار الكمّي أو الإحكام التقني في العمل الجنسي عاجزان عن التعويض عن النقص الفادح في نوعية عمل جُرّد من غايته العميقة، غاية اللقاء والمشاركة.

فالجسد ليس، كما يعتقد الكثيرون، مجرّد آلة يكفي المرء أن يُكثر من استعمالها أو أن يُحكم هذا الاستعمال ليجني منها، بصورة آلية، أفضل لذة ممكنة. إنما الجسد، كما رأينا، مرتبط بالشخص ككلّ. لذا فنوعيّة اللذة وعمقها وشمولها وقدرتها على إسعاد المرء، كلّ ذلك مرتبط بالضبط بموقف لا يعتبر الجسد مجرّد آلة، إنما يعيشه في أصالته الانسانيّة، كمكان يلاقي فيه حضور بشريّ حضورًا بشريًّا آخر.

في الحضارة الغربيّة المعاصرة (وفي ما يرجّع صداها عندنا)، أصبح الجنس، بالنسبة لكثيرين، شيئًا يُستهلَك في حضارة الاستهلاك (وتوظّف الرساميل الضخمة للاتجار به)، ولذا أصبح أمرًا سهلًا وتافهًا بآن، مجرّد تسلية يحاول المرء بها أن ينسى لبرهة سأمه الخانق. في هذا «الجحيم الحديث الذي لم يعد الانسان فيه يعرف كيف يكون إثنين»، على حدّ تعبير الشاعر أراغون Aragon، أي الذي ضاع فيه، عند الكثيرين، في غمرة التهافت على الاستهلاك، معنى التواصل واللقاء، في جحيم السأم هذا، «يُكثر المرء من ممارسة عمل الحبّ بمقدار ما أصبح عاجزًا عن الحب»، كما قال أحدهم، فيأتي عمله هذا مبتورًا، مُخَيِّبًا، لأنه عمل سطحيّ، «احتكاك جلديّ» (contact épidermique) كما قيل، لا يلتزم فيه الجسد، الجسد الحيّ الشخصيّ، بأعماقه.

خامسًا: «الجسد الجنسي» لا يبلغ غايته إلَّا بالحبّ

هذا الالتزام لا يتمّ إلَّا إذا تخطّى جسدٌ انهماكه بذاته، ليلاقي بالفعل جسدًا آخر. بهذا التخطّي يتجاوز الجسد محدوديته ليتصل فعلًا بالآخر فيجد، في هذا «الوصال»، ليس مجرد لذة، بل ما هو أبعد وأعمق من ذلك، سعادة في اللذة وغنى في الوجود واتصالًا بالكون وشعورًا بأنّ للحياة معنى. في اتصال كهذا يصبح الجسد أكثر من آلة لذة تدور حول ذاتها في دوامة الفراغ، لأنه يصير لغة يخاطَب بها الآخر، لغة أبلغ وأدلّ من «لغة الكلام» يتكاشف بها الشريكان ويتعارفان صميميًّا (حسب المدلول الكتابيّ

لكلمة «معرفة» التي تشير بآن، في الكتاب، إلى التواصل الجنسي، وإلى اختبار وجدانيّ للآخر). الجسد يصبح شفّافًا، والحالة هذه، كما أوضح العالم النفسي المعاصر بنسوانغر Binswanger، فيه ومن خلاله يلتقي الشخصان، فيصبحان، حسب منطوق الكتاب، «جسدًا واحدًا» (تك ٢:٢٤)، أي كيانًا بشريًّا واحدًا. حركات الجسد تصبح إذ ذاك حاملة لمعانٍ روحية، كما أشار المحلّل النفسي الكندي الدكتور ميشال دانسرو Dansereau، لأنها تعبّر عن عطاء متبادل.

ذلك هو الحبّ، الذي لا يُضاف إلى الجسد من الخارج كتكملة له، انما هو الشرط الأساسيّ لكي يحقق الجسد الجنسي سعيه ومبتغاه.

هناك لغو في أيامنا حول ما يسمّى بـ«الانسجام الجنسي» أو «الوفاق الجنسي»، إذ يعتقد الكثيرون أنه، في الأساس، نتيجة عملية آلية، وأن السبيل إلى توفيره هو بالتالي تعلّم وممارسة أساليب تقنية في الاتصال الجنسيّ تضمن الاشباع للطرفين. ويفوت هؤلاء ما يوضحه إخصائيو علم الجنس في أيامنا، بأن الحبّ وما يفترضه من اهتمام بالآخر ورغبة في إسعاده وإطمئنان له، إنما هو العنصر الأساسيّ لبلوغ هذا الإشباع المتبادل، وأن إتقان الأساليب الجسدية يكون ذا جدوى إذا كان مسخَّرًا لتخاطب أفضل، لمشاركة أكثر صميميّة، لا إذا تحوّل إلى تقنية أنانية تتلاعب بالآخر ولكنها تعجز عن الاتصال به[٢].

مجمل الكلام إن الجنس فاشل إذا لم « يتخطّ الجسد ذاته بالحنان » ، على حد تعبير بيار هنري سيمون P.H.Simon. أما « إذا تحققت الوحدة بملئها بين رجل وامرأة ، فالجسد يهب ، مقابل ذلك ، بسخاء ملوكيّ » ، هذا ما يؤكّده أحد كبار الأخصائيين المعاصرين في شؤون الجنس ، أوسوالد شوارز Oswald Schwarz. ولقد أدرك هذه الحقيقة ، لحسن الحظ ، كثير من شباب عصرنا ، حتى في هذا الغرب الذي نتوهّم غالبًا أنه إباحيّ بجملته .

أورد على سبيل المثل نتائج استطلاع للرأي قامت به في فرنسا مؤسسة SOFRES ونشرت نتائجه مجلة « الاكسبرس » الفرنسيّة في مطلع العام ١٩٧٢. استُجوب في هذا الاستقصاء شباب تراوحت أعمارهم بين ١٥ و٢٠ عامًا يمثلون مختلف فئات الشباب الفرنسي . وقد لوحظ ان ٢٢٪ فقط منهم يعتقدون ان شبابًا من عمرهم يحقّ لهم أن يمارسوا علاقات جنسيّة دون حبّ ، في حين أن الأكثريّة (٤٢٪) لم تحبّذ علاقات من هذا النوع وان كانت تبيحها . وإذا كان ٢١٪ منهم فقط يعتقدون أن الفتاة يجب أن تبقى عذراء حتى الزواج ، فان ٤٦٪ يعتقدون أنه ينبغي لها أن تحتفظ على عذريّتها إلى أن تجد شابًا يحبّها حقيقة . هكذا فقد وعى أكثريّة هؤلاء الشباب ، رغم رفضهم لكثير من التقاليد الخلقيّة ، الارتباط الصميم القائم بين الاكتمال الجنسي من جهة ، والحب من جهة أخرى .

سادسًا : الأبعاد الدينية للخبرة الجنسيّة

هنا لا بدّ أن نشير إلى الأبعاد الدينية التي تتجلّى في الخبرة الجنسيّة ، إذا نظرنا إلى هذه بتعمّق ، في ضوء الإيمان . قلنا إن الجسد ، إذا انغلق على نفسه ، فشل في مسعاه الجنسي . والآن نضيف أن ذلك الفشل انما هو صورة عن الموت (وعبارة « الموت » ، في الكتاب المقدّس ، تشير ، كما هو معلوم ، إلى كل أنواع الفشل) .

وبالفعل ، فان الجسد المنغلق ، أسير حاجاته ، سائر إلى الموت الذي سيخمد تلك الحاجات كلّها ، التي لم يكن لها من مبرّر سوى المحافظة على استمرار هذا الجسد في الوجود الترابيّ . لا بل أن فرويد يقول لنا بعمق إن إزالة التوتّر ، التي تدعو إليها حاجات الجسد ، انما هي عودة إلى سكون المادة من قبل الحياة وجمودها ، وإن ما يدفعنا بالتالي إلى بلوغ اللذة من خلال ازالة التوتّر ، انما هو « نزوة الموت » ، العاملة لا شعوريًا ، وبصمت إذًا ، في أعماق جسدنا ، بهدف إعادته إلى الوضع اللا عضويّ . كلّ ذلك حريّ بأن يؤكّد لنا أن « جسد الحاجة » ، المنهمك في إزالة توتّراته ، إنّما هو سائر حكمًا في طريق الموت . هذا ما يلتقي ، بنظري ، مع الكلمات الكتابية : « ان اللحم والدم ليس بوسعهما أن يرثا ملكوت الله » (١ كورنثوس ١٥ :٥٠) ، وأيضًا : « الأطعمة للجوف والجوف للأطعمة ، والله سيبيد هذه وتلك » (١ كو ٦ :١٣) . فالجوف أبلغ رمز للجسد الاستهلاكيّ ، المنغلق على قضاء حاجاته ، والذي

سيزول وإياها، «لأنه من التراب وإلى التراب يعود» (تك ٣: ١٩).

أمّا إذا تخطّى الجسد ذاته باتجاه الآخر، فانه يتنكّر لمحدودية حاجاته، يموت عنها بمعنى من المعاني، وبذلك «الموت» يتخطّى الموت، مع المسيح وفي خطّه. ذلك انه، اذ ذاك، يخرج من عزلته، ويتصل، عبر اتصاله بالآخر، بتيار الحياة الشاملة. وإذا اتصل بتيار الحياة، فانه يتصل، من حيث يدري أو لا يدري، بالله، مصدر الحياة وينبوعها الدائم التدفّق. باندفاعه في طريق الحب، يتصل بالله، أَلِف الحبّ وياؤه. بهذا المعنى يقول المطران جورج خضر: «ان ملتقى العروس بالعروس ككل لقاء صميمي أيضًا هو هجرة إلى الله . . .». بتلك الـ«هجرة»، بذلك «الخروج» (وما أبلغ هذه العبارة الأخيرة في الكتاب، منذ «خروج» ابراهيم من بيته وأرضه وعشيرته تجاوبًا مع نداء الله!) ينجو الجسد من قوقعته، يتخطّى وضع «جسد الموت» الذي كان يشكو الرسول منه (رومية ٧: ٢٤)، لينطلق منذ الآن في رحاب القيامة. وما سعادة الحبّ (بما في ذلك اكتمال اللذة الجنسيّة الذي يرافق الحب الأصيل) الا باكورة وإشارة للقيامة[٣].

«الجسد الجنسيّ» المنفتح بالحبّ، إنّما هو صورة ومقدّمة لجسد القيامة، لأن المحبة هي طريق القيامة الوحيد: «نحن نعلم أننا انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأننا نحبّ الاخوة» (١ يوحنا ٣: ١٤). هنا يتجلّى السرّ الفصحيّ، الذي تحمله وتترجمه كل خبرة إنسانيّة أصيلة: الجسد الجنسي يموت عن محدوديّة الحاجة التي تشيّئ الآخر لتستهلكه وتمتلّكه، فيفلت بذلك من قوقعة العزلة المميتة، ويتحوّل

إلى « جسد رغبة » منفتح على الآخر وعلى الله ، فيجد الحياة والفرح ويذوق شيئًا من طعم الأبدية . من هنا نفهم كيف أن أناسًا ابتعدوا عن الايمان أو فترت محبّتهم لله ، قد يشعرون بقوة بحضور الله وبالمعنى الإلهي للوجود إذا اختبروا حبًّا بشريًّا أو تجدّد حبّهم ، وقد روى لنا المحلّل النفسي أنطون فيرغوت Vergote حادثًا من هذا النوع في كتابه القيّم « السيكولوجية الدينية » . من هنا نفهم أيضًا لماذا تستحضر الكنيسة في الزواج - وهو الاطار الطبيعي للحب البشري المكتمل - الربّ المصلوب والناهض من بين الأموات ، لتعيد الحبّ البشري المتعثّر إلى نموذجه الفصحيّ ، نموذج الحياة الظافرة على الموت بالموت ، وتثبّته في خط القيامة .

سابعًا : الخلاص هو في انفتاح « الجسد الجنسي » لا في محاولة إلغائه

ولكن ايماننا بالقيامة ، بقيامة الأجساد ، يقتضي بأن يكون موقفنا من الجسد موقف اعتبار وتعهّد ، لا موقف تنكّر ورفض . لذا كان لا بدّ لنا ، في نهاية هذا الحديث ، من الإشارة إلى انحراف يهدّدنا أبدًا . فإذا كان انغلاق « الجسد الجنسيّ » على ذاته وتقوقعه النرجسيّ ضمن دائرة حاجاته ، موقفًا ينمّ عن عدم نضج على الصعيد النفسي أو الروحيّ أو كليهما معًا ، وإذا كان هذا الموقف يحكم على الجسد بالفشل في بلوغ أمنيته العميقة ، ألا وهي التحرّر من عزلته والاتصال بغنى الحياة ، فهناك موقف لا يقلّ خطرًا عن هذا وليس بأقلّ منه بُعدًا عن النضج والأصالة ، ألا وهو محاولة

الغاء الجسد بما يحمله من نزعة جنسية، والتصرّف وكأنه غير موجود أو كأن وجوده عرضيّ لا يمتّ بصلة إلى جوهر الانسان. تلك هي «الملائكية» angélisme، التي كثيرًا ما تتستَّر بتبريرات دينية لتخفي عوامل لا شعوريّة تحرّكها، هي بالفعل بعيدة كل البعد عن روح الانجيل.

تلك العوامل اللاشعورية، التي يقتضي تحليلها بحثًا طويلًا قائمًا بذاته، يمكن ردّها، في آخر المطاف، إلى علاقة الجنس بالموت. ولتلك العلاقة عدة وجوه أذكر منها فيما يلي اثنين:

- فمن جهة، يعني القبول الصميمي للجنس، أن يقبل المرء بأنه أخذ الحياة من السلف لينقلها إلى الخلف، وبأنه بالتالي، على الصعيد البيولوجيّ، مَعْبَر ليس إلَّا، تجتازه الحياة في سيرها إلى الأمام واختراقها الأجيال المتعاقبة، حَلَقَةٌ زائلة من حلقات سلسلة الوجود («ولادة الأولاد هي موت الوالدين»، يقول هيغل بهذا المعنى)، وبعبارة أخرى بأنه مجرد ناقل لحياة أعطيت له إلى حين، ولكن ليست «له الحياة في ذاته» (يوحنا ٥:٢٦)، أي انه ليس الله.

- ومن جهة أخرى، فقبول الجنس يعني أن يقبل الانسان بأنه ليس كاملًا بحدّ ذاته، انما لا يكتمل إلَّا بآخر، أن يقبل بأنه كائن «منفصل» (هذا الانفصال هو المدلول الأصلي لكلمة sexe الفرنسيّة، إذا عدنا إلى اشتقاقها عن اللاتينيّة) لا يحقّق كماله إلَّا باتّحاده بآخر، وبأنه، لكي يبلغ هذا الاتحاد، يترتّب عليه أن

يتخطّى ذاته، أن يخرج من ذاته، أن يمرّ إذًا بخبرة شبيهة بخبرة الموت (عبارة «خروج»، في الكتاب، قد تشير إلى الموت: راجع لوقا ٩:٣١ و٢ بطرس ١:١٥).

ولكن ارتباط الجنس بالموت أمر مروّع بالنسبة لنرجسية الانسان، تلك النرجسية التي هي من رواسب الطفولة فيه. فالطفل في أول عمره، يشعر، بسبب عدم نضجه من جهة واهتمام الآخرين الدائم به من جهة أخرى، وكأن جسده مركز الكون ومحوره. انه لا يدرك لهذا الجسد حدودًا زمنية ولا مكانية، ولا يميّزه كفاية عما يحيط به، لذا يُخال له ان هذا الجسد يحوي في ذاته الوجود كلّه ويتحكّم بالكون قاطبة. ذلك ما لاحظه المحلّلون النفسيون في تحرّيهم لرواسب الطفولة في نفسية مرضاهم، وما أكدته، بوسائل أخرى، ملاحظة الأطفال المباشرة كما أجراها بياجيه Piaget ومدرسته مثلًا. على هذه الخلفية يكون اكتشاف الولد للجنس، الذي يتبلور في المرحلة الاوديبية أوّلًا (بين الثالثة والسادسة من العمر) ثم في المراهقة، مرادف لاكتشاف محدودية جسد لا يكتمل إلا بجسد آخر متميز ومختلف عنه. ولكن المهمّ أن يتعهّد المرء هذا الاكتشاف، أن يقبل به عميقًا. الّا أن هذا القبول مكتَنَف بالصعوبات. ألم تظهر المحلّلة النفسية هيلين دوتش، في كتاب لها عن مشاكل المراهقة، أن ظاهرة الغاء الفوارق في الزيّ والمظهر بين الجنسين في جماعات المراهقين تشير إلى محاولة لا شعوريّة لطمس الفارق الجنسيّ، ذلك الفارق الذي يؤكّد محدوديّة الجسد وبالتالي يثير جزع الموت؟

فإذا قبل المرء بمحدودية جسده الموسوم جنسيًّا ، أو بعبارة أخرى إذا قبل بالموت الذي تشير إليه وتنبئ به هذه السمة ، فعند ذاك يمكنه أن يتخطّى ذاته ليلاقي آخر ، عند ذاك يصبح قادرًا على اقامة علاقة حقيقية بآخر ، سواءً على الصعيد الجنسيّ أو على أيّ صعيد انسانيّ. ولكن المرء قد يتمسك لا شعوريًّا بنرجسيّته الطفلية وبذلك الميل إلى اعتبار ذاته محورًا للكون . عند ذاك يبدو له الجسد ، بنزعته الجنسية وطابعه الجنسيّ ، خطرًا عليه ، لأنه يذكّره بأنه ناقص ، منفصل ، محدود ، وبعبارة إجمالية يذكّره بأنه مائت . لذا أمكن القول بأن **الخوف من الجسد هو** ، **في الأعماق** ، **خوف على الجسد من الزوال** ، رفض سحريّ للموت الذي لا بدّ للجسد أن يمرّ به إذا كان جسدًا جنسيًّا .

قد يتخذ هذا الخوف وجه التزمّت ، وجه احتقار الجسد بحجة روحانية مزيَّفة ، وقد يتخذ أيضًا ، كما بيّن محلّلون نفسيّون كأندريه برج Berge وكارل ستيرن Stern، وجه التهتّك ، وجه حصر العلاقة الجنسيّة بمظاهرها الأكثر سطحيّة ، كي يوفّر الفرد على نفسه أمر الالتزام بها وما يستتبعه ذلك من خروج من ذاته وموت عن محوريّة ذاته . ولكن هذا الخوف من الجسد (أو بالحري على الجسد) ، أيًّا كان شكل تعبيره ، يعقّم على كل حال في المرء طاقة الحبّ ، كل الحبّ ، سواء الحب بمعناه الجنسيّ ، أو المحبة الانسانيّة بشتّى مظاهرها ، أو محبة الله نفسها . إنه يؤدي إلى تقوقع يمنع الجسد من تخطي ذاته في اتجاه الكون والآخرين ، وبالتالي يجعل الإنسان على هامش الحياة الحقيقية . به تتحقق تلك المفارقة الرهيبة ،

ألا وهي ان الانسان يُحجم عن الحياة لأنه يخاف من الموت الذي هو بُعد من أبعادها. يغلق على نفسه في دائرة الموت لخوفه من الموت، مما يذكّرنا بما تقوله الرسالة إلى العبرانيين عن «الذين ظلّوا طوال حياتهم في العبوديّة مخافة من الموت» (عب ٢:١٥). وإذا اتخذ خوفه هذا مظهر «الملائكية»، فان «ملائكيته» المزعومة هذه لا تترفّع عن الجسد إلّا في الظاهر، لأنها بالواقع تخدم أغراض الجسد وأوهامه، ذلك الجسد الذي يأبى أن يقرّ بمحدوديّته، فينغلق على ذاته ليحافظ على حلمه الطفوليّ القديم، حلم الألوهة الذاتية. هذا ما يتجاوب، على ما أظنّ، مع أقوال الرسول عندما يحذّر مسيحيّي كولوسّي من التزمت قائلًا لهم:

> «تلك هي وصايا الناس وتعليمهم! وقد يكون عليها ظواهر الحكمة «بعبادتها المصنّعة» و«التواضع» و«قهر الذات»، ولكنّها لا قيمة لها، ولا تؤول إلّا إلى إرضاء الجسد».

(كولوسّي ٢:٢٢-٢٣)

مجمل الكلام ان ما يسمّى بالانقياد للجسد، أو ما يسمّى بإغفال الجسد واحتقاره، انما هما كلاهما، في كثير من الأحوال، وجهان متضادّان لواقع واحد: واقع النرجسية التي ترفضُ القبول بمحدودية الجسد وبحاجته إلى الآخر كي يكتمل ويحيا. كلاهما يلغي عمليًا وجود الآخر، يحول دون إدراك حضور الآخر الشخصي في جسده: فالماجن لا يرى في جسد الآخر سوى

شيء يُمتلك، وبالتالي سوى امتدادٍ لذاته، والمتزمّت لا يرى فيه سوى خطر يُجتنَب، ولا همّ له سوى حماية ذاته منه. كلا الموقفين مظهر لتلك المحاولة التي عبّر عنها الكتاب عند سرده لحادثة سقوط الجدّين الأوّلين، ووصفها بأنها محاولة لتأليه الذات بمعزل عن الآخر: «فقالت الحية (...) تصيران كآلهة ...» (تك ٣: ٤ و٥).

خلاص «الجسد الجنسي» لا يكون إذًا لا بالمجون ولا بالتزمّت. ليس هو في انغلاق الجسد على لذته أو خوفه، بل في تخطّيه لذاته باتجاه الآخر، هذا التخطّي الذي به، وبه وحده، يسير الجسد في طريق القيامة، مرورًا بقبوله للموت عن محوريّته الذاتية واكتفائيته.

لقد رأينا أن الحبّ الجنسيّ الأصيل، كما يُفترَض أن يعاش في الزواج، مظهر من مظاهر هذا التخطّي، وأن الكنيسة جعلت من الزواج سرًّا لكي تزرع في صميمه قوة صليب الرب وقيامته، فتساعده على الاستمرار والنموّ في طريق الحبّ، الذي إن هو إلّا موت محيي. في الزواج، يتمرّس «الجسد الجنسي» على تخطّي «الحاجة»، التي تدفع إلى استهلاك الآخر واحتوائه، إلى «الرغبة» التي تعترف بوجوده المتمايز وتقيمه في استقلاله، وذلك عبر الحياة المشتركة وما تقتضيه من جهاد، قاسٍ أحيانًا، تدعمه النعمة الإلهيّة، من أجل اعتبار الآخر غاية وليس وسيلة، ذاتًا وليس شيئًا، شريكًا وليس ملكًا. وان للقاء الأجساد دورًا لا يستهان به في

مسيرة الحب هذه . فهو يترجم الحبّ الزوجي بأبلغ ما يمكن من تعبير ويدعمه ويغذّيه . ولكنه ، بدوره ، لا يكون لقاءً بالفعل ، ولا ينجو من التفاهة والرتابة القتّالَين، إلّا إذا اغتذى من الحبّ باستمرار وعبّر عن حركة المكاشفة والمشاركة والعطاء المتبادل في كافة ميادين الحياة الزوجيّة .

ثامنًا : ليست العفة المكرّسة تنكرًا للجسد الجنسيّ ، بل جهاد للسير به إلى أقصى انفتاحه

ولكن هناك طريقًا أخرى ، سار فيها الرب أولًا في حياته بالجسد ، ورسمها نموذجًا لكثيرين سلكوها ، ولا يزالون ، من بعده . انها طريق العفّة المكرّسة . تاريخيًّا ، لقد أحاط بهذه الطريق كثير من الالتباس ، ولا يزال إلى الآن ، ولكنها ، في أصالتها الانجيلية ، بعيدة كل البعد عن ذلك التزمّت الذي تصدّينا له وسميناه بـ« الملائكية » ، ذلك التزمّت الذي كان غريبًا عن حياة السيّد ، كما يتّضح من علاقاته الحرّة والصافية والمتعاطفة بالنساء ، التي يشير إليها المحلّل النفسيّ الكنديّ المعاصر ، الدكتور ميشال دانسرو Dansereau.

المكرّس حقًّا لا يحاول أن يتجاهل وجود « جسده الجنسيّ » ، لأنه يعرف حقّ المعرفة أنه وضعه الانساني الراهن ، الذي لا مناص منه ، وأن الله وحده مترفّع عن الجنس لأنه وحده كامل بذاته (كامل دون انغلاق لأن وحدته ، وحدة الحب ، ثالوثية هي) . انما المكرّس يجاهد حقّ الجهاد ، بنعمة القيامة التي زُرعت فيه والتي

يستمدّها أبدًا بتواضع وحرارة، لكي يتجاوز قدر المستطاع عنصر الانغلاق في هذا الجسد، حتى تتحقّق، على أكمل وجه، طاقات الانفتاح الكامنة فيه. انه يتخلّى عن الحب الجنسيّ، لا لكي يكتفي بذاته ويتملّك ذاته ويحتمي من الآخر، بل لكي يتجاوز في حبّه، قدر الإمكان، كلّ اكتفائيّة وتملّك وخوف. انه لا يتخلّى عن اقامة علاقة خاصة بزوجة وعائلة عن بُخل عاطفيّ، بل ليكون قلبه منفتحًا للكل، معطى للجميع، ولكي يكون جميع الناس عائلته. انه لا يحاول بتر الجنس فيه - فذاك أمر مستحيل - ولا يتنكّر له، ولكنه، بامتناعه عن الممارسة الجنسية، يقصد أن يسير في طريق «إعلاء» الجنس، أي تحريره قدر الامكان من عنصر الانطوائية الكامن فيه. هذا «الاعلاء»، الذي وصفه لنا التحليل النفسي، عملية غامضة تجري إلى حدّ بعيد بشكل لا شعوريّ ولا إراديّ. لذا فالمكرَّس حقًّا لا يعتمد على ارادته بقدر ما يعتمد على انفتاحه المتواضع لذلك الحب الإلهيّ، ألِف الجنس ويائه، الذي ظهر لنا، في يسوع المسيح، جسدًا ظافرًا على الموت بمروره الطوعيّ فيه.

الخلاصة

نحن نؤمن ان «جسدنا الجنسيّ»، الذي هو وضعنا الراهن على هذه الأرض، قد طُعِّم بالمعمودية على جسد الحبّ هذا، جسد المسيح الذي أصبح مسكنًا لملء الحياة الإلهيّة لأنه أخلى ذاته بالموت، متخلّيًا عن كل تملّك. لذا فسبيلنا، سواءً سلكنا طريق

الزواج أو طريق العفة المكرّسة ، أمارسنا العلاقة الجنسية أم لم نمارسها ، أن نجعل أجسادنا في درب الحبّ ، كي يحوّلها الربّ ويجعلها على صورة جسده ، أجساد قيامة ومساكن لله .

حواشي الفصل الأول

(١) طريفة من هذا القبيل، الشهادة التي نقلتها صحيفة «الأوريان» اللبنانية، سنة ١٩٦٨، عن احدى نجوم السينما والتلفزيون التي كانت تستهوي حينذاك الجمهور الاميركي وتُعتبر في نظره مارلين مونرو الجديدة. هذه، واسمها إدي وليامز، كانت تتمتّع بمفاتن جسدية لافتة خوّلتها أن تراكم، منذ سن الرابعة عشرة، ألقاب ملكة جمال (كاليفورنيا، لوس أنجلوس، بيفرلي هيلز، وغيرها). وقد اجتذبت بجمالها منتجي السينما والتلفزيون، فوقّعوا معها عقودًا وقدّموا لها أدوارًا في أفلامهم. الا انه يبدو ان هذه لم تسكرها مفاتنها ولم تقبل بأن يختزلها الناس بها. فقد صرّحت مرة: «يضايقني ارتداء الميني جوب. فالمخرجون يتطلعون أوّلًا إلى السيقان، وبعد ذلك فقط إلى العيون. والحال ان الأهمّ، بالنسبة لي، انما هو النظرة».

L'Orient, Beyrouth, 21 août 1968.

(٢) ان كتابًا اشتهر في العالم أجمع بتركيزه على فنون الاتصال الجنسي، وهو كتاب «كما سوترا» Kâma-Sûtra، الذي جمعه، حوالي أواخر القرن الثالث ميلادي أو في بداية القرن الرابع، البَرَهَميّ الهندوسيّ ڤاتسيايانا Vatsyayana، استنادًا إلى التراث الهندي القديم، هذا الكتاب نفسه يذهب إلى أبعد وأعمق من الفنون الجسدية، بابرازه أهمية المشاركة والبذل من أجل إسعاد طرفَي الصلة الجنسيّة. ومما يقوله: «السعادة التي يمنحها المرء وتلك التي يتلقّاها، انما هما متعة متبادلة. من أجل تقاسم هذه السعادة وهذه المتعة، يكون المرء على استعداد لأن يهب نفسه كليًا. بالنسبة للرجل، كما بالنسبة للمرأة، هبة الذات بالكلية هي ينبوع هناء مذهل وحظ سعيد. ليس الاتّحاد الجنسي مجرّد لذة للحواس. الأهمّ (فيه) هو التضحية بالذات، اعطاء الذات»

cité par Laurent GRZYBOWSKI: Kâma-Sûtra. Le sexe dans

le texte, p 31, in l'ACTUALITÉ RELIGIEUSE, n° 166, 15 mai 1998, pp 30-31.

(٣) يقول الكاهن والخبير في التحليل النفسي موريس بلّيه :
« الجنس كئيب ، إذا لعب في ظلّ الموت . ان حقيقة اللذة تكون حيث ينفكّ ، بالحبّ ، قيد التشبّث المستحيل بالذات وحدها .
لذا ففي اللذة أيضًا زهد (...) . هذا صحيح أيضًا (...)، ربما بشكل أقسى ، إذا ما انتعشت الرغبة عِبْرَ صلب أوهامها .»

Maurice Bellet: Le Dieu pervers, Desclée de Brouwer, Paris, 1979, p 295-296.

قائمة مراجع موجزة للفصل الأول

Dr Paul Chauchard: La vie sexuelle, Collection "Que sais-je", Presses universitaires de France, Paris, 1966.

Abel Jeannière: Anthropologie sexuelle, Ed.Aubier-Montaigne, Paris, 1964.

François Chirpaz: Le Corps, Puf, Paris, 1963.

Sigmund Freud: Au-delà du principe du plaisir, in Essais de Psychanalyse, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1963.

Claude Geets: Psychanalyse et Morale sexuelle, Editions Universitaires, Paris, 1970.

Denis Vasse: Le temps du désir. Essai sur le Corps et la Parole, Ed. du Seuil, Paris, 1969.

Marc Oraison: Le mystère humain de la sexualité, Ed . du Seuil, Paris, 1966

Hélène Deutsch: Problèmes de l'adolescence, PBP, Paris, 1970.

Dr André Berge: L'éducation sexuelle et affective, Ed. du Scarabée, Paris, 1964.

Karl Stern: Refus de la femme, Ed. Mame, Paris, 1969.

Dr Michel Dansereau: Freud et l'Athéisme, Ed. Desclée, Paris, 1971.

كوستي بندلي : الجنس ومعناه الانساني ، منشورات النور ، بيروت ، ١٩٧١، طبعة رابعة مزيدة ، ١٩٩٩.

الفصل الثاني

الجنس في ضوء الكتاب المقدّس (١٩٨٤)

تقديم

هذا العنوان العام اتُخذ ليشمل خمسة أسئلة وجّهها اليّ شباب ارثوذكسيّون من مدينة حلب (سوريا) . وقد أجيبُ عنها في ١٧/ ١٩٨٤/٦ اجابة صوتية سُجّلت على شريط أُرسل لأصحاب العلاقة .

أما الأسئلة المتفرّعة ، فقد صيغت على الوجه الآتي :

١- ماذا حدّثنا الكتاب المقدّس عن الجنس ؟

٢- ما علاقة الجنس بالخطيئة الأصلية ؟

٣- كيف نسمو بالجنس الى صعيد الحب الإلهي ؟

٤- هل الجنس في زماننا دين جديد ؟

٥- ما شرعية الجنس ؟

في ما يلي أعيد صياغة إجاباتي على هذه التساؤلات ، استنادًا الى التصاميم الخطيّة التي كنت قد دوّنتها .

أولًا : ماذا حدّثنا الكتاب المقدّس عن الجنس؟[1]

١- من حيث قيمة الجنس

نفهم من الكتاب أن الجنس ، بحدّ ذاته ، واقع ايجابي وحسن منسجم مع مقاصد الله في خلقه.

« ورأى الله جميع ما صنعه فإذا هو حسنٌ جدًا » (تكوين ١ : ٣١)

٢- من حيث مقاصد الله في الجنس

أ - بالنسبة للحيوان :

اراده الله عند الحيوان ، وسيلة لتخليد النوع : « فخلق الله الحيتان وكلّ دابٍّ من كل ذي نفس حيّة فاضت به المياه بحسب أصنافه وكلّ طائر ذي جناح بحسب أصنافه . ورأى الله ذلك انه حسن . وباركها الله قائلًا : إنمي واكثري واملأي المياه في البحار وليكثر الطير على الارض » (تكوين ١:٢١و٢٢).

ب - بالنسبة للانسان :

أما بالنسبة للانسان ، فقد شاء الله ان يتعدّى الجنس هذه الغاية البيولوجية ، على أهميّتها ، ليصبح مكان الحب ، أي اللقاء والاتحاد والمشاركة :

« وقال الرب الإله لا يحسن أن يكون الانسان وحده فأصنع له عونًا بإزائه (...) وبنى الرب الإله الضلع التي

أخذها من آدم إمرأة فأتى بها آدم . فقال آدم ها هذه المرة عظم من عظامي ولحم من لحمي . هذه تُسمّى امرأة لانها من امرئ أُخذت . ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم إمراته فيصيران جسدًا واحدًا ». (تكوين ٢ :١٨ و٢٢-٢٤) .

هذا « الجسد الواحد » ، أي الكيان الانسانيّ الموحّد ، حسب المدلول الكتابيّ لعبارة « جسد » ، ليست وحدته ذوبانية ، بل هي وحدة في تمايز (تمايز الجنسين وتمايز الشخصين) ، وحدة صميمة في تمايز صميم ، بها تتحقّق في الانسان صورة الاله الثالوثي التي خُلق بموجبها . فالله ثالوث لانه محبة (١ يوحنا ٤ :٨ و١٦)، والمحبة توحّد وتميّز بآن ، لذا فبين الاقانيم الثلاثة وحدة كاملة وتمايز كامل .

يقول الكتاب : « يوم خلق الله الانسان على مثال الله عمله . ذكرًا وأنثى خلقه ...» (تك ٥ :١و٢) . ويعلّق يوحنا الذهبي الفم على الصيغة الواردة في هذا الكلام بقوله : « في كلامه عن الاثنين ، يتحدّث الله عن واحد »[٢] ، ويخلص الى أنّه « عندما يتّحد الزوج والزوجة في الزواج ، لا يظهران بعد كشيء ارضيّ ، بل كصورة الله نفسه »[٣] . من جهته يقول ثيوفيلوس الانطاكيّ : « لقد خلق الله آدم وحواء ليحقق الحبّ الاكبر بينهما ، عاكسَين سرّ الوحدة الإلهيّة »[٤].

من هنا أن الجنس ، اذا اصبح مكان الحب ، صار مكانًا لتجلّي

الله نفسه. هذا ما يشير اليه كتاب «نشيد الانشاد» الذي يصوّر، بشكل أخّاذ، الحبّ البشري بكل زخمه الجنسيّ والعاطفيّ ويقول عنه في خاتمته: «فإنّ الحبّ قويّ كالموت (...) لهيبه لهيب نار ولظى الربّ...» (نشيد الانشاد ٨:٦-٧).

٣- من حيث العلاقة بين الحب الزوجي وحب الله للناس

ويكشف لنا الكتاب المقدس، بعهديه، ان الحبّ الزوجيّ (بما له من بُعدٍ جنسيّ) صورة عن حب الله للإنسان. علمًا بأن «الصورة»، بمعناها الكتابيّ والآبائي، ليست مجرّد رمز وإشارة، بل هي حضور الهيّ في المخلوق ومشاركة للمخلوق في حياة الله. مما يعني ان الطاقة التي يحبّ بها الله الانسان حاضرة وفاعلة في الحبّ الزوجيّ وملهمة له وموجّهة.

موضوع الحب الزوجيّ من حيث هو صورة لحب الله للناس، ظهر في الكتاب المقدس انطلاقًا من خبرة مأساوية شخصيّة عاشها النبيّ هوشع (القرن الثامن قبل الميلاد) واكتشف عبرها حنان الله المذهل. كان هوشع قد أحبّ امرأة وتزوّجها، ولكنها خانته وهجرته. اما هو فاستمرّ على حبّها واستعادها وبحبّه استطاع أن يعيدها الى حبّ صباها. هكذا صارت له محنته الاليمة اشارة كشفت له طبيعة سلوك الله حيال شعبه: «هكذا الله يحبّنا: لا **بسبب** طيبتنا، بل **لكي** يجعلنا بحبّه طيّبين (...). الله يحبّنا كما يحب رجل زوجته: هذه الفكرة سوف تتكرّر مرارًا في الكتاب، وهي تضفي على الايمان معنى جديدًا. فعلى ضوئها تبدو شريعة

سينا على انها عقد حبّ، عهدًا بين زوجين، الخطيئة تبدو بمثابة زنى وبغاء وانعدام للحب»[٥].

وتواصل بعد ذلك اتّخاذ الحبّ الزوجيّ صورة عن الحبّ الإلهي للإنسان فردًا وجماعة في نبؤات إرميا (القرن السابع قبل الميلاد) وحزقيال (القرن السادس قبل الميلاد) وفي سفر نشيد الانشاد (منتصف القرن الخامس قبل الميلاد). وامتدّ هذا الموضوع الى العهد الجديد فتجلّى في أمثال الرب يسوع وفي رسائل بولس ورؤيا يوحنا.

وبيسوع، الذي تحقّق في شخصه كمال اتحاد اللاهوت بالناسوت، وبالتالي عرس الله مع البشرية (راجع مثلًا متى ٩:١٥، يوحنا ٣:٢٩، ١٩:٧)، تكثّف الحضور الإلهي في الحبّ البشريّ، حتى انه أمكن رفع الزواج الى مرتبة «سرّ» يصبح بموجبه حبّ الزوجين (بما فيه لقاؤهما الجنسيّ) موصولًا بالحب الذي يجمع المسيح والكنيسة (راجع افسس ٥:٢١-٣٣) ومستمدًا منه بالتالي حيوية وزخمًا وصفاءً وإخلاصًا ورحمة وغفرانًا.

ثانيًا: ما علاقة الجنس بالخطيئة الأصلية؟

١- ما الخطيئة الأصلية؟

هناك اعتقاد شعبيّ شائع بأن الخطيئة الأصلية عبارة عن اتصال جنسيّ أقدم عليه الرجل والمرأة الأوّلان رغم كونه كان محرّمًا

عليهما، فنتجت عن ذلك كارثة لحقت بهما وبنسلهما. هذا الاعتقاد - النابع على الارجح من عقدة الاثم التي كثيرًا ما تحيط بالجنس في لاوعي الافراد والجماعات - خاطئ رغم الرموز الجنسية الواردة في رواية السقوط الكتابية (كالحية والثمرة المحرمة والمعرفة والعري). ذلك ان الاتصال الجنسيّ بين الرجل والمرأة وارد صراحة في مقاصد الله منذ البدء كما يشير الكتاب: «فخلق الله الانسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرًا وأنثى خلقهم، وباركهم الله وقال لهم: أنموا واكثروا واملأوا الارض ...» (تكوين ١:٢٧-٢٨).

الخطيئة **الأصلية** هي بالفعل، وخلافًا للتأويل الوهمي الشائع الذي أشرنا اليه، ما يشكّل **اصل** أي جذر الخطيئة في كلّ انسان، الى أي عصر انتمى. انها انطوائية عميقة تحدو أبدًا بالانسان الى التركيز المطلق على ذاته، والانغلاق عليها وعلى نزواتها الاستئثارية، بدل إطلاقها في مجازفة التواصل الفعلي والمشاركة.

فبقدر ما تتحكّم بنا هذه النزعة الانطوائية الجاثمة في أعماقنا، هذا «الانحراف النرجسيّ للحبّ المخلوق» كما يسمّيه اوليڤيه كليمان[٦]، هذا الجنوح الى تأليه الذات، المدمّر للذات اولًا (لان الذات تذوي اذا انقطعت عن رحاب الوجود)، فإنها (اي النزعة الانطوائيّة) تحجب وتشوّه أصالتنا الانسانية، أيّ «صورة الله» فينا، وتعطّل تحوّلنا وصيرورتنا على «مثال» النموذج الالهي الذي بموجبه صُنع كياننا واليه يصبو بغية تحقيق ذاته. هذا التصدّع الذي يقزّم الكيان البشري ويمسخه، تتفرع عنه الفواجع التالية:

أ – **انقطاع الانسان عن ربه**، إذ انه ينصب نفسه الهًا ويتوهّم بأن الخلائق، وهي هبات حنان من الله اليه، تغنيه عن الله، فيقيم هذه العطايا حاجزًا يحجب عنه معطيها: «فاختبأ آدم وامرأته من وجه الربّ الاله في ما بين شجر الجنة. فنادى الرب الاله آدم وقال له: أين انت؟» (تك ٣:٨و٩).

ب – **انقطاع الانسان عن أخيه الانسان**، لانه ينهمك بذاته فلا يرى في الآخر سوى مطيّة لأغراضه يستغلّها أو عقبة أمام رغائبه يسعى الى تدميرها، ويغيب عنه ان الآخر أخ له وشريك في مصيره (قصّة اغتيال قايين لأخيه هابيل معبّرة من هذا القبيل: راجع تك ٤).

ج – **تفكّك داخل الانسان نفسه**: اذ لا تعود الصورة الإلهية محورًا لوجوده يوحّد هذا الوجود ويجمع شمل نزعاته وتوجهاته: «فالرغبة بالخير هي باستطاعتي، واما فعله فلا. فالخير الذي اريده لا افعله، والشرّ الذي لا اريده إياه افعل. فإذا كنت افعل ما لا أريد، فلستُ أنا أفعل ذلك، بل الخطيئة الساكنة فيَّ» (رومية ٧:١٨–٢٠).

٢– انعكاس الخطيئة الأصلية على الجنس

هذا الانحراف الكياني ينعكس على كافة مجالات الحياة الانسانية، بما في ذلك المجال الجنسيّ. ففي الجنس ازدواجيّة أساسية اذ هو، من جهة، ينتزع الانسان من دائرة ذاته ليشدّه الى آخر تنصبّ عليه أشواقه، وبذلك قد يدفعه الى تخطّي الاكتفاء الذاتي

بالسعي الى لقاء الآخر، وفي نهاية المطاف، الى لقاء الله، هذا « الآخر المطلق » ؛ ولكنه، من جهة أخرى، وبفعل هذه الانطوائية العميقة التي نحن بصددها، يهدّد بإغراقه في اللذة الآسرة التي يمنحها، وأن يحدّه في السعي المهووس اليها واليها وحدها، وهو ما من شأنه أن ينقلب على اللذة نفسها فيقزّمها بحرمانها من بعدها العلائقيّ الاساسيّ. هذا وتتجلّى في ميدان الجنس، المظاهر الثلاثة للانحراف التي بسطناها أعلاه:

أ ـ **انقطاع عن الله**: اذ قد يُتَّخذ الجنس مطلقًا بتعبّد الانسان له ـ ومن خلاله للاكتفائية الذاتية التي يتوهّم استمدادها منه ـ بدل ان يتعبّد لله. كانت هذه العبادة الجنسية سافرة في الوثنية القديمة، حيث اتّخذت شكل عبادة آلهة الجنس والخصوبة، كالبعل وعشتروت، المعبّر عنها بطقوس « الدعارة المقدّسة » في الهياكل. اما في الوثنية الحديثة، فتتخذ أشكالًا أقلّ صراحة سوف نأتي على ذكرها بعد قليل.

ب ـ **انقطاع عن الانسان الآخر**: في رواية سفر التكوين، نرى آدم، بتأثير الخطيئة، يلقي التهمة على تلك التي سبق أن سمّاها « عظمًا من عظامه ولحمًا من لحْمِه » (تك ٢:٢٣)، وإذا به يتبرّأ منها ويفصل بين مصيرها ومصيره: « فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلْتُ » (تك ٣:١٢). بتأثير الانحراف الكيانيّ الذي سمّي بـ« الخطيئة الأصليّة »، يحلّ في الجنس، بدل المشاركة، تملّك الآخر واستغلاله والتسلّط عليه. عوض حرية العطاء المتبادل يسود الانقياد الى الشهوة: « الى بعلكِ

تنقاد أشواقكِ وهو يسود عليكِ» (تك ٣:١٦). من هنا ما سمّي بـ«الحرب بين الجنسين»: فالرجل ينساق الى المرأة ويخشاها معًا، لذا يحاول أن يحتويها ليأمن شرّها، جاعلًا منها مجرّد أداة طيّعة لاهوائه وأغراضه، أما هي فتواجههُ بسلاح المستضعَفين، فتحاول من جهتها أن تتحكّم به بإغوائها و«كيدها» (راجع قصة شمشون ودليلة: قضاة ١٦). هكذا يصبح الجنس مسرحًا للعدوان: عدوان على الموضوع الجنسيّ (أبشع صوره الاغتصاب)، عدوان على الآخرين في سبيل امتلاك الموضوع الجنسيّ. وفي العهد القديم حادثتان بالغتا الدلالة بهذا الصدد: قصة الاغتصاب الجماعي التي راحت ضحيّته سريّة أحد اللاويين والحرب الضروس بين اسرائيل وبنيامين التي نتجت عن هذا الاعتداء (قضاة ١٩و٢٠)، وقصة قتل الملك داود لأوريّا من أجل امتلاك زوجته بتشباع (٢ صموئيل ١١ و١٢).

ج - **تفكّك داخل الانسان**: هذا التفكّك، الذي رأينا فيه وجهًا من وجوه «الخطيئة الاصلية»، يتّخذ، في ميدان الجنس، الاشكال التالية:

● **بين الشهوة والحنان**: أي بين ما يحرّك الاتصال الجنسيّ (الشهوة)، وبين ما يضفي وحده على هذا الاتصال معناه الانساني (الحنان)، فتطغى الشهوة على الحنان وتفقد، بفعل ذلك الانحراف، جدواها اللقائي وانسانيّتها.

● **بين حبّ الذات وحبّ الآخر**: في الاصل يدفعني حب

الذات الى لقاء آخر محبوب أجد أنّ لا غنى عنه لتحقيق ذاتي. ولكن اذا لم أتوصل ان ارى في هذا الآخر سوى ذريعة للذّتي، الغيتُ حقيقته وتنكّرت لكثافة وجوده وحوّلته الى مجرّد طيف يعكس لي صورة عطشي. اذ ذاك يضحي لقائي المنشود به سرابًا وأبقى أسير عزلتي وإحباطي.

● **بين الجسد والروح**: التفكّك هنا هو أن لا «تعود الروح تغلّف الجسد»، كما هي الحال، على حدّ تعبير نيتشه، في الحب الاصيل، اي ان لا يعود الجسد مُعَبِّرًا عن قلب الكيان (وهو الروح) ومَعْبَرَه الى قلب كيان الآخر عبر جسده. بل يجرَّد الجسد من هذا المدلول ويُختَزَلْ في وظيفته كآلة تنتج لذة منعزلة وبالتالي جوفاء. هذا معنى من المعاني العميقة الكامنة في صورة العري الذي تتحدّث عنه رواية السقوط في سفر التكوين عندما تصف حالة الزوج الاول بعد الخطيئة: «فانفتحت أعينهما فعلما أنّهما عريانان، فخاطا من ورق التين وصنعا لهما منه مآزر» (تك ٣:٧). في حين انه قيل قبل الخطيئة: «وكانا كلاهما عريانين الانسان وامرأته وهما لا يخجلان» (تك ٢:٢٥). وقد قلتُ في كتابي «كيف نفهم اليوم قصة آدم وحواء؟ قراءة لصورة الانسان في الفصول الثلاثة الاولى من سفر التكوين»، معلّقًا على الطريقة التي يصف بها الكتاب كيف ان «الخطيئة تشوّه العلاقة الجنسية مبعدة اياها عن أصالتها»:

«الجديد إذًا بعد الخطيئة هو هذا الخجل من العري. لقد

أصبح الجسد مصدر خجل لأن دوره في التجاوب بين الجنسين قد اضطرب . في مقاصد الله ، الجسد مُعدّ لأن يكون معبرًا للقاء حميم الى أبعد حدّ بين شخصين ، بحيث أن الرغبة التي تتيقظ فيه تكون نداءً وحافزًا لتحقيق هذا اللقاء . بالتالي ليس الجسد مُعَدًّا ليستقلّ عن حركة التعاطف الوجدانيّ الصميم . ولكن انطوائية الانسان (وهي، كما رأينا ، جوهر الخطيئة) تعطّل حركة اللقاء هذه بحيث يُنظَر الى كائن من الجنس الآخر من زاوية الحاجة الى اشباع نزواة ذاتية والتنفيس عن توتر جسديّ أكثر مما يُنظَر اليه من حيث الرغبة في اللقاء بشخص فريد والتداخل معه في العمق . هكذا يستقلّ الجسد عن حركة اللقاء ويصبح المرء شاعرًا بجسده على انه مكان تتحرك فيه نزوات مستقلّة عن توقه الشخصيّ العميق ، كما انه يُحسّ بأن افراد الجنس الآخر ، بالمقابل ، ينزعون الى الاهتمام بجسده من أجل هذا الجسد بحدّ ذاته وما يعدهم به من لذة ، لا كمَعْبَرٍ الى شخصه هو ، فيفصلون هكذا جسده عنه ويحوّلونه الى شيء يُستمتَع به . أن استقلالية الجسد المنحرفة هذه ، تلك التي تفصله عن الحياة الشخصية سواءً في نظر الشخص نفسه او في نظر الآخرين ، تثير بالتالي لدى المرء شعورًا بأن جسده كيان غريب يهدّد وحدة وجوده الشخصي ، من هنا هذا

الشعور بالخجل حياله »[٧].

● **بين « نزوة الحياة » و « نزوة الموت »** (نستمد هاتين العبارتين من فكر فرويد الذي يعتبر هاتين النزوتين قطبَي الوجود الانساني من حيث منابعه الغريزية) . فبدل أن تُسَخَّر « نزوة الموت » لـ « نزوة الحياة » وتخدم أغراضها ، بتحوّلها الى طاقة نضاليّة يجاهد بها المرء ويضحّي في سبيل حبّه وبالتالي في سبيل انطلاق الحياة وازدهارها ، تتفلّت « نزوة الموت » من توجيه « نزوة الحياة » وتنقلب عليها لصالح أغراضها الذاتية ، فيندفع الانسان الى تدمير نفسه او الآخر ، او كليهما معًا ، مدفوعًا بشهوة عمياء .

ثالثًا : كيف نسمو بالجنس الى صعيد الحب الإلهي ؟

اعتقد ان طرح السؤال مُصيب ، لان الجنس ليس غريبًا في الأصل عن الحبّ الإلهيّ ، اذ انه ، بشكله الانسانيّ المكتمل ، مكان تتجلّى فيه ، كما رأينا ، حركة الحب الابدية التي تجمع الاقانيم في وحدة الله الثالوثية ، ومحبة الله للبشر . من جهة أخرى فإننا نحبّ الله بنفس طاقة الحبّ المتجذّرة في كياننا الجنسيّ ، من حيث ان هذا الكيان ، اذ يجعل من كل واحد منا ذكرًا أو أنثى ، وليس الاثنين معًا ، يجعله حاملًا في ذاته مجرّد جزء أو قسم أو وجه من الطاقة الانسانية الشاملة (الجزء الذكوري أو الانثوي) ، دون الجزء أو القسم او الوجه الآخر (والملفت ان لفظة « جنس » بالفرنسية sexe تعني ، في اصلها اللاتيني ، الانقسام والانفصال) ، وبالتالي يضطّرنا ، بفعل هذا النقص الكيانيّ الذي نحمله ، والذي يطبع كل

خلية من خلايا جسدنا ، الى ان لا نكتفي بأنفسنا ، الى ان لا نتقوقع على أنفسنا ، بل ان نتّجه بملء جوارحنا الى الآخر ، سعيًا الى الاكتمال . الجنس يقذفنا اذًا خارج ذواتنا في سعي ، لا ينتهي ، الى الآخر ، وفي نهاية المطاف ، الى الآخر المطلق ، الى الله . من هنا دعاء اسحق السرياني : « أعطنا يا رب أن نحبّك بقوة أهوائنا » ، وما رواه يوحنا السلميّ عمّا خَبِرَهُ عن نفوس « استفادت من تجربة العشق اذ نقلت غرامها الى الرب (...) وذاقت حبّ الله حبًا لا يشبع »[٨] .

المقصود بالسؤال ، على ما أعتقد ، هو : كيف نسمو بالجنس بحيث نحوّل طاقته الى محبة لله . الجواب ، برأيي ، ذو شقَّين :

١- **أن نقيم علاقة شخصية بالله ، حيّة وحميمة** ، عبر الصلاة والأسرار ومطالعة الانجيل واستلهامه المتواصل في حياتنا ومواقفنا ، بحيث تصبح علاقتنا بالله لا مجرد ارتباط بعقيدة وشرائع ، بل حضورًا لله في حياتنا الشخصية ، بيسوع المسيح ، اختبارًا لله وتذوّقًا له (هذا ما تفيده عبارة « معرفة الله » في الكتاب) « في وجه يسوع المسيح » ، اكتشافًا لهذا الوجه يومًا بعد يوم في الانجيل وفي الذين يحيون الانجيل وفي وجه كل انسان معذّب نمدّ له يد المعونة ونرى فيه وجه المسيح . معاشرة الله هذه لها دوران في حياتنا : فإنّها من جهة ، وعلى صعيد نفسيّ ، من حيث انها تقيم الله وسط اهتماماتنا وهواجسنا ، تسهّل عملية « التسامي » ، وهي عملية لا شعوريّة تتحوّل بموجبها طاقاتنا الغريزية الى أهداف تتخطّى الغريزة وتعلو عليها ، وهي هنا الاتصال بالله ، ومن جهة أخرى ، وعلى

صعيد روحيّ ، تفسح المجال لله لكي يفعل في صميم كياننا فيحوّلنا من الداخل ويقود طاقة الحب فينا الى اكتمالها اذ يزرع فينا الحب الذي فيه . والعمليتان النفسية والروحية متداخلتان بالطبع في وحدة الكيان الحيّ .

٢– **أن نسلك حيال الطاقة الجنسية فينا لا سلوك القمع** الذي قد يؤدّي الى العقم والتقوقع والجفاف الروحيّ ، او قد يُحدث ، على سبيل ردّ الفعل ، ثورة عشوائية للغريزة تؤدّي الى زعزعة الايمان عينه ، او قد يؤول الى اضطرابات عصابية مختلفة ناتجة عن مآزم نفسية مستعصية ، **بل سلوك الرعاية والتعهّد** الذي يتقبّل الجنس ويوجّهه في طريق المحبة على أنواعها ، تلك المحبة التي ، اذا نمت ، فهي وحدها قادرة أن تضبط الجنس في العمق وتهذّبه وتصقله ، دون أن تتجاهله أو تؤذيه او تعقّمه . من هنا ان كلّ علاقة إنسانية أصيلة نقيمها ، سواءً كانت رفقة او زمالة او صداقة او تعاون او حبّ ، وكلّ معاشرة للآخرين من الجنسين تتخطّى السطحيّة لتؤدّي الى تبادل فعليّ بيننا وبينهم ، وكلّ التزام للقضايا الانسانيّة في محيطنا ، كلّ ذلك من شأنه أن يقود الجنس فينا الى الرقيّ والنضج والاكتمال ، وبالتالي ان يساعد على السموّ به الى مستوى الحب الالهي . فبقدر ما يصبّ الجنس في محبة انسانية اصيلة ، بقدر ذلك يصبح مرشّحًا للارتفاع الى صعيد المحبة الإلهية .

رابعًا : هل الجنس في زماننا دين جديد ؟

اعتقد ان السؤال نابع من ظاهرة بروز مذهب وُلد في الغرب

واصبح واسع الانتشار في عالم اليوم، حيث يدين به الكثيرون فيلهم نظرتهم الى الحياة وسلوكهم اليوميّ. وهو ما يُسمّى بـ «الثورة الجنسيّة». سوف نرى في ما يلي ما تحمله هذه الثورة من نواحٍ ايجابية وانحرافات، وكيف انها تتّخذ في بعض الاحيان شكلًا اشبه ما يكون بدين بديل او وثنية جديدة.

١ـ الوجه الايجابيّ لـ «الثورة الجنسية»

من ايجابيات «الثورة الجنسية» انها **أعادت الاعتبار للجنس** من حيث انه مكان تعاش فيه العلاقة الانسانية بكل كثافتها. هذا ما يبدو في سلوك العديد من الشباب في الغرب، الذين، وإن كانوا لا يراعون التقاليد المألوفة، إلّا أنهم حريصون على ربط الجنس بالحب ومقتضياته، وهذا ما **اشاع مفهومًا جديدًا للزواج**، لا كعقد تقتصر غايته على الاستقرار الاجتماعيّ وبناء أسرة وإنجاب الاولاد، بل كصلة حميمة بين الزوجين يلعب فيها البعد الجنسيّ دورًا اساسيًا. وقد دعم تحوّل مفهوم الزواج هذا، تطوّر العلوم الطبية الذي سمح، بشكل فعّال للمرة الاولى في تاريخ البشرية، بفكّ حتمية الارتباط بين الجنس والانجاب، وبالتالي بمزيد من التركيز على البعد العلائقي للجنس، بما فيه من خصوصية انسانية، على حساب التركيز على البعد البيولوجيّ، المشترك بين سائر الكائنات الحيّة المتناسلة. هذا وقد ساهمت إعادة الاعتبار للجنس، المشار اليها اعلاه، والتي تندرج، من حيث أصالتها، في الخطّ الكتابيّ (خطّ تكوين ٢ ونشيد الانشاد)، ساهمت في ترسيخ وتوطيد الكثير من

العلاقات الزوجية واشاعة الانتعاش فيها ، لخير الزوجين والاولاد على حدّ سواء .

٢ـ الوجه المنحرف لـ « الثورة الجنسية »

ألا أنّ « الثورة الجنسية » أوجدت ايضًا ، للأسف ، تيّارًا منحرفًا قويًا ولكنه ليس بالوحيد كما يُظنّ ، انما هو يلفت الانظار اكثر من سواه بسبب تركيز وسائل الاعلام عليه سعيًا وراء الاثارة . هذا التيار يرتبط بذهنية « مجتمع الاستهلاك » ، وهو مجتمع يؤلّه الاشياء (على حساب العلاقات الانسانية) ، ويدفع ، بشتى وسائل الإغراء الدعائي ، الى التسابق على اقتنائها ، لصالح توفير الحد الاقصى من الارباح للمهيمنين على هذا المجتمع.والممسكين بخيوطه . في هذا المجتمع الاستهلاكي الذي يؤلّه الاشياء ، لا عجب ان يتحوّل الجنس نفسه الى شيء ، الى سلعة تباع وتُشترى وتُستخدم للترويج لسائر السِلَع ، سوقها سوق الشهوة ، وشهوة الرجال أسياد هذا المجتمع على وجه التخصيص ، في حين ان ادّعاء « تحرير المرأة » كثيرًا ما يُتَّخذ ذريعة للامعان في « تشييئها » باختزالها في بدنها ومفاتنه . ومن مظاهر « تشييئ » الجنس هذا (اي تجريده من بعده الانساني ، العلائقي ، الوجداني) بغية تسويقه ، نستعرض ما يلي :

أ- الافلام الخلاعية pornographiques التي تُنتَج بالجملة وتلقى رواجًا كبيرًا (ضاعفته اليوم شبكة إنترنيت) من خلال السينما او عبر التلفزيون او الفيديو اللذين يمكنهما إدخال هذه الافلام الى كل بيت ووضعهما في متناول أي كان . هذه الافلام

عبارة عن تسلسل مشاهد جنسية ، تربط بينها قصة هشة المضمون ، ويغيب عنها كل بعد عاطفيّ وكلّ لقاء وجدانيّ . تصوّر مجرّد تماسّ أجساد وتداخلها . ويبلغ احتقار المرأة في هذه الافلام الى حدّ انها تُتَّخذ في كثير من الاحوال موضوع ممارسات ذات طابع ساديّ - بغية التفنّن في الإثارة - وقد يقود ذلك ، في بعض الافلام النادرة المسماة snuff (أي مذبحة) ، التي تشرف المافيا على انتاجها وتسويقها بأثمانٍ باهظة في الولايات المتحدة ، الى تعذيب المرأة حتى الموت[٩] . من هنا تصدّي النساء المناضلات في سبيل تحرير المرأة - وهنّ كثيرات في الغرب ومنظّمات وترفعن شعارات كذلك الذي قرأته يومًا على يافطة ترفعها احدى المتظاهرات في صورة نشرتها إحدى المجلات : « كوني امرأة وليس جسدًا » Be a woman not a body - تصدّيهنّ للافلام الخلاعية التي تعتبرنها إذلالًا لهنَّ ودوسًا لكرامتهنّ ككائنات بشرية وعدوانًا يمارس عليهنّ . وقد بلغ هذا التصدّي في بريطانيا حدّ الاعتداء على دور السينما التي تعرض افلامًا كهذه[١٠] .

ب - البغاء المنظّم بشكل تجاريّ . فمثلًا ، وحتى في بلاد تُعتبر متقدّمة ، كألمانيا الاتحادية وهولندا ، يُمنح عدد من القوّادين امتياز فتح دور بغاء يجنون منها ارباحًا طائلة على حساب النساء اللواتي يتاجرون بأجسادهن . علمًا بأنّ هؤلاء النساء ، من حين يَقعنَ في حبائلهم ، يفقدن أبسط حقوقهن الانسانية ، اذ يُضربن وتساء معاملتهنّ وتحجز حريتهنّ ويعانين من الارهاق وسوء التغذية ويُبعنَ ويُشْرينَ . ففي هامبورغ مثلًا يرى المرءُ في مرائب فارغة وباردة ،

فتيات تتراوح اعمارهنّ بين ١٥ و٢٥ سنة ، واقفات في عري كامل يتفحصهنّ الزبائن كأنّهم في سوق للمواشي الى ان يختاروا احداهنّ فيقضون معها بضع دقائق . هناك كذلك سوق دولية للبغاء تتّخذ شكل الـ sex-tours اي جولات سياحية جنسية ليابانيين واوروبيين الى الفيليبين او تايلاند ، تنظّمها شركات تستفيد من اضطرار العديد من نساء هذين البلدين (كنّ ثلاثمائة الف في الفيلبين) الى ممارسة البغاء بدافع البؤس ، فتجني من وراء ذلك ارباحًا طائلة من خلال المتاجرة بأجسادهنّ لقاء أجر زهيد تتقاضاه هؤلاء البائسات .

وقد فتحت الازمة الاقتصادية الخانقة التي تتحكّم بأوروبا الشرقية منذ انهيار الحكم الشيوعي فيها ، الباب واسعًا امام هذه التجارة البغيضة . فقد سمعتُ مؤخّرًا من « إذاعة فرنسا الدولية » ان نصف مليون امرأة من اوروبا الشرقية طُرحن في سوق البغاء في اوروبا الغربية ، وأن المتحكّم بمصائرهنّ إنّما هي عصابات الجريمة المنظّمة ، التي تضمن انقيادهنّ لها عبر التهديد بإلحاق الأذى بعائلاتهنّ الباقيات في القسم الشرقي من اوروبا[١١] .

هذا ومن أبشع الاستغلال الجنسيّ المنظّم الذي تروّج له « الثورة الجنسية » الحاضرة ، إجبار أعداد هائلة من الاطفال على ممارسة الدعارة ، عن طريق البيع او التأجير او الخطف ، وذلك منذ سن الخامسة احيانًا![١٢] وقد أثار هذا العدوان المنفّر على الاطفال ، الذين هم مستقبل الانسانية ، قلقًا عالميًا أدّى الى انعقاد اول مؤتمر دوليّ لمعالجته ، في ضوء إعلان حقوق الطفل الذي تبنّته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٩٨٩ وصادقت عليه ١٨٧ دولة ، وقد عُقد

المؤتمر المذكور في مدينة استوكهولم (أسوج) بين ١٩٩٦/٨/٢٧ و١٩٩٦/٨/٣١، ومما كتبته عنه جريدة «النهار» (بيروت): «في استوكهولم (...) اكثر من الف مندوب من ١٢٦ بلدًا وخمسين منظّمة دولية أو غير حكومية بغية ردّ دوليّ منسّق على استغلال الاطفال جنسيًا لأغراض تجارية، مذ بات صناعة في طور التوسّع (...) وفي مواجهة هذا السيل الذي يرمي سنويًا بأكثر من مليون طفل في سوق الجنس العالمية، وهي صناعة «بشرية» تدرّ مليارات الدولارات، سيتَبَنّى المشاركون في مؤتمر استوكهولم «إعلانًا وبرنامج عمل» يحدّدان الاولويات في مجال التنسيق والتعاون على المستويات المحلّية والوطنيّة والدوليّة لحماية ضحايا دعارة الاطفال وإعادة تكييفهم في المجتمع ومنع سقوط المزيد منهم (...) ان قرابة خمسين وزيرًا او نائب وزير للعدل او الشؤون الاجتماعية او الصحّة او تنظيم العائلة سيتحدّثون خلاله»[١٣].

٣- الجنس كدين بديل او وثنية جديدة

ويتّخذ الجنس أحيانًا في عصرنا شكلًا اشبه ما يكون بدين بديل او وثنية جديدة، وذلك عندما يرتمي الانسان فيه سعيًا وراء مطلق ينشده للاستعاضة عن غياب الله عن حياة الكثيرين في مجتمع تكنولوجيّ افقد طغيانه وجودَهم معناه وجدواه، فأصبحوا يعانون من عَبَثيّة اللهاث وراء الاشياء التي يغريهم ابدًا بها مجتمع الاستهلاك، ومن العزلة المريرة التي تفرزها التجمّعات المدينية الضخمة حيث يجد المرء نفسه مقتلعًا من جذوره ومرميًا وسط

كثافة بشرية انقطعت فيها روابط التواصل الوجداني. كما انهم يعانون من القلق والضياع اللذين يفرزهما انهيار الموروث وتداعي القِيَمْ. وإذا بهم يفتشون في الجنس وأحاسيسه الحادة وخبراته العنيفة تأكيدًا لهم بأنّهم موجودون بالفعل، وإلهًا بديلًا يستقطب ويلملم شتات كيانهم المبعثَر. دين الجنس هذا عبّر عنه كتاب كجورج باتاي Georges Bataille وهنري ميللر Henry Miller، واعتنقه الهيبّيون الذين ثاروا، في الستينات، على عبثيّة المجتمع الصناعيّ، فاتّخذوا من المخدرات والجنس وسيلة لإرواء عطشهم الى المطلق[١٤]. ولكنّهم مُنيوا بالخيبة لأنّ المطلَق لا يُقتحم اقتحامًا بل يعطي ذاته لمن شاء ان ينفتح اليه بتواضع القلب، ولأن الله لا يُلتمس في خط اكتفائية مزعومة تمنحها المتعة الجنسية ونشوتها، بل في خطّ الحبّ الذي يوظّف الطاقة الجنسية في سعي حقيقي الى الآخر. يقول رينو Renaud الماجن، بطل رواية كريستيان روشفور «راحة المحارب» (١٩٥٨): «المهمّ في التهتّك، انما هو الاله، وليس اللذة، والاله كان ابدًا غائبًا».[١٥] لقد كان بالفعل غائبًا، لان الله لا يُلاقى في انفلاش الذات عن طريق التهتّك، بل في تخطّي الانغلاق على الذات والغرق فيها، الى من هو أصل الذات ومبتغاها. هذه الخيبة كانت عاملًا على اهتداء العديد من الهيبيّين الى المسيح الذي وجدوا فيه، ولو بشكل طغت عليه العاطفة، ما لم يجدوه في الجنس والمخدرات، فسمّوا انفسهم Jesus freaks، أي ما يوازي «المهووسون بيسوع»، أو Street Christians (مسيحيو الشوارع). هؤلاء ظهروا للمرة الاولى سنة ١٩٦٧-

١٩٦٨ في منطقة سان فرنسيسكو، التي كانت مركزًا مميّزًا للحركة الهيبيّة، وانتشروا بعد ذلك، في اقلّ من ١٥ شهرًا، في طول الولايات المتّحدة وعرضها. كانت أعمارهم تتراوح بين ١٧ و٢٥ سنة. اتّخذوا لهم في كل مدينة مقرّات دعوها «مقاهي يسوع» Jesus coffeehouses كانوا يستقبلون فيها كل من طرق بابهم ويقدّمون له ايّة مساعدة مادية او روحية احتاجها. وقد عاشوا في شراكة في ما بينهم، يرتزقون من مبيع صحفهم الشهرية (مثلاً ! Right on– الى الامام – و Truth – الحقيقة) التي بلغ عددها حوالي ٥٠ صحيفة يصدر منها حوالي مليون نسخة. وقضوا ساعات طوال في تبشير المارّة وأبنائهم بأن يسوع يحبّهم ودعوتهم الى الانتماء اليه[١٦].

خامسًا: ما شرعية الجنس؟

○ شرعية الجنس لا تُلقى عليه من الخارج، لا تُلصَقْ به إلصَاقًا، إنّما هي في تحقيق الجنس اكتماله الانساني، وذلك بأن يندرج في سياق اللقاء الوجداني الحميم، هذا اللقاء الذي يُتوّجه الزواج لا لكون هذا الاخير عقدًا اجتماعيًا يضفي على الجنس صفة شرعية تحوّله الى حلالٍ، بل لكونه الإطار الصالح الذي يعاش فيه الالتزام النهائي المتبادل بين شخصين، ذلك الالتزام الذي يبلغ به الحبّ اكتماله وبالتالي يتّخذ به الجنس، من حيث هو قناة الحبّ، ملء معناه.

○ من هنا أن شرعية الجنس نابعة من «القلب»، اي من

جوهر الانسان، ومن الموقف، النابع من القلب، حيال الآخر. ذلك هو موقف يسوع من الجنس. لم يرَ يسوع في الجنس بحدّ ذاته اي دنس او نجاسة، شأن العهد القديم الذي كان يرى في حيض النساء نجاسة شرعية[١٧]، وكذلك في الاتصال الجنسيّ بين الرجل والمرأة[١٨]، لان الطهارة والنجاسة، بنظر يسوع، تنبعان من القلب ومن القلب وحده.

○ لم يقسُ يسوع على الانحرافات الجنسية بالدرجة التي قسا بها مثلًا على شهوة المال والسلطة. ذلك لأنّ الذي ينقاد وراء الشهوة الجنسية، انّما يسعى الى الآخر ولو بشكلٍ مشوّه ومبتور، في حين ان المال والسلطان يوهمان الانسان بأنّه مُكتَفٍ بذاته، فيحجّران قلبه ويغلقان هذا القلب دون الله والانسان الآخر: «ويل لكم أيّها الاغنياء...» (لوقا ٦:٢٤)، «واقول لكم: لَأَنْ يمرّ الجمل من ثقب الإبرة أيسر من ان يدخل الغنيّ ملكوت السماوات» (متى ١٩:٢٤)، «تعلمون أن رؤساء الامم يسودونها، وأن أكابرها يتسلّطون عليها فلا يكن هذا فيكم...» (متى ٢٠:٢٥-٢٦). لا بل انه رأى ان الفضيلة والتديّن قد يحجّران قلب الانسان أكثر من الانحراف الجنسيّ، فصفع أتقياء عصره، الذين كانوا يحملون عليه بسبب معاشرته للخطأة، وكانوا هم يستعلون على الناس ويحمّلونهم أحمالًا ثقيلة ويفضّلون الفرائض الخارجية على الرحمة ويكتفون ببرّهم الذاتيّ، صفعهم بقوله: «الحق أقول لكم: إن العشارين والبغايا يتقدّمونكم الى ملكوت الله» (متى ٢١:٣١) - والواضح مثلًا في مثل الابن الشاطر (لوقا ١٥:١١-

٣٢) – الذي قيل ردًّا على الذين أخذوا على يسوع معاشرته للخطأة – ان ذلك الابن، بعد ان عاشر الزواني وأنفق عليهن ماله (لوقا ١٥:٣٠)، عاد الى بيت أبيه، في حين أن الاخ الاكبر، المتبجّح بفضيلته (لوقا ١٥:٢٩)، لم يترك هذا البيت في الظاهر، انما كان قلبه بعيدًا عن قلب أبيه لانه لم يشاركه في عاطفته تجاه ابنه الضالّ (الى حدّ انه اشار اليه بعبارة «إبنك» بدل أن يدعوه «أخي»: لو ١٥:٣٠). والملحوظ ان المثل ينتهي بنداء موجّه الى من يمثّلهم هذا الابن الاكبر كي يعودوا بقلوبهم الى ابيهم وأخوتهم، دون ان يكون هناك اي تأكيد بأنّهم سيعودون فعلاً (والحقيقة انّهم لم يعودوا بل قتلوا يسوع) كما عاد ذاك الذي عاش فترة في الخلاعة[١٩].

المهمّ اذًا بنظر يسوع هو موقف القلب. فعندما يقول: «من نظر الى امراة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه» (متى ٥:٢٨)، فمن الخطأ، برأيي، أن يؤوَّل هذا الكلام بموجب التفسير الشائع الذي بقول: ان الزنى خطيئة فظيعة بهذا المقدار، حتى ان مجرّد الاشتهاء بالنظر يشكّل إثمًا كبيرًا يوازي ارتكاب الزنى بالفعل. المقصود برأيي هو غير هذه الرؤية الشرعية المحضة، هو أعمق منها بكثير. ما يُفهم من قول يسوع، اذا ما وضعناه في الإطار الانجيلي الشامل، هو ان الخطيئة ليست في الاتصال الجسدي بحد ذاته، الذي قد يكون آثِمًا او نقيًا، وِفقًا لنوعية **النظرة** التي توجّهه[٢٠]. جوهر الخطيئة هو اذًا في النظرة المنحرفة التي لا ترى في المرأة سوى أداة لقضاء الشهوة وذريعة للاثارة ورمزًا جنسيًا محضًا، وبالتالي

تحجّمها بشكل مأساوي، محوّلة اياها من انسان يخاطَب **الى شيء** يُستهلك. وهذه النظرة من القلب تنبع، من قساوة القلب الذي بقي اسير شهوة التملّك ولم يهتدِ الى المحبة والمشاركة.

○ من هنا ان الزواج، بنظر يسوع، لا يكفي بحدّ ذاته لإضفاء شرعية على الجنس. لقد كان اليهود يتزوجون بموجب الشرع. وبموجب الشرع عينه كان الرجل يطّلق امرأته اذا لم تعد تعجبه بسبب عيب وجده فيها. فكان يصرفها بعد تسليمها «كتاب طلاق» يسمح لها بأن تتزوّج من غيره بدل أن يُحكم عليها بالتسوّل او البغاء[٢١]. وكان، في سلوكه هذا، يستند الى ما ورد في تثنية الاشتراع: «اذا اتخذ رجل إمرأة وصار لها بعلاً ثم لم تحظَ عنده لعيب أنكره عليها فليكتب لها كتاب طلاق ويدفعه الى يدها ويصرفها عن بيته» (تثنية ٢٤:١٠). واختلفت المذاهب الفقهية في تأويل هذا «العيب» الذي يجيز للرجل صرف امرأته[٢٢]، وتراوحت بين تشدّد وتساهل وصل لدى احد الفقهاء - وهو رابيّ عقيبه، حوالي ١٣٥ للميلاد - الى حدّ السماح للرجل بتطليق زوجته لمجرّد أنه رأى امرأة أجمل منها...[٢٣]. وقد تصدّى يسوع لهذا المفهوم للزواج، اذ كانت المرأة تُعتبر فيه ملكًا للرجل يتخلّى عنه متى شاء، ضمن حدود تضيق او تتّسع حسب المذاهب، دون ان تؤخذ ارادتها بعين الاعتبار، لا حين زواجها (الذي يتمّ بمحض ارادة ابيها) ولا حين تطليقها. ولما استشهد مخاطبوه بشريعة موسى ليبرّروه، اجابهم ان الشريعة انما رتبته بسبب «قساوة قلوبهم» (متى ١٩:٨) وذكّرهم

بالمقصد الالهي كما ورد في سفر التكوين، والذي يقضي بأن تكون العلاقة الزوجية لا علاقة امتلاك (تتحوّل فيها المرأة من ذات الى شيء) بل علاقة مشاركة صميمة يصير فيها الاثنان «جسدًا واحدًا» (تك ٢:٢٤)، مثبتًا بذلك وحدانية الزواج لا كترتيب شرعيّ، بل كمقتضى لأصالة العلاقة الزوجية نفسها كما أرادها الله وسجّلها في صلب التوق الانسانيّ.

○ من هنا ان وجدانية الزواج نفسها لا تكفي، اذا اصبحت قالبًا لا مضمون له، لإضفاء الشرعية على الجنس. فمثلًا الرجل الذي يتذرّع بـ «حقّه الزوجيّ» ليمارس الجنس مع زوجته من باب «واجب زوجيّ» يطالبها به، في حين ان العلاقة الوجدانية بينهما مصدّعة بشكل خطير، انما ينحرف بالجنس عن منحاه الانسانيّ الصحيح. من هنا أن التطوّر في تشريع بعض البلدان، كأسوج وكندا، الذي أصبح يقرّ وجود ما يُسمّى بـ «الاغتصاب الزوجيّ» ويعاقب عليه، انما يبدو لي ترجمة حقوقية لتلك الخميرة الانجيلية التي لا تزال عاملة في الحضارة الغربية رغم انحرافاتها.

الحواشي

(١) راجع:
○ كوستي بندلي: الجنس ومعناه الانساني، منشورات النور، بيروت، ط ٣، ١٩٨٥، ص ٣٣٢- ٣٣٤.
○ كوستي بندلي: كيف نفهم اليوم قصة آدم وحواء، «الانجيل على دروب العصر» ١٠، منشورات النور، بيروت، ١٩٩٠، ص ٤٧- ٥٦.

(٢) مذكور في:
Paul EVDOKIMOV: Sacrement de l'amour. Le mystère conjugal à le lumière de la tradition orthodoxe, Ed. de l'Epi, Paris, 1962, p. 160.

(٣) مذكور في المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(٤) مذكور في المرجع نفسه، ص ١٢٥.

(٥) راجع:
Etienne CHARPENTIER: Pour lire l'Ancien Testament, Ed. du Cerf, Paris, 1983, p. 47.

(٦) راجع:
Olivier CLÉMENT: L'Eglise orthodoxe, Coll. "Que sais-je?", PUF, Paris, 1961, p. 39.

(٧) راجع: كوستي بندلي: كيف نفهم اليوم قصة آدم وحواء؟، مرجع مذكور، ص ١٠٧-١٠٨.

(٨) سلّم الفضائل، الدرجة الخامسة، مذكور في: نشرة دار مار جرجس الحرف، العدد ١٨، شباط ١٩٦٥، ص ٢٣. راجع ايضًا:
يوحنا السلّميّ: السلّم الى الله، المقالة الخامسة، ٢٦، تعريب رهبنة دير مار جرجس الحرف، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٠، ص ٦٦.

(٩) راجع:

Marie-Françoise HANS et Gilles LAPOUGE: Les femmes, la pornographie, l'érotisme, Coll. "Points actuels", Seuil, Paris, 1980, pp. 389-391.

(١٠) راجع: كوستي بندلي: تعليم الفتاة وآفاق المرأة، طبعة ثانية مزيدة، جرّوس برس، طرابلس، ١٩٩٨، ص ٦٢- ٦٣. من أجل التوسّع حول هذا التيار في الحركة النسائية المعاصرة، راجع:

Jean-Claude GUILLEBAUD: La tyrannie du plaisir, Seuil, Paris, 1998, pp. 339-347.

(١١) راجع: «إذاعة فرنسا الدولية» (RFI)، صباح ١٩٩٨/١٠/٢٩. راجع أيضًا ما يقوله جان كلود غيّبو عن النساء البولونيات والتشيكيّات والمجريّات والروسيّات اللواتي حولّتهنّ المافيات الى «ماشية بشرية تُرسَل الى مواخير اسطنبول والعربية وأوروبا»

Jean-Claude GUILLEBAUD: La tyrannie du plaisir, op. cit., pp. 92-93. وأيضًا:

Yves Géry, Trafic de femmes en provenance de l'Est, LMD, février 1999, p. 10.

(١٢) راجع:

Claire BRISSET: La prostitution des mineurs, commerce mondial, Enfances décomposées, LE MONDE DIPLOMATIQUE, 43e année, nº 509, août 1996, p. 24.

(١٣) «النهار»، بيروت، ١٩٩٦/٨/٢٧، ص ٢٠.

(١٤) راجع:

Michel LANCELOT: Je veux regarder Dieu en face (Le phénomène hippie) (1968), Ed. Albin Michel, Paris, 1971.

(١٥) راجع:

Christiane ROCHEFORT: Le Repos du guerrier (1958), Le livre de poche, Paris, 1965, p. 136.

(١٦) راجع :

Jean DUCHESNE: Jesus Revolution, made in USA, "ETUDES", Paris, juin 1972, p. 803-821.

(١٧) « وأيّة امرأة كان بها سَيَلان ، اي سَيَلان دم من جسدها ، تبقى سبعة أيام في نجاسة طَمْثِها، وكلّ من لمسها يكونُ نجسًا حتى المساء . وكلّ ما تضَّجع عليه في طَمْثِها يكون نجسًا ، وكلّ ما تجلس عليه يكون نجسًا .» (لاويين ١٥ :١٩و٢٠).

(١٨) « وأية امرأة كان لها علاقات جنسيّة مع رجل ، فليستحمّا في الماء ويكونا نَجِسَين حتى المساء .» (لاويين ١٥ :١٨)

(١٩) راجع :

* Joachim JEREMIAS: Les paraboles de Jésus, traduction de Bruno Hubseh (1962), "Livre de vie", n° 85-86, Ed. du Seuil, Paris, 1968, pp. 188-189.

* كوستي بندلي : أمثال الملكوت ، منشورات النور ، بيروت ، ط ٢، ١٩٩٢، ص ٣٢-٣٣ .

(٢٠) « سِراجُ الجسَد هو العين . فإنْ كانت عينك صحيحة ، كان جسدُكَ كلُّه نيِّرًا . وإن كانت عينك مريضة ، كان جسدُكَ كلُّه مُظلِمًا .» (متى ٦ :٢٢ و٢٣) . والعين هنا هي النظرة والرؤية ، و« الجسد » ، بمعناه الكتابيّ ، الكيان الحيّ كلّه .

(٢١) راجع :

Erich FUCHS: Le Désir et la Tendresse. Sources et histoire d'une éthique chrétienne de la sexualité et du mariage (1979), Ed. Labor et Fides, Genève, 6e éd., 1989, p. 59.

(٢٢) راجع :

Michel QUESNEL: Comment lire un Evangile. Saint Marc, Ed. du Seuil, Paris, 1984, p. 174.

(٢٣) راجع :

Erich FUCHS: op. cit., p. 58, note 4.

الفصل الثالث

الجنس في آفاقه الانسانية والروحيّة (١٩٩٢)

تقديم

في مطلع ١٩٩٢، طلب مني الاب فؤاد الصائغ، رئيس اكليريكية القديسة حنّة الكبرى لطائفة الروم الكاثوليك الملكيين (الربوة - انطلياس - لبنان)، أن أتحدّث بموضوع الجنس الى طلاب الاكليريكية. وكعادتي في تلك الظروف، رجوته ان يوافيني بما يودّ الطلاب أن يطرحوه عليّ من تساؤلات حول هذا الموضوع، كي يأتي حديثي متجاوبًا مع هواجسهم وحاجاتهم. وبالفعل ارسل اليّ الاب الرئيس، بتاريخ ١/٢/١٩٩٢، اسئلة الطلاب، مرفقًا اياها برسالة قال فيها:

«... هي ذي اسئلة الاخوة الاكليريكيين الذين يوّدون أن يطرحوها عليك لتكون خطوطًا عريضة للحديث (...)، وقد تعمّدنا أن نتركها على عفويتها، ولم نحذف ما تكرّر منها لتعرفوا أهمية السؤال بالنسبة للمجموعة ...».

وقد كان من الطبيعي أن تكثُر الاسئلة المرتبطة بموضوع البتولية

المكرّسة – وأن يشغل هذا الموضوع، بالتالي، حيّزًا كبيرًا نسبيًّا في حديثي – نظرًا لاحتمال اختيار عدد من طلاب الاكليريكية، الكهنوت المتبتّل، طريقًا لهم.

ألقي الحديث صباح الاربعاء ١٩ شباط ١٩٩٢، في صالون مطرانية الروم الكاثوليك في طرابلس، وقد حاولت أن أتناول فيه معظم النقاط التي أثارها الطلاب في الأسئلة الخطيّة التي وردتني منهم.

في ما يلي، أُثبت نصّ معظم هذه الأسئلة:

* كيف يقيم المكرَّس الجدليَّة ما بين تكرّسه (بتوليته)، وإقامة علاقة مع الجنس الآخر؟

* * *

* في كتاب «تساؤلات الشباب» تطرح فكرة: الحب يشمل الرغبة الجنسية ويتخطّاها في آن واحد. ان الرغبة الجنسية، اذا تحرّرت من محدوديتها الغريزية واتّخذت كل أبعادها الانسانية... والسؤال هنا: هل يحق لأي اثنين، مع وجود الحب بينهما، أن يمارسا الجنس؟ ام هنا شرط الزواج؟

* * *

* كثيرًا ما سمعت عن **البتولية** او **الزواج**.

وأعرف أن الربّ يتقبّل الحالتين على السواء. ولكن ما أودّ أن اسأله هو: ما هي الصفات المرتبطة بالبتول. اي ما هي الخصائص

التي يجب أن يتحلّى بها البتول ، وكيف يحاول الانسان ان يقارن نفسه بخصائص البتولية حتى يتأكّد أن هذه الصفات تنطبق عليه ام لا ؟

* وما هو الزواج العفيف وخصائصه ؟

* * *

* سؤال حول الجنس والتبتّل .

ما مدى احتمال الكاهن المتبتّل للنزعات الجنسية التي تعتريه ؟ وهل ترى في الزواج حماية لهذه (من هذه؟) النزعات قبل ان يصبح كاهنًا ؟

* ان مشكلة طالب الكهنوت في اختيار التبتُّل ام الزواج ، ولكن ، اذا اختار التبتّل فهل يتندم على ذلك بسبب النزعات الجنسية ام لا ؟

* * *

* لماذا نجد هذه الحالة بكثرة في أوساط الشباب ؟ (الارجح ان المقصود بـ « الحالة » هنا هو العادة السرية : ك.ب).

* يضفي (يطغى ؟) اللجوء الى التجربة الجنسية (الممارسة) بأيّ شكل كان ، عندما يتعرّض الشاب لأي ضغط من التجارب (التجارب النفسية ، الاقتصادية ، الروحية ...) .

* لا يجد الشاب ، في وقت التجارب هذا ، راحة الا في التجائه الى الجنس . كيف يستطيع ايجاد حلّ لهذه المشكلة ، وإذا

كانت طبيعة (من طبيعة تكوين الانسان) فلماذا نشجبها (ما هي مضارها)؟ وكيف نستطيع أن نوفّق بين حلول العلم (علم النفس فَرَضًا) وبين الحلول الدينية لهذه الحالة؟

* * *

* الطهارة موضوع هام في الحياة الكهنوتية.

كيف نعيش الطهارة، وخصوصًا نحن نعيش في جوّ يسوده الفساد الخُلُقي والموضات الخلاعية، وانتشارها بشكل واسع على التلفزيون وفي كل مكان.

الكاهن: ما موقفه هنا...؟

* * *

* كيف يستطيع الشاب أن يخلق توازنًا بين العقل والعاطفة؟

* * *

* كيف يستعد الطالب الاكليريكي المراهق، من الناحية الجنسية (مثلًا العادة السرية) ويوجّه الطاقات، ليكون كاهنًا بتولًا في المستقبل؟

* ما سبب تراجع كثير من الكهنة، خصوصًا في الغرب، من حالة العزوبية الى العشيقات، فالزواج؟

* ما هو المقياس الذي، من خلاله، يعرف طالب الكهنوت اذا كان مدعوًا ليكون كاهنًا بتولًا ام متزوجًا؟

* * *

* من المعروف ان الميل نحو الجنس الآخر هو ميل طبيعي ، ولكن السؤال هو التالي : انت ، ككاهن رعية ، او ستكون كاهن رعية ، كيف ستتعامل مع الجنس الآخر بحيث تكون طبيعيًا معه ولا تجلب عليك ، بنفس الوقت ، اي كلام باطل ؟

* * *

* يقولون ان العادة السرية مسموح بها في بعض الحالات . وانا ارفض هذه العادة . من اراد ممارستها فليتزوج ، برأيي ، فما رايكم انتم ؟

* * *

* العفيف حقًا هو من يحرص على إعطاء الجنس كل ابعاده . وذلك بممارسته في خط الحب ، وفي خط الحب فقط . السؤال : هل ممكن أن تعاش العفّة خارج الزواج ؟ وهل يأخذ الجنس كل أبعاده ، وذلك بممارسته في خطّ الحبّ خارج الزواج ؟

* كيف نستطيع أن نميّز بين الحبّ والرغبة الجنسية ؟

* ما معنى البتولية ؟

* كيف يمكن أن نفسّر الجنس ؟

* * *

* بشأن العادة السرية : هل تشكّل حالة مرضيّة ؟ وعند ذلك ، هل تشكّل عائقًا في طريق الزواج ؟

* * *

* الجنس من المحرَّمات TABOU؟؟ ولماذا ؟؟

* ما هي تأثيرات العلاقة الجنسية على كياننا النفسي – والصحّي ؟ ومتى تكون صحيحة ؟

* * *

* الحفاظ على البتولية الطاهرة ، شيء مرغوب ، فما هو الذي يساعدنا على حفظها ككهنة متبتلين برأيكم ؟

* * *

* كيف يمكن أن أوجّه ذاتي من خلال حياتي الاكليريكية نحو حياة جنسية ناجحة لا خلل فيها ؟ وخصوصًا اني سأكون (إن شاء الله) كاهنًا يخدم الناس من خلال العمل الرعوي... وانا كاهن بتول (التوجيه نفسي ذاتي) ؟

* * *

* ما هي الخطيئة بالجنس ؟

* * *

* انني في موضوع اختيار بين البتولية والزواج ، كيف اعرف إرادة الله بالنسبة لي ؟ ما هي ؟ وما هي المرتكزات التي عليَّ أن استند اليها ؟

* كيف يعيش الكاهن البتول حياته العاطفية والجنسية ، بحيث يبقى أمينًا لمن دعاه ؟

* كيف يقوم الاكليريكيّ بترجمة جنسية صحيّة لنفسه .

وبالتالي ، المرتكزات العامة في الحديث الجنسيّ مع الشبيبة ، وتركيز على شرح كيفية العمل في الاوساط الضيّقة ؟

* * *

* بما ان البعد الجنسيّ عند الانسان من الابعاد العميقة المتأصّلة في داخله ، وبما أنه حاجة ملحّة وضرورية عند الانسان ، فكيف يستطيع الشباب ان يوفّقوا بين الحاجة وإشباعها وما بين الكثير من القبح (القمع ؟) والقواعد والمعايير المزروعة في داخل الانسان الشرقيّ ، ومنذ الصِغر ؟ مع الاخذ بعين الاعتبار ان الشباب اليوم يتطلعون الى ايجابية واقعية ومقنعة .

* * *

* ما هي ابعاد الكبت الجنسي ؟

* * *

* ما رأيك بعلاقات الحبّ التي تتمّ قبل ان يصبح الاكليريكي كاهنًا ؟ وماذا تنصح : هل يتابع ام لا ؟

* هل النضوج التام يتوصّل اليه الكاهن دون شريكة ام لا ؟

* * *

* ما هو العمر المناسب للتكرّس بشكل نهائي في خدمة الرب ، خاصة اذا كانت الدعوة نحو كهنوت مقدّس أعيشه في البتولية ؟

في هذا الفصل يُستعاد حديثي المذكور ، مع بعض التعديلات .

أولاً : وجها الجنس

نستلهم في عرضنا لهذين الوجهين الرؤية التحليلية الفرويدية للجنس .

١- الجنس بمعناه الحصريّ "genitalité"

هذه هي النزعة الجنسية بمعناها المحدّد والمألوف ، والمرتبط بالتناسل (لذا دعاها فرويد « التناسليّة » génitalité، وميّزها عن الجنس بمعناه الاوسع sexualité) . وهي ، بتعريفها العام ، تمتّد الى معظم الكائنات الحيّة . أما اذا تأملناها في خصوصيتها الانسانية ، فيبدو لنا فيها وجهان متداخلان ومتكاملان، وجه « الرغبة » ووجه « التوق » .

أ - وجه « الرغبة »

الوجه الاول هو وجه « الرغبة » ، وهو الوجه الغريزي المتأصّل في تكوين الجسد البيولوجيّ ، الذي يحمل ، حتى في تركيب كل خليّة من خلاياه ، طابعًا جنسيًا مُحَدَّدًا ومتميّزًا (corps sexué) يصنّفه في واحد من جنسين مختلفين ومتقابلين ، ويجعل منه ، بالتالي ، كائنًا منقسمًا ، منفصلاً (كما يتّضح من الاصل اللاتيني لكلمة sexe الفرنسية ، وهو sexus الذي يفيد الانقسام والانفصال) ، يشدّه بالتالي ، وبقوة ، الى الجنس المكمّل ، توتّر جسديّ ونفسيّ يسعى الى انفراج تنتج عنه لذة بارزة . هذا الالحاح الغريزي الشديد الذي يدفع الجنسين احدهما الى الآخر ، انما يخدم

« مقاصد » الحياة ، التي وضعت في الفرد هذا الاندفاع العارم كي تنتزعه من التشبّث التلقائيّ بذاته وتغريه بنقل مَدّ الوجود الى من يخلفه فيه ، علمًا بأنّ ذلك يمهّد لموته هو ، ولكنّه يضمن استمرار النوع الذي « تسعى » الحياة الى تخليده ، متلاعبة ، في سبيل ذلك ، بالفرد ، ومستهترة بمصيره[1].

ب - وجه « التوق »

ولكن هذه « الرغبة » ، المشتركة اصلًا بين الانسان والحيوان ، تتخذ لدى الاول وجهًا فريدًا ، لا يلغي الوجه الاول ، ولكنّه يحوّله من الداخل ، يضفي عليه معنى جديدًا ، ويفتح امامه مدى انسانيًا متميزًا . وكأنّ الانسان ، هنا ايضًا ، ينشأ من الطبيعة ويغتذي من طاقاتها ، ولكنه يحوّلها ، معيدًا خلقها وتكوينها بفعل الصورة الالهية التي زُرعت فيه . بفعل ذلك تتّخذ الرغبة عنده وجهًا يمكن أن نسمّيه وجه « التوق » ، لان الانسان فيه ، لم يعد فقط مدفوعًا بآليات تتحكّم بسلوكه ، بل انه قادر على تسخير هذه الآليات نفسها في تحقيق مشروع يلهمه وهدف يصبو اليه .

ولكي نتحقّق من كيفية بروز هذا الوجه الآخر في النزعة الجنسية لدى الانسان ، ينبغي أن نتذكّر ان الرغبة الجنسية ، كسائر الرغبات الغريزية ، تسعى الى موضوع يمنحها الاشباع . فالجوع مثلًا يدفعني الى طعام أستهلكه فأُزيل به توتّري . ولكن الرغبة الجنسية ، خلافًا للرغبات الاخرى ، تتخذ موضوعًا لها ، لا شيئًا من الاشياء ، بل انسانًا ، حضورًا انسانيًا تسعى اليه . انها تدفعني الى انسان

مثلي. والانسان لا يُستهلك كما يُستهلك الطعام، ولكنه يُلاقىَ، واللقاء به عملية لا تنتهي، اي ان الرغبة الجنسية نفسها توقظ وتحرّك فيّ ما هو أبعد منها وأعمق، اي انّها تطلق فيّ **توقًا** الى لقاء انسان آخر في الصميم والى التواصل الحميم معه، بحيث ان تلاحم الاجساد، الذي هو الهدف المباشر للرغبة، يكتسب هنا معنى جديدًا، اذ يصبح تعبيرًا عن مشروع اللقاء والتواصل هذا وطريقًا الى تحقيقه. يصبح، بعبارة أخرى، **وصالًا** بكل ما للكلمة من معنى.

وكما ان صاروخًا عابرًا للفضاء قد يتألّف من طبقتين، احداهما تطلق الثانية، ثم تهبط، في حين ان الثانية تواصل وحدها الطريق الى الهدف الفضائي، هكذا فالرغبة تطلق التوق، ولكنها به، وبه وحده، تبلغ هدفها الانساني البعيد، هدف التواصل الصميم. التوق يذهب الى ابعد مما تستطيع الرغبة أن تذهب اليه، انما يذهب الى هناك مدفوعًا بزخم الرغبة. الرغبة تحرّك التوق وتؤجّجه وتمدّه بزخمها؛ والتوق، من جهته، يهذّب الرغبة، يلطّفها، يوجهها، «يؤَنْسِنُها»، يسمح لها بتجاوز مجرّد تلاحم الاجساد الى لقاء انسانيّ صميم.

هذا التمايز والتكامل بين «الرغبة» و«التوق»، نجد عنهما وصفًا مشابهًا للذي رسمناه أعلاه (مع استبدال عبارة «التوق» بعبارة «الحنان»)، في كتاب قيّم صدر للاهوتيّ البروتستانتيّ السويسري إريك فوكس Erich Fuchs، بعنوان «الرغبة والحنان»، اذ يقول الكاتب في مطلع مؤلّفه هذا:

« ... بين الرغبة والحنان ينفتح درب أَنْسَنَة humanisation، حيث الحنان، الذي هو اعتراف مفتون بغيرية alterité الآخر، يقول معنى الرغبة، وحيث الرغبة، التي هي قوة حياة وهبة الفرح، تتّضح على انها ينبوع كل حنان ممكن ...»(٢)

٢ـ الجنس بمعناه الأوسَع ("sexualité" ou "pulsion de vie")

ما عرضناه انما هو المسار المباشَر للجنس، مساره الاقرب الى الغريزة – ولو أنّه تخطّى الغريزة الى افق روحيّ. انه الطريق الأقصر للجنس، اذا صحّ التعبير.

ولكن هناك مسارًا أكثر تشعّبًا واتّساعًا وتعقيدًا، يشمل الحياة الانسانية برمّتها ولا ينحصر بالتقارب الجنسي بوجهه المعهود. في هذا المسار نجد مجددًا الوجهين اللذين أتينا على ذكرهما:

○ فالوجه الغريزي، وجه «الرغبة»، يبقى فيه هو هو، مُتجذّرًا في جسد موسوم، كما رأينا، بالطابع الجنسي corps sexué، ويغذّي بزخمه سائر الميول والنشاطات التي تتّخذ منه تربتها، وإن كان غالبًا يختفي وراءها الى حدّ أن صلتها به لا تَتَّضِح إلا لتحليل دقيق.

○ اما الوجه الروحيّ، وجه التوق، فيتشعّب ويتّسع، بحيث يشمل كل مجالات التوق الانساني الى الحياة بملئها (من هنا

التسمية التي أطلقها فرويد على الجنس، بمعناه الواسع هذا، اذ سماه « نزوة الحياة » (pulsion de vie)، واقصد بذلك كل توق للانسان الى الانتعاش والسعادة والتواصل والاتحاد والمشاركة والمعرفة والتنظيم والابداع.

بهذا المعنى، فإنّ كلّ محبة بشرية، سواءً استهدفت الصديق او القريب او العلم او الفن او الجمال او الوطن او الانسانية ... او الله نفسه، مرتبطة، في آخر المطاف، بالجنس، لا من حيث انها تعابير مموَّهةً عن رغبة الجماع - كما يفسّر كثيرون، عن خطأ، نظرية فرويد، مع أنه اقام تمايزًا بالغ الوضوح بين « الجنس » بمعناه الشامل sexualité (الذي يسمّيه أيضًا Eros بلغة افلاطون) وبين الرغبة في الجماع génitalité -، بل من حيث أن نفس الطاقة الغريزية، طاقة الرغبة، التي تدفع من جهة الى الجماع، انما تشكّل، من جهة أخرى، الوقود الذي يمدّبالزخم والحرارة كلّ تلك الميول التي أتينا على ذكرها، وحتى أسماها.

ليس المجال هنا لنقدّم البراهين التي يدعم بها فرويد علميًا نظريته هذه، انما نكتفي بأن نورد منها ثلاثة على سبيل المثال:

* منها ارتباط الفضول الجنسيّ عند الطفل بما يبديه لاحقًا من فضول عقليّ يحرّكه مثلًا نحو التحصيل المدرسيّ. هذا الارتباط يكشفه مثلًا كون كثيرين من الاولاد الذين تعطّلت فيهم شهيّة اكتساب المعارف، يتّضح، لدى فحصهم العياديّ، أن فضولهم الجنسيّ الباكر قد قُمع بشدة من قِبَل المحيط، فامتدّ اثر هذا التحريم

من الفضول الجنسيّ الى الفضول العام ، كما يمتد أثر فعل ما من الشيء الى مشتقّاته .

○ ومنها ان المتصوّفين ، من سائر الأديان ، قد ألفوا التعبير عن الوجد الإلهي بتعابير الحبّ البشري ، مما يشير الى الصلة الوثيقة بين هذا وذاك ، لا بل أن الكتاب المقدّس ، إن في أسفار الانبياء (بدءًا من هوشع) او في نشيد الانشاد – تلك القصيدة الغزلية الرائعة – مثَّل قصة الحبّ بين الله وشعبه بتعابير الحبّ البشري ، ولم يترفّع عن اكثرها حسّية .

○ ومنها ما لاحظه المحلّل النفسي رينيه لافورغ René Laforgue لدى نساء عالجهنّ ، من أن كبت النزعة الجنسية منذ الطفولة – أي تعطيل وتغييب طاقتها – آل بهؤلاء النسوة الى البرودة الجنسية من جهة – وهذا امر منتظَر – ولكنه (وهذا هو المدهش) آل أيضًا ، لدى اللواتي تلقين منهن تربية دينية ، الى برودة كن يعانين منها على صعيد المشاعر الدينية ، بحيث انهنّ كن يمارسنّ الطقوس الدينية بصورة آلية ، لا روح فيها ، وعلى سبيل الواجب ليس الّا ، دون ان يرافق هذه الممارسة اي شعور . والأدهى ان تلك البرودة الدينية وجدها لافورغ عند راهبات كن يعانين من الكبت الجنسي الذي أشرنا اليه[٣].

ثانيًا : إنحرافات في نمط التعامل مع الجنس

انطلاقًا مما سبق ، سوف نصف انحرافَين في نمط التعامل مع

الجنس ، يؤدّيان كلاهما ، على اختلافهما ، إلى إخفاق للجنس وتقزيم للشخصية .

١- إجهاض التوق

التوق ، الذي هو ، كما رأينا ، وجه أساسي للنزعة الجنسية عند الانسان ، يُجهَض اذا أصبح موضوع الاهتمام الوحيد ، او الاساسي على الاقلّ ، في الممارسة الجنسية ، هو إزالة التوتر وبلوغ اللذة .

الآخر ، عند ذاك ، لا يتعدّى كونه مجرّد وسيلة وذريعة لذلك الاشباع الغريزي . فلا أهمية له بحدّ ذاته . لذا فهو يُنبذ بعد ان تُستنفَد وظيفته ، كما انه قابل للاستبدال بسواه . لا بل في أقصى الحالات يُستغنى عنه كليًا (او يُكتفى منه بصورة خيالية) في سعي انطوائي الى الاشباع : هذا ما يحصل في الاستمناء masturbation، الذي يسميه الفرنسيون plaisir solitaire (اللذة المنعزلة) (وبالمناسبة اشير الى ان الاستمناء ، عند المراهق ، ممارسة مبتورة للجنس ، منتشرة بنسبة كبيرة لدى المراهقين ، وخاصة الذكور منهم ، تقود اليها يقظة الغريزة الجنسية بفعل تحوّلات النموّ ، مع وجود عوائق ، منها داخلية (الأنوية ، الخجل ، الانطواء ، الحذر ...) ، ومنها خارجية اجتماعية ، تحول دون ممارستها في خطّ لقائي ، وصاليّ . مغبة الاستمناء – اذا ما ترسّخ – انه قد يطبع بنمطه الانطوائي الممارسة الجنسية اللاحقة) . وإذا كان الاستمناء يشكّل ذروة إجهاض التوق ، بانطواء الرغبة الجنسية على ذاتها ، فإن الجماع نفسه قد يتّخذ شكلًا

استمنائيًا . وإليكم مقطع للكاتب الروائي جان جيونو Giono يشكّل خير تعبير عن ذلك الوضع :

تقول امرأة لعشيقها :

« – لم يكن لك يومًا نظرة تكفيك حدّتها لتدخل فيّ ، الى ما هو أبعد من جلدي .

« – بلى ، قال لها باسّون .

« – قالت : أتمنى لو ان ذلك صحيح ، ولكن يكفيني النظر الى عينيك لأدري أن ذلك ليس بصحيح . ماذا يمكنك ان تبصر بتلك العينين ؟ لا شيء . لحمًا دافئًا ترغب بوضع يدك عليه . هذا كل شيء . ما الذي يدخل فيك عندما تلمسني ؟ هذا الدفء ، جلدي الناعم ، هذا كل شيء . هل تعتقد انك سوف تتمكن يومًا من أن تسمع قليلًا صوت دمي ؟ هذا لن يحدث قطّ . إنّك اصمّ ، أصمّ ، أصمّ .

بقيت لحظة دون كلام ، ثم قالت :

« – وأنانيّ أيضًا ...

« – أنانيّ ، أنا ؟

« – قالت : نعم . اذناك وعيناك ويداك أنانية . إنّك ترى لنفسك ، تسمع لنفسك ، تلمس وتأخذ لنفسك . انك

تنظر . ماذا ترى ؟ انك لا ترى شيئًا . انك ترى لنفسك . ترى كل ما يمكن ان يجلب لك ذلك من لذة لا أكثر من ذلك »[٤].

فإذا ما حصل ما نحن بصدده ، بُترت انطلاقة الجنس من مرماها البعيد . وكأننا - إذا عدنا الى صورة الصاروخ ذي الطبقتين - كأننا نرى في هذه الحال الطبقة السفلى تنطلق وحدها ، غير آبهة بما كان يُفرض أن تحمله من طبقة عليا ، وإذا بها تجتاز شوطًا يُعبّر عنه بلذة عابرة قد تَخدع بحدّتها ، ولكنها (أي هذه الطبقة السفلى ، طبقة الرغبة) سرعان ما تهبط متثاقلة دون أن تصيب المرمى ، اي دون أن تُلاقي احدًا ، مخلّفة شعورًا بالفراغ والخيبة ، عبّر عنه منذ القديم المثل اللاتيني الشهير Post coitum animal triste (الحيّ ، بعد الجماع ، كئيب) ، وتؤكّده المحلّلة النفسية الكبيرة المعاصرة الدكتوره فرنسواز دولتو Dolto بقولها :

« في العلاقة الجنسية ، يسود الشعور بفراغٍ خاصٍ (من فعل خَصى) وعجز ، اذا لم تتسامَ باللذة ، المودّة وعاطفة الحبّ ».[٥]

٢- تغييب الرغبة

على نقيض ذلك ، في الظاهر ، نجد « الكبت » refoulement، الذي هو تغييب الرغبة ، والذي سوف نعرض هنا باختصار اسبابه ونتائجه[٦]

أ ـ أسباب الكبت

فالكبت يعود الى عوامل داخلية وخارجية :

* **العوامل الداخلية**

تتلخص هذه في الخوف من الرغبة الجنسية :

* بسبب عنفوانها وحدّتها

* بسبب ما تمثّله من خطر الخروج من الذات للاندماج بآخر. هذا ما يفسّر ما يبديه المراهقون في بدايات المراهقة، من حذر ونفور حيال الجنس الآخر يخالط انجذابهم اليه.

* بسبب ما ارتبطت به هذه الرغبة في الطفولة الباكرة من تأزّم وتحريم، لاندراجها في ما يُسمّى بـ «عقدة أوديب»: اذ ان معشوق الطفل الاول، الذي يُتَّخذ نموذجًا لكل معشوق لاحق، انما هو شخص محرَّم (الوالدة بالنسبة للطفل الذكر، الوالد بالنسبة للطفلة الانثى)[٧].

* * **العوامل الخارجية**

اما العوامل الخارجية التي تغذّي الكبت، فهي التحريمات الاجتماعية المحيطة بالجنس، الذي كثيرًا ما يُعتبر tabou ٠اي تحيطه هالة من التحريم القدّسي) كما ذكر أحدهم، والقمع الاجتماعيّ

للجنس منذ بداياته، عبر الاسرة التي تلجم، بوسائل متنوّعة كالترهيب والابتزاز العاطفي والصمت المرتبك او المستنكر، كل فضول او تعبير جنسيَّين.

ب - نتائج الكبت

اما نتائج الكبت، فنلخّصها في ما يلي:

* تغور الطاقة الجنسية في الاعماق، بعيدًا عن دائرة الوعي.

* تصبح على هامش الشخصية، وكأنّها فيها بمثابة جسمٍ غريب.

* يعيش المرء انقسامًا داخليًا، يُقطع بموجبه عن ينابيع حيويته واندفاعه، ويُحرم من زخم طاقة اساسية في كيانه. هذه التجزئة الكيانية لا تسمح له بأن يلتزم كليًا في مواقفه وأعماله وعلاقاته.

* بالمقابل، فإن الطاقة الجنسية المغيَّبة تُعزل عن الشخصية الواعية، فتبقى، من جراء ذلك، على فظاظتها وهمجيّتها، اذ لا تُتاح لها فرصة التفاعل مع العقل والمبادئ والقناعات والقِيَمْ، كي تتهذّب وتتلطّف و« تتحضّر ».

* تُشيع الرغبة المخفيّة في المرء مناخًا من القلق، اذ يحسّ

بها، ولو بشكل مُبهَم، قابعة في أعماقه، مُتَرَبِّصة به بكل توثّبها البدائي الخام، فيحيا في حذر وتوتّر ينغّصان عليه عيشه ويعيقان انطلاقه وإنجازاته.

* هذا وقد تنفجر الرغبة المكبوتة، من شدة الضغط وانعدام التنفيس، فتؤدّي الى سلوك عشوائي يؤذي، لا بل يدمّر احيانًا، المرء وسواه، كما في المأساة التي صوّرها، بشكل أخّاذ، الروائي الكبير جوليان غرين Julien Green في قصته Moîra(٨).

ثالثًا: التعامل الناجح مع الجنس

في مقابل هذا الانحراف، بوجهيه، سوف نرى ان التعامل السليم مع الجنس انما يكون في خطّ الحبّ وفي الاستعداد له.

١ـ خطّ الحبّ

أ - الحبّ هو الممارسة الكاملة للجنس - اذا تناولنا هذا بمعناه الحصريّ وفي مسيرته المباشرة. انه الذهاب به، فيها، الى آخر الطريق.

ب - انه الاندفاع بالرغبة في خطّ اللقاء، بحيث يصبح التحام الاجساد لغة ما بعدها من لغة للتعبير عن لقاء وجداني حميم.

ج - الحب اذًا لا ينفي الرغبة، ولكنه يرفض اكتفاءَها بذاتها

وانطواءَها على ذاتها . الفرق بينه وبين الرغبة البحتة ، هو في ان الحبّ يعتبر الآخر غاية بحدّ ذاته ، مهمًّا بحدّ ذاته ، وليس مجرّد وسيلة لإشباع رغبتي .

د - وحده الحبّ يحقّق مشروع اللقاء الذي يحمله الجنس عند الانسان كما رأينا . ذلك ان الآخر لا يلاقى فعلاً الا اذا اعتُبِرَ في فرادته واستقلاله ، اذا نُظر اليه على انه مهم بحدّ ذاته ، وان اهميّته لا تنحصر في انه يسمح بقضاء حاجتي . ما عدا ذلك ، أكون قد اتخذت منه مجرّد مرآة أتأمل فيها رغائبي اي ذاتي . في هذه الحال لا ألاقي سوى نفسي .

هـ - وإذا كان الآخر مهمًا بحدّ ذاته ، فليس هو اذًا قابلًا للاستبدال بسواه ، وإلّا كان التركيز على الرغبة بتقلباتها ، لا عليه هو . الحب الحقيقيّ وحيد .

و - اذا كان الآخر مهمًّا بحدّ ذاته ، فلا بدّ لحبي أن يرافقه في ديمومته الزمنيّة ، لانني اذا تخليت عنه بعد ان قضيت منه حاجتي ، أكون مركّزًا على هذه الحاجة ، لا عليه هو . من هنا ان الحبّ الحقيقي حبّ يتميّز بالوفاء والديمومة ، خاصة وإن الحياة بأكملها تكاد لا تكفي لأَتَوَغَّل في اكتشاف الآخر والولوج الى أعماقه واستكمال اللقاء بيني وبينه على كل صعيد .

٢ـ الحب والزواج

من هنا ان الإطار الطبيعي للحبّ هو الزواج ، الذي يكرّس وحدانية الحب وديمومته ، بوعد يتبادله الشريكان أمام الملأ (لأن الانسان كائن اجتماعي بطبيعته لا يترسّخ وعده إلا اذا استشهد الجماعة عليه).

انما لا بدّ من التوضيح هنا أن أهميّة الزواج تأتيه بالدرجة الاولى لا من حيث هو عقد شرعيّ ، حتى اذا باركت الكنيسة هذا العقد ، بل من حيث هو خير ترجمة للحبّ في وحدانيته وديمومته وخير حافظ له من تقلّبات الرغبة . من هنا انه المحجّة الطبيعية للحبّ اذا نضج . لذا فإننا نرى كثيرين ممن في الغرب يتساكنون عن حبّ خارج إطار الزواج، ينتهون اليه في آخر المطاف ، ولا أظن ان الدافع الوحيد او الأهم الى ذلك هو التسهيلات الاجتماعية التي يقدّمها لهم عقد الزواج...(٩).

من هنا ، بالمقابل ، ان الزواج ، اذا أُفرغ من الحبّ ، صار قالبًا بدون مضمون وانحدر الى مستوى جواز شرعي للممارسة الجنسية . من هنا أيضًا أن «عفّة الزواج» ، التي سألتم عنها ، هي ، في أحد أهمّ مظاهرها ، المحافظة على اصالته بحيث يُحرَص على ان لا يمارَس الجنسُ فيه إلا في إطار اللقاء الوجدانيّ العميق بين الزوجين ، وإلّا تحوّل الشريك الى أداة للتنفيس عن حاجة او الى آلة للانجاب .

٣- الاستعداد للحبّ

أ - طريق الحب طويل من الذات الى الآخر، من مجرّد الحاجة الأنوية الى التوق الذي يتعهّد الحاجة ويسمو بها، أي يوظّفها ويتخطّاها بآن.

ب - الاستعداد للحبّ يتطلّب بالتالي توجيهًا للرغبة بحيث يتحاشى المرء أن يفرّط بها، كما يتحاشى بالمقابل أن يغيّبها:

○ لا يفرّط بها، اي انه يمتنع قدر الامكان عن ممارستها في خطّ التنفيس الانطوائي عنها بدون اقامة وزن حقيقي للآخر، وذلك سواء عن طريق الاستمناء (اي العبث بالاعضاء التناسلية بقصد الحصول على لذة من جراء إثارتها)، الذي لا يكون الآخر فيه حاضرًا - اذا حضر - إلا بشكل صورة في الخيال، او عن طريق ممارسات جنسية تكون على نمط الاستمناء ولو انها جرت في الظاهر مع شريك، اذ لا يتعدّى دور هذا الاخير دور اداة للمتعة الذاتية.

○ ولكنّه لا يُغيّبها ايضًا، لانها تربة الحبّ وخزّان طاقاته.

ج - من هنا ان عليه أن يتعامل مع الرغبة الكامنة فيه بدون استهتار وتفريط، انما ايضًا بدون تشنّج ومكابرة. ينبغي

له أن يتعايش معها ، أن يقبل ببساطة بوجودها وفعلها فيه ، أن يتعاطى معها بالحسنى ، مستفيدًا من زخمها من جهة ومهذّبًا اياه تدريجيًا وبالنَفَس الطويل ، عبر توجيهه في مجالات « التوق » التي أتينا على ذكرها عندما تحدّثنا عن « الجنس » بمعناه الواسع العريض .

د - هذا يعني ان يحفظ الشاب نفسه من كل انطواء ، فينفتح على كلّ مجالات العلاقة الانسانية والإبداع الانساني ، بكل حيوية الرغبة الكامنة فيه . فبدل أن يتسمّر في صراع عقيم مؤذٍ مع الرغبة ، فليعمل على تحريرها من الانطوائية وليطلّ بها ، ومحمولًا بزخمها ، على كلّ رحاب الوجود : من زمالة وصداقة وعمل يدويّ وعقليّ واكتشاف للطبيعة وعلم وأدب وفن والتزام اجتماعي وديني . ولينفتح بها ، في اول المطاف وآخره ، على الله ، ألفها وياؤها ، ذاك الذي لا يُلاقى فعلًا الا عبر انفتاحنا الحقيقي على الآخر الإنسانيّ .

هـ - خير حماية للمراهق من الانجراف وراء الجنس الرخيص ، انما هي اذًا أن لا يترك لحيويته مجال الانطواء على ذاتها ، بل ان يفتحها بسعة وسخاء على العالم ، وقبل كل شيء على العالم الصغير الذي يحيط به مباشرة ، فيحاول أن يراه بعينين جديدتين وأن ينفذ الى حقيقته ، المستترة احيانًا

وراء المظاهر لمن لا يراها بعين القلب ، وأن يلتفت بانتباه الى حاجات الذين يجاورونه[١٠] . العادة السرّية ، وما شابهها من ممارسات جنسية غير ناضجة ، انما هي ضرب من ضروب الانطواء على الذات ، قد يلجأ المراهق اليه بفعل ضغط الأزمات - كما قلتم - من نفسية واقتصادية وروحية ، فيهرب به من المواجهة . اما من اعتمد خطّ الانفتاح ، من صار مشدودًا الى الوجوه التي تحيط به ، منصتًا الى معاناتها وشكواها ، مصغيًا الى أصوات الكون ونداءات المجتمع ، هذا يتحوّل تلقائيًا عن الاستغراق في ذاته او الانكفاء اليها .

وفي هذا الخطّ يبطل التضادّ المصطنع ، الذي أشرتم اليه ، بين العقل والعاطفة ، وهو تضادّ لا يقوم إلّا بين عقل جافّ مجرّد ، وبين عاطفة طغت عليها غريزة لا تقيم الحساب الا لاشباع نزواتها كيفما اتفق . اما في الخط الذي أشرنا اليه ، فيتأنسن العقل ويفقد بالتالي جفافه ، كما تتأنسن العاطفة بالحدّ من انويّتها ، اذ العقل والعاطفة يدخلان في تفاعل يغتنيان به أحدهما بالآخر . مؤسف ان نكون ، نحن المسيحيين - كما يلاحظ محلّل نفسيّ مسيحيّ بريطانيّ ، جاك دومينيان Jack Dominian[١١] - قد حوّلنا الفضيلة الاساسية في المسيحيّة ، الا وهي المحبة ، الى مجرّد موقف عقلانيّ ، لا حرارة فيه ، وذلك

لاننا بترناها عن حيوية الغريزة ، فأفسدنا الغريزة وأفسدنا المحبة بآن ، بذلك الطلاق المصطنع الذي أقمناه بينهما . لم تكن محبة يسوع على هذه الشاكلة . كان يسوع يحبّ بكلّ كيانه ، بما فيه عاطفته وجسده . ففي الانجيل تتكرر عنه عبارة « تَحَنَّنَ » (مثلا في لوقا ٧ : ١٣) ، واذا عُدنا الى صيغتها اليونانية كما وردت في النص الأصليّ ، نجد عبارة splankhnizein، وهي تعني حرفيًا « تحرّكت أحشاؤُه »[١٢] ، اي انه حنان صادر من أعماق الكيان ويهزّ الكيان كلّه .

ز - في خطّ الاستعداد هذا ، يلعب الاتصال بالجنس الآخر دورًا بالغ الاهمية . فالاختلاط ليس مجرّد فرصة للتعرض لتجربة الانسياق وراء الشهوة - كما لا يزال يُنظر اليه ، للأسف ، في كثير من الاحيان ، في أوساطنا الاجتماعية بشكل عام ، والدينية بشكل خاص إنّه قبل ذلك ، وبشكل أكثر جوهرية ، فرصة لأنسنة الجنس بتلطيف أنويته الغريزية . الشاب المنقطع عن الجنس الآخر ، مُعرَّض للنظر الى المرأة من زاوية خياله وحسب ، ذلك الخيال الذي تكيّفه الشهوة . فإذا به يحجّمها على قياس شهوته ، يختزلها في بدنها من حيث أنه حامل معانٍ جنسية ، فيراها حورية أو شيطانًا ، ولكنّه لا يراها انسانة كما هي بالحقيقة . هكذا فبدل ان تنضبط شهوته من

جراء ابتعاده عن النساء، كما يُظنّ، تزداد اشتعالًا - وإن خفيًّا - بسبب ما يغذّيها به من خيالات لا يُتاح لها ان تحتكّ بالواقع فتتصحّح به. فإذا ما حصل أن التقى بالمرأة، وهو على هذه الحال، فإنه يسقط عليها هواماته هذه، ويعرّيها بالفكر من ثيابها وإنسانيّتها بآن. الاختلاط، على العكس، يسمح تدريجيًا بتخطّي الخيال المهووس بالجنس الى التعاطي مع امرأة حقيقية يكتشف الشاب، يومًا بعد يوم، ان لها، بالاضافة الى سماتها الجنسيّة، سمات إنسانية (من افكار ومشاعر وهواجس وتطلعات وآمال ومشاكل وقلق ومعاناة). فيعرفها، شيئًا فشيئًا، امرأة وليس مجرّد أنثى. هكذا تبدأ الرغبة فيه بالتحوّل من الانهماك بذاتها وخيالاتها، الى أفق العلاقة بكائن إنسانيّ آخر، متكامل، يتعدّى شخصه ما يحويه من سمات أنثوية، فيتعلّم ان لا ينظر الى هذه السمات الا في إطار الكيان كلّه وبالاضافة اليه.

ج - وفي سياق الاختلاط هذا، قد تنشأ علاقة خاصة بين الشاب وبين إحدى الفتيات، وقد تتطور هذه العلاقة من صداقة الى حبّ، او بالاحرى الى مشروع حبّ يكتشف الشاب بالخبرة - خاصة اذا ما رافقه في مسعاه هذا من كان اكثر منه وعيًا وخبرة - قلتُ يكتشف نواقص هذا المشروع وعثراته، فيتعلّم في ضوء هذا

الاكتشاف ، أن ينتقل تدريجيًا من « حبّ الحبّ » (اي اتخاذ الآخر ذريعة لتذوّق أنويّ لنشوة الحبّ) الى حبّ الشخص الذي هو موضوع الحبّ ، اي انه يتعلّم الاهتمام به من حيث هو ومن اجل نفسه ، فتنضج هكذا شيئًا فشيئًا طاقة الحبّ فيه بتغليب « التوق » على مجرّد « الرغبة » . ويتعلّم بالخبرة ايضًا كيف تأتي التعابير الجنسية في تدرّج يرافق ويحاكي تدرّج الحبّ في معارج النضج ، بحيث تكون لغة تخاطب صادقة لا تتجاوز في تعابيرها ما وصل اليه فعلًا الرباط الوجدانيّ من تقدّم .

٤ـ البتولية المكرّسة

أ - لن أتعرض - كما انتظر مني بعضكم - للمقاييس التي تسمح للشاب أن يعرف اذا كان مؤهّلًا للبتولية المكرّسة ام لا ، فهذا ، من ناحية ، ليس من اختصاصي ، ثم انه ، برأيي ، موضوع شخصي ينبغي للشاب أن يسترشد بشأنه المرشد الروحيّ المتنوّر من جهة ، والمحلّل النفسيّ من جهة أخرى . انما سأكتفي ببعض الخطوط العريضة التي من شأنها ، باعتقادي ، أن تضع البتولية المكرَّسة في إطارها الصحيح .

ب - إن خطّ الاستعداد للحبّ ، الذي تحدّثنا عنه ، هو ، على ما أعتقد ، الخط المؤدّي الى الزواج الناجح من جهة ،

والى البتولية المكرّسة الأصيلة من جهة أخرى .

ج - ذلك أن البتوليّة ، اذا استقامت ، انما هي في خطّ الحبّ ، اي في خطّ توظيف طاقة الرغبة في سبيل التوق . فالبتولية الحقة ليست هروبًا من الحبّ ، وإلّا كانت انكفاء الى حلم الاكتفاء الذاتي الذي هو من مخلّفات الطفولة ، والذي يحتمي به المرء من مجازفة ملاقاة الآخر . وقد يغذّي هذا الانكفاء ، لدى المتبتّل غير الأصيل ، سائر التعابير النرجسية النكوصية (اي التي تتقهقر بها الطاقة العاطفية الى المراحل التي يُفرض ان يكون النموّ تجاوزها) كالشراهة والمشاكسة وعشق المال وشهوة التسلّط ... او ، على صعيد الجنس ، نزعات ذات طابع نرجسيّ كالنزعة الى الاستمناء او الى الجنسية المثليّة .

البتولية الحقة ، كما قلنا ، ليست هربًا من الحبّ ، بل تجاوزًا للحب الى افقه الاوسع . ولكن التجاوز هذا لا يمكن أن يتمّ الا مرورًا بطريق الحبّ ، انما دون التوقّف عنده . باعتقادي ان ما من احد يمكنه ان يتطلع بثقة الى التزام البتولية المكرّسة ان لم يكن قد اصبحت لديه القدرة على أن يحب امرأة جسدًا وروحًا ، بكل ما في الحبّ الصحيح من انفتاح ونضج . المؤهَّل اكثر من سواه لسلوك درب البتولية المكرّسة هو - على الصعيد النفسيّ - من

كان متصالحاً في العمق - وليس ذهنيًا وحسب - مع الطاقة الجنسية الكامنة فيه، بحيث انه يختبرها طاقة ايجابية وصالحة في الاساس، ويتحسّس لجاذبيتها، ولا يرتاع وينفر اذا ما تحرّكت بها مشاعره، ولو كان هذا التحرّك يتطلّب منه جهدًا لضبط هذه الطاقة المتوثّبة، بغية عدم التفريط بها. اما الذي غيّب النزعة الجنسية فيه خوفًا من مواجهة ما يفرضه عليه ضبطها من صراع، بحيث انه لم يعد يتحسّس لها ويحسب لها الحساب، فذلك تحوم الريبة حول اصالة التزامه للبتولية، ولو كانت دوافعه الروحية ممتازة في الظاهر(١٣).

د - اما الذي استطاع ان يتعامل بنضج مع الرغبة الجنسية فيه بحيث استطاع - دون تغييب لها او تجاهل - ان يدجّنها، اذا صحّ التعبير، ويروّضها، وأصبح بالتالي قادرًا على توظيفها في حبّ صحيح، انما هو ايضًا، باعتقادي، المؤهّل اكثر من سواه لتجاوز هذا الحبّ الى ما هو أبعد منه، اي لتكريس الذات لمن هو منبع الحبّ ومصبّه. هكذا يمكن ان نفهم عبارة المعلّم: «... في الخصيان من وُلدوا من بطون امهاتهم على هذه الحال، وفي الخصيان من خصاهم الناس، وفي الخصيان من خَصوا انفسهم من اجل ملكوت السماوات» (متى ١٩:١٢). الاخيرون لم تغب لديهم طاقة الرغبة، سواءً

بفعل خوفهم الفطريّ منها (« خصيان ولدوا من بطون أمهاتهم على هذه الحال »)، او بفعل خوف فرضته عليهم التحريمات الاجتماعية والتربية القمعية (« خصيان خصاهم الناس »)، ولكنهم يتمتعون بوجود هذه الطاقة فيهم بكلّ توثّبها، انما يوجّهونها بملء حريتهم - بمعونة الله بالطبع وبفضل تقبّلهم لفعله العجيب فيهم - يوجّهونها الى ما هو أبعد من مآلها الانسانيّ المألوف، اي الى لقاء يفوق لقاء « اللحم والدم »، مهما سما شأن هذا الاخير.

هـ - ولا بدّ من الاشارة هنا الى ان كل مؤمن هو، بمعنى من المعاني، مكرَّس. فالمؤمن الذي يسير في خطّ الحبّ البشريّ الصحيح، انما يحيا هذا الحبّ كمشاركة في الحبّ الالهي الذي هو الف الحب البشري وياؤه. إن حبّه البشريّ مطعَّم على الحب الإلهي: هذا هو معنى سرّ الزواج. ولكن البتول المكرَّس هو ذاك الذي يطلب الله مباشرة وليس من خلال خبرة الحبّ البشريّ، ذاك الذي يقفز الى الله قفزًا اذا صحّ التعبير[١٤]، مستخدمًا في سبيل ذلك، وبشكل فريد تتآزر في إحقاقه النعمة الإلهية مع مجهود إرادته، طاقة الرغبة التي زرعها الله فيه. المؤمن العاديّ يُطلّ على الله عبر تلك العطيّة الإلهيّة المميَّزة التي هي الحبّ البشريّ، بحيث يصبح هذا

الحبّ مِعبَرَه الى الله . اما البتول المكرَّس ، فإنّه يتخلّى طوعًا عن تلك العطيّة الإلهيّة ، لا ازدراء بها واستعلاء عليها ، بل لانه بذلك يبغي التعبير عن تفضيله وجه المعطي على أبهى عطاياه . يواجه الله في فقرٍ وعري كاملَين[١٥] ليعبّر بذلك عن ان الله هو حاجته الوحيدة[١٦] . ينتصب وحيدًا امام الله الوحيد[١٧] . ولكن الاله الوحيد الذي يواجهه انما هو وحدانيّة ثالوثية ، وحدانية حبّ ، يغرف منها المتبتّل حبًّا يسمو بطاقة الرغبة الكامنة فيه ويؤجّجها بآن ، واذا بها تنسكب حنانًا ، لا على البشر كلّهم وحسب (فالمتوحّد « منقطع عن الجميع وملازم للجميع » بآن ، حسب عبارة إڤاغريوس الشهيرة) ، بل على الخلائق كلّها . لذا فالبتول المكرّس حقًّا هو أبعد الناس عن الجفاف الذي قد يُظنّ انه يتّصف به ، لان قلبه يفيض بالحنان على سائر الكائنات ، كما وصفه بعبارات بالغة الدلالة هذا النص لأبينا اسحق السريانيّ (القرن السابع ميلاديّ) :

« ما هي النقاوة ، باختصار ؟ انها قلب رؤوف حيال كلّ الطبيعة المخلوقة (...) . وما هو القلب الرؤوف ؟ قال : « انه قلب يلتهب بالمحبة لكل الخليقة ، للناس ، للطيور ، للبهائم ، للشياطين ، لكل مخلوق . عندما يفكّر بهم ، تذرف عيناه دموعًا . رأفته قوية وشديدة (...) الى حدّ

ان قلبه يتحطّم اذا ما تكبدّت اوضع الخلائق ضررًا أو المًا . لذا فهو يصلّي بدموع في كل ساعة (...) من أجل اعداء الحقّ ومن اجل كل الذين يُلحقون به الاذى ، لكي يُحفَظوا ويُغفر لهم . لا بل انه يصلّي حتى من اجل الحيّات ، اذ يُحرّكه حنوّ فائق ، يتيقظ في قلبه بلا قياس ، على صورة الله »[١٨]

و - هذا المتبتّل لا بدّ له عادة من ان يخوض جهادًا كي يحافظ على خطّ التكريس الذي اختاره . وقد يقسو هذا الجهاد احيانًا . ولكن نمط تبتّله - الذي اوضحناه - والذي هو تبتّل يسمو بالنزعة الجنسية دون التنكّر لها ، او الاكتفاء بصدّها مكرَهًا ، كمن هو مغلوب على أمره ، إن نمط تبتّله هذا يحميه من التمزّق الداخليّ ويحافظ على وحدة شخصيته وتكاملها . صحيح انه يخوض صراعًا ، ولكنه يخوضه انطلاقًا من قناعة صميمة ، تشمل لا ذهنه وحسب ، بل كلّ كيانه . لذا فانه قد يعاني ويتألّم ، ولكن لا سبيل للندم اليه[١٩] . وهو يعرف ، انطلاقًا مما اختبره في شخصيته من توجيه لطاقة الرغبة في خطّ التوق ، ان الزواج ، الذي يسلك الدرب نفسه ، انما بأسلوب آخر ، وضع محترم جدًا وشريف جدًا ، وانه غاية بحدّ ذاته لانه « سرّ الحبّ » على حدّ تعبير يوحنا الذهبي الفم ، والحبّ لا يمكن الا ان يكون غاية . لذا

فلا يخطر على باله أن يعتبر الزواج مجرّد وسيلة للاحتماء من النزعة الجنسية (كما يُستَشَفّ من سؤال أحدكم) ، ولو كان هذا الحلّ (اي الانخراط في الزواج) أشرف بحقّ – كما أشار سؤال آخر – من ممارسة العادة السرية تنفيسًا للمتبتّل عن رغبته الجنسية . جميل جدًا ما كتبه أحدكم – وهو يقول انه اختار البتولية – من انه يرمي « ان يوجّه ذاته من خلال حياته الاكليريكية نحو حياة جنسية ناجحة لا خلل فيها » . ان هذا قد فقه ان التبتّل ليس بترًا للجنس ، كما قد يُظنّ ، بل تحقيق له بشكل غير مألوف ولكنه بالغ النجاح والبهاء[٢٠] اذ كيف يُبتَر الجنس – وهو ، كما رأينا ، خزّان طاقة الحبّ عند الانسان – لدى من اختار بالضبط ان يكرّس ذاته وحياته للحبّ في اسمى مظاهره؟ وكأني بهذا الشاب ، الذي نحن بصدده ، قد أدرك هذه المعاني عندما كتب :

« كيف يمكن أن أوجّه ذاتي من خلال حياتي الاكليريكية نحو حياة حنسية ناجحة لا خلل فيها؟ **وخصوصًا** (التشديد مني : ك.ب.) إني سأكون (إن شاء الله) (...) كاهنًا بتولًا »

وكأنه يوحي بأن المتبتّل حقًا ، انما يلوذ من الحبّ الى مزيد من الحبّ[٢١]، وفقًا لهذا البيت الشعريّ الجميل

للشاعرة المعاصرة ماري نويل Marie Noël:

"Le remède d'aimer c'est d'aimer davantage"

(إنّما يُداوى الحب بمزيد من الحب).

ز – هذا المتبتّل، لانه قبل في الصميم الطاقة الجنسية الكامنة فيه، أصبح، بطبيعة الحال، قادرًا على ان يقبل، بدون حرج، الجنس الآخر. ان التزمت و «التبربع» (كلمة عامية تشير الى الذعر) والاستعلاء، حيال الجنس الآخر – وهي شوائب لم تخلُ منها للأسف المسيحية التاريخية، وهي لا تزال من آفاتها الى يومنا – انما هي نتيجة موقف متأزّم لدى المرء حيال نزعة جنسية فيه لم يقوَ على التصالح معها. اما من تبتّل انطلاقًا من موقف ايجابيّ ناضج من الرغبة الجنسيّة، ومن تعهّدها الواعي الحرّ في خطّ التوق الأرحب، هذا يسلك تلقائيًا – ولو احتاج الى يقظة ومراقبة للنفس – قلت إنه يسلك تلقائيًا، مع الفتيات والنساء، سلوكًا شبيهًا بذاك الذي نراه لدى يسوع في الانجيل، اي سلوكًا يتّسم بالصفاء والخفر والحرية بآن، لا غواية فيه ولا خوف ولا استبعاد ولا ازدراء ولا استعلاء[٢٢]. ان المتبتّل هذا، الذي، كما قال احدكم، «يعيش حياته العاطفية والجنسية بحيث يبقى امينًا لمن دعاه»، اي هذا الذي استطاع ان يوفّق بين

حيوية الجنس فيه وبين تخطّي الممارسة الجنسية سعيًا الى الحبّ الاكبر، هذا يستطيع ان يجد تلقائيًا الاسلوب المناسب في «الحديث الجنسي مع الشبيبة» الذي يسال عنه احدكم. ذلك انه يضفي على هذا الحديث الصفاء الذي يجده في ذاته، فينقل الى الشباب صورة صحيحة عن الجنس لا تشوبها العِقَد، تلك التي قد تقود، لولا ذلك، المربيّ إمّا الى تبخيسٍ للجنس وتاثيمه، إمّا الى غلوّ في تقريظه على سبيل التعويض. حتّى «الاوساط الضيّقة» التي يشير اليها السؤال نفسه، اي الاوساط المتزمتة كما فهمتُ، يستطيع هذا الكاهن المتبتّل ان يواجهها بأفضل الشروط، اي بصفائه الذي لا يترك المجال لأيّ سوء تأويل، وقد يسمح له بالتالي بأن يساعد هذه الاوساط على الانتقال الى رؤية للجنس أسلم وأفضل.

حواشي الفصل الثالث

(١) راجع :

Maurice ZUNDEL : Hymne à la joie (1964), Ed. Anne Sigier, Sainte-Foy (Québec), Canada, 1962, pp. 85-87.

(٢) راجع :

Erich FUCHS : Le Désir et la tendresse. Sources et histoire d'une éthique chrétienne de la sexualité et du mariage (1979), 6^{e} édition, Coll. "Le champ éthique", n° 1, Ed. Labor et Fides, Genève, 1989, p. 2.

(٣) راجع :

D^{r} René LAFORGUE : La foi et l'équilibre psychique de l'homme (1953), in Au-delà du scientisme, Ed. du Mont-blanc, Genève, 1963, pp. 118-135.

(٤) راجع :

Jean GIONO: Le chant du monde, cité in Pierre DENTIN et une équipe d'aumôniers: Ensemble. Fiches de culture religieuse. Jeunes gens, Jeunes filles, 6^{e} série, fiche n° 7, p. 1, Amiens, 1969.

مذكور في : كوستي بندلي : الجنس ومعناه الانساني ، منشورات النور ، بيروت ، ١٩٨٥، ص ٤٠.

(٥) راجع :

Françoise DOLTO : La cause des adolescents (1988), Le livre de poche, Paris, 1992, p. 77.

(٦) من اجل التوسّع في الموضوع ، راجع :

كوستي بندلي : الجنس ومعناه الانسانيّ ، مرجع مذكور ، ص ٢١٤-٢٣٥ .

(٧) عن « عقدة اوديب » او « مركّب اوديب » ، راجع :
كوستي بندلي : المرجع السابق ، ص ٢١٨-٢٢٢.

(٨) راجع :
Julien GREEN: Moîra, Plon, Paris, 1950.

(٩) لاحظ أحد كبار إخصائيّي الارشاد الزوجي الفرنسيين المعاصرين ، جان لومير ، ان العديد من المساكنات التي تبدأ مؤقتة ، سرعان ما تكتسب صفة الديمومة ، لان الشريكين يتعدّيان (وهذا برأيي بفعل دينامية الحبّ) هاجس الاشباع الآني الى لقاء أكثر عمقًا واصالة لانه يندرج في سياق الزمن . راجع :
Jean - G. LEMAIRE: Les thérapies du couple (1971), Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1978, pp. 78-79.

(١٠) راجع :
Michel QUOIST: Aimer ou le journal de Dany, Les Éditions Ouvrières, Paris.

(١١) راجع :
Jack DOMINIAN: Maturité affective et vie chrétienne (Cycles of affirmation. Psychological essays in christian living, Londres, 1975, traduit de l'anglais par Jacques Mignon, Cerf, Paris, 1978, p. 147.
راجع ايضًا :
* Gustavo GUTIÉRREZ: Théologie de la libération. Perspectives (1971 et 1973), traduit de l'espagnol par François Malley, éd. Lumen Vitae, Bruxelles, 1974, pp. 201-202.
* André BERGE: Les maladies de la vertu (1960), 2e éd., Grasset, Paris, 1963, pp. 169-171.
* كوستي بندلي : الابعاد الروحية للتربية الجنسية ، سلسلة « الانجيل على

دروب العصر»، ٨، منشورات النور، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٨-٣٤.

(١٢) راجع:

Gustavo GUTIÉRREZ: Théologie de la libération, op. cit., p. 201.

(١٣) راجع:

D^r Ch.- H. NODET: Ce qu'une psychologie en profondeur peut apporter au directeur de conscience, pp. 311-312, in Direction spirituelle et psychologie, "Etudes Carmélitaines", Desclée de Brouwer, 1951, pp. 280-315.

يقول موريس بلّيه، الكاهن والمفكّر الكاثوليكي، الخبير بالتحليل النفسيّ، متحدّثًا عن الكهنة المتبتّلين:

«... كل مرة تكون فيها طاقة الجنس، عند الكاهن، مكبّلة، مجمّدة، مشطوبة، مشوّهة، فإن ما كان مفروضًا ان يذهب لديه الى ابعد من «الحب البشري»، ما كان مفروضًا أن يكون الهبة الممنوحة من الروح الى عمّال الملكوت هؤلاء، يصبح، بكل غباوة، فشلًا بشريًا. إنه لأمرٌ مُحْزِن يثير سخرية الناس أو المهم».

Maurice BELLET: La peur ou la foi. Une analyse du prêtre (1967), 5^e édition, DDB, 1968, p. 170.

ذلك ان الذي لا يملك، داخليًا، «حرية أن يُحِبّ كرجل» Bellet, p. 168، أنّى له أن يبلغ الحرية الارقى التي يقتضيها تجاوز المرء حبًّا، للحب الجنسيّ؟

(١٤) يقول اللاهوتي الكاثوليكي، الاب لاون كزافييه - ديغور

«بإمكان المتزوّجين أن يتأمّلوا، في حالة البتولية، تعبيرًا عن اللقاء الوحيد والمباشَر بالربّ الذي يسعون هم اليه عبر حياة الثنائي الزوجي».

Léon XAVIER-DUFOUR s. j: Mariage et virginité selon Saint Paul, p. 183, in Affectivité et vie spirituelle, "CHRISTUS", n° 168 hors série, novembre 1995, Assas éditions, Paris, 2^e éd., 1996, pp. 171-185.

(١٥) هذا الفقر والعري ناتجان عن كون اللقاء الذي يصبو اليه المتبتّل بكل

كيانه، هو لقاء مع كائن لا يمكن رؤيته ولمسه إلّا بحاسّة الايمان. ولكن هذا التوق الى محبوب لا يمكن احتواؤه او وضع اليد عليه، اذا كان صميمًا، يحرّر الرغبة من روح التملّك ويفتحها بالتالي على المحبة الخالصة بكل أبعادها، الالهية والبشرية، ويحفز الى لقاء اللامنظور في الاخوة المنظورين.

يقول الاب الكاثوليكي ميشال رونديه:

«هذا اللقاء يُعاش في الايمان، هنا تكمن فرادته، فالآخر الذي يُسعى اليه ويُرغَب ويُرتَجى، لا يمكن الانضمام اليه الا في الايمان. اذا شئت أن أجده حقيقة، ينبغي أن أتخلّى عن رؤيته كما وعن لمسه:

«طوبى للذين لم يَرَوا وآمنوا» (يوحنا ٢٠:٢٩)».

ويستشهد هذا الكاتب بعبارات الروحاني الكبير يوحنا الصليب Jean de la Croix

«لكن هذا الجمال الفاتن
لا يُدرَك الا بالايمان
فالمرء يتذوّقه في شيء غامض
يتلهّف القلب لنواله».

ويضيف:

«إن وجه الله، الذي أكرّس له حياتي، يبقى خارج متناولي. هذه المسافة (بيني وبينه) هي التي تفتح قلبي على حبّ الذين هم مثلي مواضيع حنانه».

Michel RONDET s. j: Célibataires, pour qui? pp. 140, 141, 145, in Affectivité et vie spirituelle, op. cit., pp 137-145.

(١٦) نجد عند احد كبار آباء الكنيسة الشرقيين، غريغوريوس النزيانزي (عاش بين حوالي ٣٢٠ وسنة ٣٩٠م)، هذه المقارنة بين الزواج والبتولية:

«الزواج ختم حنان لا يقوى شيء على كسره (...)
ان اللذينَ يتّحدان في الجسد ما هما إلا روح واحدة
وبحبهما المتبادل يشحذان حافز ايمانهما،
لان الزواج لا يبعد عن الله
ولكنه يُدني منه، خاصة وأن الله نفسه يدفعنا اليه.

على ذلك تجيب البتولية :

أترك لغيري ما يعطي لهذه الحياة قيمة . انما بالنسبة اليّ

ليس سوى شريعة واحدة ، فكرة واحدة ، وهي أن أمتلئ من الحبّ

الالهيّ وأنطلق من هنا الى الله المالك في السماء ، صانع النور

(...) به وحده

ارتبطتُ بالحبّ » .

Grégoire de Nazianze: Sur la virginité, Poèmes dogmatiques (PG 37, 537-555), cité par Olivier CLÉMENT: Sources. Les mystiques chrétiens des origines, textes et commentaires, Ed. Stock, Paris, 1992, pp. 260-261.

(١٧) من هنا سُمّي الراهب « متوحّدًا » ، وبالفرنسية moine التي أصلها العبارة اليونانية monakhos، المشتقة من monos (وحيد) .

(١٨) راجع :

Isaac le Syrien: Traités ascétiques, 81e traité (p. 306), cité par O. Clément: Sources..., op. cit., p. 205.

(١٩) لقد كتبت جانين مارّونكل ، وهي إخصائية في العلاج النفسي لها خبرة بالمكرّسين من رجال ونساء :

« لا شكّ بأنّ العفة (في البتولية المكرّسة) هي كفاح يطال كل نواحي الشخصية (...) . هذا الحرمان الجنسي ، انما هو واقع حقيقي ينبغي مواجهته . والمعروف انه ، اذا تجاهله المرء او احتمله على مضض، قد يعبّر عن نفسه عبر مختلف الاشكال التي يتّخذها الجسد ليتكلّم بدلًا من الذات ، وخاصة عبر المتاعب الصحيّة .

هدف العفة ليس الإهلاك ، بل ، على العكس ، الإحياء . ان التخلّي بتمام الوعي عن الزوجية والذريّة ، يمكن ان يقود الى ايجاد دينامية جديدة ، انه مسيرة وسعي ، في سبيل اللقاء والتواصل (...)

العفة تتيح للمرء أن يصبح أكثر إنسانية . ويكون دربها ، اذ ذاك ، بمثابة إبداع . ان الذين واللواتي سمعتُهم يتحدّثون عن حياتهم المكرّسة ، يقولون : «لو طُرح عليّ أن أعيد الخيار ، لَسِرتُ مجدّدًا في نفس الطريق » ...»

Jeannine MARRONCLE: Hommes et femmes dans la vie consacrée, p. 168, in Affectivité et vie spirituelle, "CHRISTUS", n° 168 hors série, novembre 1995, Assas éditions, Paris, 2e éd., 1996, pp. 161-170.

(٢٠) نجاح الجنس مهمة تعني المتزوج والمتبتّل كليهما، كلاً على طريقته. هذا ما يوضحه مثلاً موريس بلّيه Maurice Bellet. فإنه يبرز ترابطًا، لدى الكاهن المتبتّل، بين فشل العفة وفشل الجنس، ويضيف انه من الضروري، بالتالي، ان يُفتّش عما هي، عند الكاهن المتبتّل، «حقيقة الجنس»، ويؤكّد انها، في آخر المطاف، نفس ما هي عند كل انسان، الا وهي ان يحيا المرء وضعه الجنسيّ الانسانيّ بحيث يبلغ الى اقصى حرية ممكنة، وهي الحبّ الحقيقي. راجع:

Maurice Bellet: La peur ou la foi, op. cit., p. 163.

أمّا خصوصية الكاهن المتبتّل حقًّا في هذا المجال، فانّها، بنظر هذا الكاتب، في كونه «ذلك الانسان الذي يتعهّد جنسيته في خط حبّ، صوفيّ وأخويّ بآن، حيث يُتخطّى الاشباع الجسديّ الاكثر استقامة، وحيث يُنقَل ويُحوَّل الرباط العاطفي مع الزوجة والاولاد، الى محبّة أسمى وأشمل».

M. BELLET: op., cit., p 177.

(٢١) يقول إخصائيان نفسيّان باريسيّان، إن المتبتّلين من اجل الملكوت، كثيرًا ما لا يقدّرون حقّ قدره الاحباط العاطفي العميق الذي يتضمّنه تخلّيهم عن الحياة الزوجية، والذي قد يتهدّدهم بالاختناق المعنوي. ويشيران الى ان الحلّ الوحيد لمواجهة هذا الخطر، انما هو أن لا ينحصر حبّهم لله وللآخرين في ذروة روحهم، بل ان يعمّ كيانهم كلّه، بما في ذلك عالم المشاعر. راجع:

Françoise BORDES et Pierre-Pascal GAUDET: Désir de Dieu, désir de l'autre, p. 155, in Affectivité et vie spirituelle, op. cit., pp. 146-160.

وهذا ما رأينا انه ممكن اذا تفاعل المتبتّل مع الطاقة الجنسية فيه دون تغييبها وعزلها وتحييدها وتجميدها، بحيث يترك لحيويتها أن تسري في

كيانه كلّه وأن تنعش وتغذي كافة مواقفه وخياراته، حتى أسماها، كما يتصاعد النسغ من الجذور حتى يبلغ اعلى الاغصان.

(٢٢) لا بل قد يستطيع أن يقيم مع بعض النساء علاقة ودّ خاصة ومنعشة لِلطَرَفَين، لا تحيده عن البتولية اذا عرف ان يلزم فيها «المسافة والاحترام» كما تقول الاخصائية في العلاج النفسي جانين ماورنكل، التي تذكر شهادة أدلى بها احد الكهنة المتبتلين الذي افضى اليها انه، مع استبعاده لعيش علاقة حب بكل معنى الكلمة مع امرأة، تنشأ احيانًا، في سياق عمله الرعائي، صلة مودة خاصة بينه وبين احدى النساء، فيسعد بما توقظه فيه تلك الصلة من مشاعر وبالأثر المتبادل الذي يتركه كل من الاثنين على الآخر، ويعترف بأن علاقات من هذا النوع تمنحه الشيء الكثير وتُحدث تغييرًا في شخصيته. راجع:

Jeannine MARRONCLE : Hommes et femmes dans la vie consacrée, art. cit., p. 165.

الفصل الرابع

عفّة يسوع : بلادة أم نار؟ (١٩٨١)

ملاحظات نفسية نقدية حول صورة « رفاعة » في « أولاد حارتنا » لنجيب محفوظ .

تقديم

كان الصديق الأستاذ ايلي قطرميز، وهو متخصص بالأدب العربي ويدرّسه في التعليم الثانوي، بصدد إعداد دراسة، في مطلع الثمانينات، حول « مواقف أدبائنا من الايمان »، وقد نُشرت منها بالفعل تباعًا، في مجلة « النور »، حلقات تناولت نجيب محفوظ ومارون عبود. وقد حمل عددا آذار ونيسان ١٩٨١ من المجلة المذكورة، مقالًا له بعنوان: « صورة الله وصورة المسيح في رواية « أولاد حارتنا » للروائي نجيب محفوظ »، شئت أن أذيّله بمساهمة مني استندت إلى تخصصي النفسي، فكانت هذه الدراسة التي صدرت في « النور »، السنة ٣٧، العددان ٢ و٣، نيسان ١٩٨١، نثبتها هنا مع بعض التعديلات .

أوّلًا : عفة يسوع كانت على نقيض بلادة « رفاعة »

لقد لاحظ نجيب محفوظ « الصفاء » الذي تميّزت به علاقة يسوع بالنساء كما تتحلّى من خلال الأناجيل، فترجمها في تصويره لشخصية « رفاعة » في علاقته بياسمينة[١]. ولكنه، تماشيًا مع فكرة مسبقة تكوّنت لديه، عزا هذا الصفاء إلى بلادة جنسيّة كاملة (ممّا يتناقض مع ما نسه، في مكان آخر، إلى رفاعة، من ردّ فعل انفعاليّ أبداه تجاه فكرة الزواج عندما طرحها عليه والده[٢]، وهذا ما يوحي بصراع نفسيّ حادّ، لا ببلادة. إلّا اننا لن نتوقف عند هذا التناقض، مكتفين بالاشارة إليه). ولكن هذا الافتراض لا يصمد أمام نظرة موضوعية إلى سيرة يسوع كما عرفناها من الأناجيل. ذلك لأنه يتعارض مع العديد من المعطيات التي تقدمها لنا هذه السيرة، وهاك بعضها:

١- كان يسوع ملمًّا بحدّة الشهوة

ان الذي تلفّظ بهذه العبارات الشديدة: « سمعتم انه قيل: لا تَزنِ. أما أنا فأقول لكم: إن كل مَن نظر إلى امرأة فاشتهاها زنى بها في قلبه. فاذا دعتك عينك اليمنى إلى الخطيئة، فاقلعها وألقها عنك ...» (متى ٥:٢٧-٢٩)، انسان ملمّ ولا شكّ بحدّة الشهوة وبضراوة الصراع الذي يتطلّبها أحيانًا لجمها.

٢- شُعور يسوع الفيّاض

ان البلادة الجنسيّة تفترض اما ضعفًا أساسيًا في الطاقة الغريزية

أو كبتًا عميقًا لهذه الطاقة، مما يؤدّي، في كلا الحالتين، إلى ضحالة المشاعر على وجه العموم وإلى الجمود العاطفيّ. ولكن هذا الوصف لا يتّفق إطلاقًا مع ذلك **الشعور الفيّاض** الذي يتجلّى في كل سيرة يسوع والذي كان يشمل الناس جماعات وأفرادًا، رجالًا ونساءً، مثلًا:

- «ولما رأى الجموع **تحنّن عليهم**، لأنهم كانوا منهوكين، منطرحين مثل غنم لا راعي لها...» (متى ٩:٣٦).

- «ولما قَرُبَ من باب المدينة، إذا ميت يُشيّع، وهو ابن وحيد لأمّه التي كانت أرملة (...) فلما رآها الرب **تحنن عليها** (وقد وردت في الأصل اليوناني عبارة splankhnizein التي تعني حرفيًّا «تحرّكت أحشاؤه»)، وقال لها: «لا تبكي»» (لوقا ٧:١٢-١٣).

- «فقال له: «يا معلّم، كل هذا قد حفظته منذ صباي. فحدّق إليه يسوع، **وأحبّه**...» (مرقس ١٠:٢٠-٢١).

- «وإذ انتهت مريم إلى حيث كان يسوع، وأبصرته، خرّت على قدميه، وقالت له: «يا سيّدي، لو كنت ههنا لما مات أخي!» فلما رآها يسوع تبكي، واليهود

الذين جاؤوا معها يبكون ، **إرتعش في روحه واضطرب** ؛ ثم قال : « أين وضعتموه ؟ » فقالوا له : « يا سيّد ، هلمّ وانظر » **فبكى يسوع** . فجعل اليهود يقولون : « **انظروا كم كان يحبّه** ! » (يوحنا ١١:٣٢-٣٦) .

٣- أقام يسوع علاقات إنسانيّة حميمة

ان البلادة الجنسيّة وما تفرضه من تعطيل لطاقات التعاطف المرتبطة بالجنس عند الانسان ، لا تتماشى مع العلاقات الحميمة التي كان يسوع يقيمها مع الناس دون ترفّع أو تحفّظ أو تزمّت ، فيؤاكلهم ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم ، حتى اتهمه أعداؤه المغرضون بالشراهة والسكر والانحلال الخلقي :

-« لقد جاء يوحنا المعمدان لا يأكل خبزًا ولا يشرب خمرًا ، وأنتم تقولون : إن به شيطانًا ! وجاء ابن البشر يأكل ويشرب ، وتقولون : هوذا إنسان أكولٌ ، شروب للخمر ، يحبّ العشّارين والخطأة ! » (لوقا ٧:٣٣-٣٤)

٤- عمق علاقة يسوع بالنساء

وللسبب عينه ، لا تتفق البلادة الجنسيّة بالأحرى مع عمق العلاقة التي استطاع يسوع أن يقيمها مع النساء (راجع مثلًا حديثه مع السامريّة - يوحنا ٤- وحادثة « المرأة الخاطئة » التي دهنت قدميه بالطيب - لوقا ٧:٣٦-٥٠ - . وصداقته لمرتا ومريم أختي لعازر : « وكان يسوع يحبّ مرتا وأختها ولعازر » (يوحنا ١١:٥) . وهنا لا

بدّ من تمييز بين صفاء وصفاء. ان « الصفاء » النابع من اللامبالاة ينظر إلى المرأة فلا يراها، كما هو الحال في علاقة رفاعة بالداعرة ياسمينة، التي تزوجها بداعي الرحمة ليس إلّا، لانقاذ حياتها من مهاجمة الناقمين عليها، وهي علاقة سطحيّة، يبقى فيها كل من الطرفين في وادٍ، وتبقى المرأة أسيرة عزلتها تتخبّط وحيدة في خضمّ مأساتها. أما صفاء يسوع في نظرته إلى المرأة، فصفاء محبة لا تحفّظ فيها ولا غرض، لذا فانه يلاقي المرأة في صميم معاناتها بما في هذه المعاناة من نواحٍ جنسيّة (« أنظروا رجلًا قال لي كل ما فعلت » يوحنا ٤:٢٩)، يأخذ منها (« أعطني ماءً لأشرب . . . »، « بالدموع بلّت قدميّ، وبشعرها مسحتهما . . . ») ويعطيها (« لَطَلَبتِ أنتِ منه فأعطاك ماءً حيًّا . . . »، « ايمانك خلّصكِ، اذهبي في سلام »)، يوقظ أفضل ما في نفسها ويفجّر ما في أعماقها من طاقات كامنة (فتستحيل الزانية إلى مبشّرة : يوحنا ٤:٢٨ و٢٩، وبائعة الهوى إلى ينبوع حبّ خالص : « إنهاأحبّت كثيرًا » : لوقا ٧:٤٧).

٥- تميّزت حياة يسوع بدينامية معطاءَة

ثم ان البلادة الجنسيّة تفترض انتقاصًا وانكماشًا في الحيوية، وهذا لا يتفق البتة مع الديناميّة المعطاءة التي تميّزت بها حياة يسوع العامة : « وكان يسوع يجول في جميع المدن والقرى، يعلّم في المجامع، ويكرز بانجيل الملكوت، ويشفي كل مرض وكل سقم » (متى ٩:٣٥). ان أحد كبار روّاد التحليل النفسي، كارل ابراهام،

وهو من رفاق فرويد، يقول ما معناه ان من لم تكتمل رجولته على الصعيد الجنسي بحيث يصبح مؤهَّلًا، من الناحية النفسيّة، لإطلاق كائن جديد في الوجود، انما ينعكس ذلك عنده انتقاصًا في القدرة على المبادرة والنشاط الخلّاق في سائر مجالات الحياة[٣]. قياسًا على ذلك يمكن، على العكس، أن نستدلّ، من مبادرة يسوع الفياضة وإنجازه المبدع، ان البنية الجنسيّة كانت مكتملة لديه، ولو انه اختار أن لا يعبّر عنها بالانجاب الجسديّ.

٦- الطابع النضاليّ البارز لشخصيّة يسوع

أخيرًا فالبلادة الجنسيّة، بما تفترضه من نقص أساسيّ أو قمع عميق للجنس وما يحمله من طاقات الحيوية والخلق، تقترن بالعجز عن المواجهة والتصدّي وبالنزعة إلى الاستكانة والخنوع[٤]، كما انها، من جهة أخرى، مرتبطة بتأجّج العدوانية في النفس، تلك العدوانية التي لا تضبطها ولا تصقلها سوى الطاقة الجنسيّة (طاقة الحياة والتواصل والبناء) إذا لم يَحُل القمع دون اكتمال نموّها ونضجها. لذا فالبلادة الجنسيّة لا تتفق مع الطابع النضاليّ البارز في شخصيّة يسوع والمتجلّي في تحدّيه الصارخ لكل ما كان ساحقًا للإنسان في هيكليّات مجتمعه، وفي مواجهته حتى الموت للسّلطات القيّمة على هذه الهيكليّات، وذلك في توازن عجيب، ينتفي معه الخوف والعداء بآن، وتقترن فيه وداعة فريدة بصلابة لا تلين. فما أبعد يسوع الأناجيل عن الميوعة التي صوّر بها نجيب محفوظ رفاعته! يسوع «الوديع والمتواضع القلب» (متى ١١:٢٩)، الذي

« لا يكسر القصبة المرضوضة ، ولا يطفئ الذبالة المدخّنة » (متى ١٢:٢٠) ، الذي يأبى أن يوحّد بين الانسان وما يرتكبه من شرور ، هو نفسه القائل : « لا تظنّوا اني جئت لألقي سلامًا على الأرض ؛ لا ، **ما جئت لألقي سلاما بل سيفًا** » (متى ١٠:٣٤) ، وأيضًا : « **لقد جئت لألقي على الأرض نارًا** ، وكم أودّ لو تكون قد اضطرمت ! » (لوقا ١٢:٤٩) . وقد طبّق ذلك بالفعل :

- فتصدّى لسلطة العشيرة ، الخانقة في المجتمع الأبوي آنذاك : « جئت لأفرّق الانسان عن أبيه ، والابنة عن أمها (...) . فمن أحبّ أباه أو أمه أكثر مني فلا يستحقّني . . .» (متى ١٠:٣٥ و٣٧) .

- وندد بطغيان المال والمتموّلين : «لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال ! » (متى ٦:٢٣) ، « إنه لأسهل أن يمرّ جمل في ثقب إبرة ، من أن يدخل غنيّ ملكوت الله ! » (مرقس ١٠:٢٥) ، « ويل لكم أيها الأغنياء . . .» (لوقا ٦:٢٤) .

- وسخر من تسلّط الحكّام ، الذي لا يتورّع المتزلّفون اليهم عن تسميته « إحسانًا » : « إن ملوك الأمم يسودونها ، وأصحاب السلطة فيها يريدون أن يُدعَوا محسنين . أما أنتم ، فليس الأمر فيكم كذلك ، بل ليكن الأكبر فيكم كالأصغر والمترئّس كالخادم » (لوقا ٢٢:٢٥-٢٦) . وتحدّى تهديد الطاغية هيرودس

بقتله : « . . . قالوا له : « انطلق ! إذهب من ههنا ، فان هيرودس يريد أن يقتلك » . فقال لهم : « اذهبوا وقولوا لهذا الثعلب : « . . . لا بدّ من أن أواصل السير اليوم وغدًا وما بعده . . .» » (لوقا ١٣:٣١-٣٣) .

- وقاوم بشدة التسلط الديني الذي كان يمارسه الكتبة والفريسيون ، فيسحقون الشعب تحت وطأة تفسيرهم اللا إنسانيّ للشريعة وتعقيدهم الجائر لها : « ودخل أيضًا مجمعًا ، وكان هناك إنسان يده يابسة . وكانوا يراقبونه ليروا هل يشفيه في السبت ، فيشكوه . فقال للرجل اليابس اليد : « قم إلى الوسط » . ثم قال لهم : « ماذا يحلّ في السبت : أن يُفعل الخير ، أم أن يُفعل الشر ؟ أن تُخلَّص نفس أم تُقتَل ؟ » فلزموا الصمت . فأجال نظره فيهم بغيظ ، مغتمًّا لتصلّب قلوبهم ، ثم قال للرجل : « مُدَّ يدك ! » فمدّها ، فعادت يده صحيحة . فخرج الفريسيون ، وفي الحال ائتمروا عليه مع الهيرودوسيين ، ليُهلكوه .» (مرقس ٣:١-٦؛ راجع أيضًا مرقس ٢:٢٣-٢٨، متى ١٢:١-١٤، لوقا ١٣:١٠-١٧ الخ . . .) .

هذا وقد بيّن أحد الباحثين ان يسوع كان عالمًا تمام العلم بما كان يثيره من ردود فعل عنيفة ، لدى قادة شعبه ، تصدّيه لزيفهم الديني ، وأنه ، مع ذلك ، أقدم على تصعيد هذا التصدّي ، الذي أدّى ، في آخر المطاف ، إلى قتله :

« في سياق الأناجيل، نرى هكذا عبارات الموعظة على الجبل تتخذ نبرة أقسى فأقسى (...) . ففي زمن الموعظة المذكورة، اكتفى يسوع بأن يقابل بسلوك المرائين، الذين يعرضون مشهد صلواتهم وحسناتهم في المجامع والشوارع ومفارق الطرق لكي يكرمهم الناس، بساطة التلاميذ الذين يلتمسون فقط نظرة أبيهم السماوي (متى ٦:١-٦) . أما في صفحات السرد الأخيرة، في ختام عمله، فان يسوع يرفع ستار الكتمان، إنه يسمّي هؤلاء المرائين باسمائهم: انهم « الكتبة والفريسيون » (متى ٢٣:١٣،١٥، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٢٩) ».[٥]

٧- المسيحيون ميّعوا أحيانًا شخصيّة المعلّم

ولا بدّ من الإشارة هنا، من باب الإِنصاف، إلى ان مسؤولية طمس هذا الوجه النضاليّ البارز لشخصية يسوع، قد لا تقع على نجيب محفوظ وحده، اذ قد يكون هذا الكاتب، شأنه شأن كثيرين غيره، تأثّر بصورة مشوّهة ليسوع راجت وانتشرت للأسف في الأوساط المسيحية نفسها بفعل عوامل نفسية وتاريخية لا مجال لذكرها هنا. وقد كتب اللاهوتي الأرثوذكسي الفرنسيّ الكبير أوليڤيه كليمان، في مقال له بعنوان « التنقية بواسطة الالحاد »، مشيرًا إلى هذه الصورة الممسوخة: « إن شخصية المسيح، التي هي، من عدة نواح، بطوليّة، عنيفة، ظافرة، أصبحت سقيمة، بليدة، واتخذت صورة « مثاليّ » فاشل . . .»[٦]

ثانيًا : لم تكن عفة يسوع تغيبيًا للجنس بل تساميًا بحيويّته وتحرّرًا من كل عقدة

من كلّ ما تقدّم يتّضح ان عفة يسوع لم تكن - كـ« عفة » رفاعة - غيابًا أو كبتًا للطاقة الجنسيّة، انما توظيف لهذه الطاقة، بكلّ ما تحمله من حيوية دفّاقة، في خدمة أهداف تتجاوز الإشباع الغريزيّ. وكأن يسوع يردّ مسبقًا على افتراضات نجيب محفوظ، عندما علّم قائلًا: « إن في الخصيان من وُلدوا من بطون أمهاتهم على هذه الحال[٧]، وفي الخصيان من خصاهم الناس[٨]، وفي الخصيان من خَصَوْا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات. فمن استطاع أن يفهم فليفهم! » (متى ١٩:١٢). لم يتزوج يسوع، لا عن عجز غريزيّ وعاطفيّ، انما رغبة منه بتوظيف كل طاقاته الجنسيّة والعاطفيّة في خطّ حبّ لا محدود يتناول البشرية قاطبة، عائلة الله الواسعة، برجالها ونسائها أجمعين. لذا لم تكن حياته مجدبة، عقيمة، انما كانت خصبة، سخيّة إلى أبعد حدود السخاء. لم تكن عفته بلادة بل نار[٩].

من هنا حنانه الدافق على الناس وخدمته الدؤوب لهم حتى بذل الذات الكامل في سبيل تحرّرهم[١٠]، من هنا أيضًا علاقته الفريدة بالنساء. فقد كان المجتمع اليهودي الأبوي الذي عاش فيه ينظر إلى النساء نظرة مستعلية، تمتزج فيها الشهوة بالريبة والتسلّط. أما يسوع فقد تحرّر من تلك المؤثّرات الاجتماعيّة بفعل تحرّره الداخليّ. لذا تجرّأ أن يتعامل مع النساء علنًا خلافًا لعوائد

بيئته[١١] ، حتى إذا كانت المرأة مومسًا[١٢] ، لا بل أقدم على اصطحاب نساءٍ معه كنّ يرافقنه في جولاته التبشيرية كما كان يرافقه الرسل الاثنا عشر[١٣] .

لأن عفة يسوع كانت عفّة حقّة تخطّت هدف الإشباع الغريزي للجنس ولكنها اغتنت بكل ما في الطاقة الجنسيّة من دفق حيويّ ، استطاع يسوع أن يتحرّر من أية « عِقدة » تجاه المرأة ، خلافًا للمجتمع الذي عاش فيه . « فلا عقدة حذر منها ، ولا عقدة خوف من المجتمع في ما يخص علاقته معها ، ولا عقدة استعلاء تجاهها لكونه رجلًا ، ولا عقدة استهزاء ، على انها كمية مهمَلَة يمكن الاستخفاف بها ، ولا عقدة استعمال واستخدام لأجل مآرب له ، أو رغبة جنسيّة »[١٤] .

من أجل ذلك استطاع يسوع أن يفضح رياء موقف مجتمعه حيال المرأة ، كما يتضح في حادثة المرأة التي أُخذت في زنى فاقتادها الكتبة والفريسيون إلى يسوع وسألوه ، إحراجًا ، إن كان ينبغي رجمها بموجب شريعة موسى . من المؤسف حقًّا أن يكون كاتب كبير كنجيب محفوظ قد مسخ هذه الحادثة المحوريّة مسخًا تامًّا ، مشوّهًا معانيها أفدح تشويه . إذ ما الذي يحصل في قصته ؟ لقد توفق الكاتب بنظري في تصويره الساخر للرياء الاجتماعي الذي كثيرًا ما يتستّر وراء مفاهيم « الشرف » و« الفضيلة » . فالفتوات الذين يمارسون الدعارة مع ياسمينه يريدون قتلها لمجرد كونها مارست الدعارة نفسها مع فتوة من حيّ آخر ، وكأنه (أي نجيب محفوظ) يشير بذلك إلى التناقض القائم بين شجب المجتمع

التقليدي للزنى (والمقصود أساسًا زنى المرأة بالطبع) وبين قبوله بأن يكون الزواج صفقة لا تراعي شروط الانسجام ولا تقيم وزنًا لحرية الاختيار (خاصّة لدى المرأة)، مما يجعل منه نوعًا من «الزنى المشروع». ولكن السلوك الذي ينسبه نجيب محفوظ إلى رفاعة حيال هذا الوضع يشير إلى انه لم يدرك البتة جدّة موقف يسوع وجذريته.

فرفاعة يتصرّف في هذا الموقف تصرّفًا عاطفيًا صرفًا، اذ ينقذ الداعرة من الموت بقبوله بالزواج منها، ولو على حساب ميوله الذاتية النافرة من الزواج، ولكنه بذلك يدخل في اللعبة من حيث لا يدري، ويشارك فيها ويعمل على تخليدها، اذ يبقى أسير المنطق الشرعيّ الذي طُرحَت منه القضيّة، فيعتمد حلًّا شرعيًا لها، ولكن لا شيء يتغيّر في النفوس، إذ يبقى المشتكون على مواقفهم المنحرفة من حيث تشييء المرأة، أما المرأة - التي لم تُستشَر على كل حال في الحلّ المعتمَد، انما قبلت به مكرَهة لمجرد المحافظة على حياتها - فتبقى هي أيضًا على موقعها، إذ انها تعود إلى سلوكها الأول في ظلّ الزواج الصَوريّ الذي اضطرّت اليه.

أما يسوع، فانه، في الحادثة الأصلية، كما يرويها انجيل يوحنا (٨:٣-١١)، يتناول القضية من جذورها. انه لا يقف عند مادية المخالفة الشرعيّة التي يشكّلها فعل الزنى، انما ينفذ إلى الدوافع التي تكمن وراء الأعمال، عمل المرأة وعمل المشتكين عليها على حدّ سواء. انه يعرف ان هؤلاء يحرصون على قتل المرأة لأنهم انما أسقطوا عليها كلّ ما في نفوسهم من شهوة لا يرغبون أن يواجهوها

في داخلهم فيجسدونها في خطيئة تلك المرأة، جاعلين من هذه الأخيرة كبش المحرقة الذي يسمح لهم باسكات شعور الذنب المبهَم فيهم والمحافظة تاليًا على طمأنينتهم الداخليّة واعتبارهم لأنفسهم[١٥]. وهو يعرف أيضًا ان حرصهم على قتل المرأة نابع من تشبثهم بتركيبة المجتمع الذكريّ الذي يشاركون فيه ويستفيدون منه، وهو مجتمع قائم على استعباد المرأة وجعلها سلعة في سوق شهوة الرجال ومصالحهم، لا رأي لها في اختيار زوجها انما تُطلب من أبيها الذي يعود اليه وحده حق اتخاذ القرار بهذا الشأن، ويطلّقها زوجها حينما يشاء؛ حتى إذا لم تعد المرأة تطيق احتمال هذا التشييء لها والتنكّر لكيانها الشخصيّ، فجنحت إلى الزنى، قامت القيامة عليها وعاقبها الرجال شرّ عقاب، متذرعين بالشريعة الإلهيّة، في حين انهم بالفعل يتشبثون بالنظام الجائر الذي يكرّس تسلّطهم على المرأة وملكيتهم لها.[١٦] لذا لم يُجارِ يسوع محاوريه في طرحهم الناموسيّ للموضوع، بل شاء أن يواجههم بنفوسهم، بتلك الخطيئة الكامنة فيها والمتجسدة في التركيبة الاجتماعية المبنية على أساس أهوائهم، وإذا به ينكبُّ ويخطّ باصبعه على الأرض، ولما استمرّوا في سؤالهم، إذا به ينتصب ويكتفي بالقاء هذه الكلمة: «من هو فيكم بلا خطيئة، فليبدأ ويرمها بحجر!»، ثم عاد وأكبّ يخطّ على الأرض، كي يتركهم وشأنهم في تلك المواجهة العسيرة لنفوسهم. «فلما سمعوا طفقوا يخرجون واحدًا فواحدًا، ابتداءً من الشيوخ؛ وبقي هو وحده، والمرأة قائمة في الوسط.» (يوحنا ٨:٩). عندئذ خاطب يسوع

المرأة، وكان خطابه لها، على إيجازه، خطابًا حقيقيًا أي اتّصالًا صميميًّا، من الأعماق إلى الأعماق. لم يواجهها بحرف الشريعة الجامد، شأن الكتبة والفريسيين، ولم يجعلها مثلهم في موقع الاتهام الذي يدفع المرء إلى التشنّج والاستماتة في الدفاع عن نفسه. بل أشعرها انها أمام رجل يتقبّلها دون تحفّظ او استعلاء أو ازدراء، ودون تواطؤ أو مصلحة أو غرض، فيخوّلها بالتالي أن تواجه حقيقة خطيئتها، ويعيد إليها انسانيّتها الضائعة، موقظًا فيها طاقة الحبّ في أصالتها، بما تحمله من قدرة على التحوّل وتجاوز الهفوات: «فانتصب يسوع، وقال لها: «يا امرأة، أين هم؟ ألم يحكم عليك أحد؟» قالت: «لا أحد، يا سيّدي». فقال يسوع: «ولا أنا أحكم عليكِ. إذهبي، ولا تعودي إلى الخطيئة من بعد» .» (يوحنا ٨: ١٠ و١١) .(١٧)

الخلاصة: عفة يسوع ترتبط بخبرته الروحية الفريدة الخارقة

ان التوازن والغنى المذهلَين اللذين تتميز بهما إنسانية يسوع كما تبدو لنا من خلال الأناجيل (وذلك رغم كون الأناجيل لم تبغِ إطلاقًا رسم صورة سيكولوجيّة متكاملة ليسوع)، قد خفيا، كما يبدو، على هذا الكاتب المدقّق في النفس البشرية الذي هو نجيب محفوظ. قد يكون ذلك عائدًا إلى ان قراءته للانجيل كانت متسرعة تتحكّم بها أفكار مسبقة، وقد يكون عائدًا أيضًا إلى كون السرّ المحوريّ في شخصيّة يسوع، هذا السرّ الذي بدونه لا يمكن فهم هذه الشخصيّة على حقيقتها، قد غاب عنه. ان نجيب محفوظ،

في روايته، يعزو رسالة رفاعة إلى حكايات قديمة عن الجبلاوي (رمز الله في الرواية) سمع الشعراء يتغنّون بها فوجّهت تصرّفاته. أما من يطالع الانجيل بانفتاح وإمعان، فيرى ان رسالة يسوع تنطلق، لا من حكايات عن كائن أسطوريّ بعيد، بل عن خبرة حيّة. فيسوع متجذّر في الخبرة الروحيّة التي عاشها الشعب الذي خرج منه، وهي خبرة يتواجد فيها عنصرا الفرح والمأساة، خبرة علاقة بالإله الحيّ عاشها هذا الشعب من خلال تاريخ اختلط فيه الإخلاص بالجحود، ولم تكن «الحكايات» التي يلمّح إليها محفوظ سوى تعابير عنها. ولكن يسوع توّج هذه الخبرة الجماعيّة الممتدة عبر التاريخ، بخبرة شخصيّة لعلاقة فريدة بالكلية مع ذاك الذي كان يسمّيه «أباه» على وجه التخصيص ويقيم معه إلفة لا مثيل لها(١٨)، وتواصلاً ما بعده من تواصل(١٩). في هذه الإلفة الصميمة(٢٠) يكمن سر عفّة يسوع وسرّ شخصيته كلّها.

الحواشي

(١) راجع: نجيب محفوظ: أولاد حارتنا، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٧، ص ٢٢٣ و٢٦١، مذكور في: إيلي قطرميز: صورة الله وصورة المسيح في رواية «أولاد حارتنا» للروائي نجيب محفوظ، «النور»، بيروت، السنة ٣٧، العددان ١ و٢، نيسان ١٩٨١، ص ٧٧ و٧٨.

(٢) راجع نجيب محفوظ: المرجع نفسه، ص ٢٣٥-٢٣٧، مذكور في: ايلي قطرميز: المرجع المذكور، ص ٧٧.

(٣) راجع:

Karl Abraham: Compléments à la théorie du caractère anal (1925), traduit de l'allemand par Marthe Robert et M. de M'uzan, pp 321-322, in Oeuvres Complètes-2 (1913-1925), traduit de l'allemand par Ilse Barande avec la collaboration d' Elisabeth Grin (1966), p 314-321, PBP, Paris, 1977.

(٤) من هنا دور القمع الجنسيّ في تثبيت كل سلطويّة، كما بيّن المحلّل النفسيّ رايش. راجع مثلاً:

Wilhelm Reich: La psychologie de masse du fascisme (1er éd. 1933), traduction française établie par Pierre Kamnitzer, PBP, Paris, 1979, p 50-52.

(٥) راجع:

Jacques GUILLET: Jésus devant sa vie et sa mort (1971), Ed. Aubier-Montaigne, Paris, 1978, p 172-175.

(٦) راجع:

Olivier CLÉMENT: Purification par l'athéisme, in "CONTACTS", Paris, XVIIIe. année, n0 53, 1er trimestre 1966, p 49-54.

(٧) يمكن ان نرى في هذه العبارة إشارة إلى النقص الأساسيّ، الجِبِليّ constitutionnel في الطاقة الجنسيّة.

(٨) وهنا إشارة إلى الذين اضطرّوا إلى كبت الطاقة الجنسيّة فيهم كبتًا عميقًا، بفعل المآزم conflits التي نشأت في علاقاتهم العائلية والبيئيّة. أي في علاقاتهم مع «الناس».

(٩) راجع: جورج خضر: العفة نار، حديث الأحد، منشورات النور، بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(١٠) «ما من حبّ أعظم من حبّ من يبذل نفسه في سبيل أحبّائه» (يوحنا ١٥:١٣).

(١١) «وجاء عندئذ تلاميذه، فاستغربوا من أنه يتكلّم مع امرأة» (يوحنا ٤:٢٧)

(١٢) «فلما رأى الفرّيسي الذي دعاه هذا الأمر قال في نفسه: لو كان هذا الرجل نبيًّا، لَعَلِمَ من هي المرأة التي تلمسه وما هي حالها: انها خاطئة» (لوقا ٧:٣٩).

(١٣) راجع لوقا ٨:١-٣.

(١٤) غريغوار حداد: المرأة وتحريرها في نظر المسيح والجماعة المسيحية الأولى، ص ١٣، في: غريغوار حداد وجيروم شاهين: المسيحية والمرأة، منشورات مجلة «آفاق»، بيروت، ١٩٧٥، ص ٢-٤٨.
راجع أيضًا ما كتبه المحلّل النفسيّ الكَنَديّ ميشال دانسرو في كتابه «فرويد والالحاد»:
Michel Dansereau: Freud et l'athéisme, Desclée, Paris, 1971, p. 247.

(١٥) كما ان اهتمامهم الشديد بخطيئتها يقدّم لهم ذريعة للتنفيس الذهنيّ التخيليّ عن شهوتهم، متسترين بالغيرة على الفضيلة. من هنا اهتياج «الأوادم» لدى تداولهم أخبار الدعارة والزنى بحجة استنكارها. راجع:
André Berge: Les Maladies de la vertu (1960), 2e édition, Grasset, Paris, 1963, p. 221-222.

(١٦) ان الشريعة الموسوية نفسها، بما فيها من جانب انسانيّ لم تكتمل شفافيته بعد، تحمل طابع هذه النظرة التملكية إلى المرأة، اذ نرى وصية

من وصاياها تضع هذه في مصفّ الأشياء التي يملكها الرجال : «لا تشتهِ بيت قريبك . لا تشتهِ امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئًا مما لقريبك.» (خروج ٢٠:١٧) .

راجع :

غريغوار حداد: المرجع المذكور أعلاه ، ص ٢٥-٢٦.

(١٧) راجع تعليق المحللة النفسيّة المعاصرة الكبرى ، الدكتوره فرنسواز دولتو ، على هذه الحادثة الانجيلية ، كما ورد في :

Françoise Dolto et Gérard Séverin: L'Evangile au risque de la psychanalyse, tome 2, Ed. Jean-Pierre Delarge. Paris. 1978. pp. 77-100.

(١٨) اذ انه يخاطب ذاك الذي لم يكن اليهود يجسرون على التلفّظ باسمه ، بالعبارة الآرامية «أبا» ، وهي ما يعادل «بابا» بالعربية .

(١٩) هذا التواصل يُدعى ، بلغة الكتاب ، «معرفة» . (وهي نفس العبارة التي يشير بها الكتاب إلى الاتصال الحميم بين رجل وامرأة) : راجع : «ليس أحد يعرف الابن الا الآب ولا أحد يعرف الآب الا الابن ، ومن يريد الابن أن يكشف له» (متى ١١:٢٧) .

(٢٠) راجع :

Joachim Jeremias: Le Notre-Père dans l'éXégèse actuelle (1962), in Paroles de Jésus, Coll. "Foi Vivante", Cerf, Paris, 1977, p85-86.

الفهرس

المقدمة ٩

القسم الأول : الايمان أمام تحدّي الإباحية الجنسية في عالم اليوم

تقديم ١٣

الفصل الأول : تيار «الحرية الجنسية» : تحليله وتقويمه (١٩٨٠)

تقديم ١٥

مقدّمة : منطلقات رؤية إنجيلية للجنس ١٦

أولًا : النظرة التقليدية المحقّرة للجنس ٢٠

ثانيًا : تيار «الحرية الجنسية» وانحرافاته ٢٠

١- إعادة اكتشاف قيمة الجنس ٢٠

٢- ... إنما ليس بدون مسخه وتقويمه ٢١

٣- دور مجتمع الاستهلاك في الترويج لهذه الصورة المبتورة للجنس ٢٣

أ- الجنس كَسِلعة ٢٤

ب- الجنس كَمروّج للسِلَع ٢٤

٤- تحوّل الجنس إلى عرف مفروض اجتماعيًا ٢٦

٥- إفراغ الجنس من فحواه ونكهته ٢٧

ثالثًا : ردود فعل تتصدّى، باسم الحرية، لانحرافات «الحرية الجنسية» ٢٩

رابعًا : الوجه الايجابي لتيار «الحرية الجنسية» ٣١

الخلاصة : مطلوب تحرير «الحرية الجنسية» ٣٧

حواشي الفصل الأول ٤٠

الفصل الثاني : انتشار الشذوذ الجنسي (١٩٨٦-١٩٨٧)

تقديم أوّلًا : ما هي العوامل النفسية التي تؤدي إلى

« الشذوذ الجنسيّ » ؟ ٤٨

١- ظروف الطفولة ٤٩

أ- دور العلاقة بالأمّ ٤٩

ب- دور العلاقة بالأب ٥٠

٢- الظروف اللاحقة ٥١

ثانيًا : انتشار الشذوذ الجنسي ، وعوامله المحتَمَلة

١- احصاءَات غربية عن انتشار الشذوذ الجنسي بين الشباب ٥٢

٢- هل هذا الانتشار بتزايد ؟ ٥٣

٣- أسباب للتزايد إذا كان حاصلًا ٥٤

أ- غياب الأب في المجتمع الغربي المعاصر ٥٤

ب- ظاهرة « الحرية الجنسية » ٥٤

ج- ظاهرة تبخيس الجنس السويّ والسعي إلى بدائل ٥٥

٤- هل من انتشار للشذوذ الجنسي في مجتمعنا ؟ وفي هذه

الحال ، لماذا ؟ ٥٧

أ- التقليد العشوائي للغرب ٥٧

ب- الفصل بين الجنسَين ٥٨

ج- التربية الجنسية القمعيّة ٥٨

ثالثًا : كيف السبيل إلى مكافحة موجة الشذوذ ٦٠

١- إعادة الاعتبار للجنس السويّ ٦١

٢- إسناد دور أكبر للوالد في الأسرة ٦١

٣- تحرير المرأة ٦٢

٤- إزالة الفصل بين الجنسين ٦٢
رابعًا : هل يُعتبَر هذا الشذوذ خطيئة؟ ٦٣
١- الجنس المثلّي ، بحدّ ذاته ، حبّ مبتور ٦٣
أ- ينقصه البعد العلائقي الغيريّ ٦٣
ب- ينقصه البعد الانجابيّ ٦٤
٢- هذا لا يعني حكمًا على الذين يمارسونه ٦٤
حواشي الفصل الثاني ٦٦

القسم الثاني : الزواج وممارسة الجنس

تقديم ٧٩

الفصل الأول : هل من ترابط بين الممارسة الجنسية والزواج؟ (١٩٩٨)

تقديم ٨١
مقدّمة ٨٢
أوّلاً : اللقاء هدف الاتصال الجنسيّ ٨٥
ثانيًا : شرط اللقاء الأصيل اعتبار الآخر شخصًا ٩٠
ثالثًا : أصالة الجنس تتحقّق إذًا في حب للآخر من أجل نفسه ،
في وحدانيته وديمومته ٩٢
١- حب يتناول الآخر من أجل نفسه ٩٣
٢- حب يتناول الآخر في وحدانيته وديمومته ٩٤
أ- في وحدانيته ٩٤
ب- في ديمومته ٩٥
ج- « بحبّك لَوَحدَك وبحبّك على طول » ٩٥
د- « الجاعل لميل القلب رباطًا لا ينفكّ » ٩٦
هـ-عهد يكرّس « رباط القلب » ٩٨
رابعًا : الزواج تصديق وتكريس لنضج مشروع اللقاء ، ومكان

لاكتماله ٩٩
خامسًا : والآن ماذا عن ممارسة الجنس قبل الزواج ؟ ١٠٣
الخلاصة : الجواب هو في إعادة الاعتبار
لكلّ من الجنس والزواج ١٠٧
حواشي الفصل الأول ١١٣
مراجع لنفس الكاتب لمن شاء متابعة موضوع هذا الفصل ١٢٩
الفصل الثاني : **الالحاح الجنسيّ في مواجهة عوائق الزواج (١٩٩١)**
تقديم أوّلًا : تمهيد : إيضاح تفسيريّ حول « الزواج خير من التحرّق »
(١ كو ٧:٩) ١٣٢
ثانيًا : هل نتزوج لقضاء حاجة ؟ ١٣٦
ثالثًا : كيف تواجه مشكلة الزواج المؤجّل قسريًا ؟ ١٤٣
حواشي الفصل الثاني ١٤٩
الفصل الثالث : **ممارسة الجنس في إطار الزواج (١٩٨٩)**
تقديم ١٥٠
١- ليس الزواج شرعنة لجنس « مُدنَّس » ١٥٢
٢- المتعة الجنسية في الزواج ايجابية اذا اندرجت في المسعى
اللقائي ١٥٤
٣- التواصل الزوجيّ يتقدم على الانجاب ١٥٤
٤- العلاقة الجنسية لغة الحبّ الزوجيّ وتربطه به صلة جَدَلِيَّة ١٥٦
٥- خطر اعتبار هذه العلاقة « واجبًا زوجيًا » ١٥٧
٦- هل من شكل مفروض للعلاقة الجنسيّة الزوجيّة ؟ ١٥٨
٧- الحياة الزوجيّة ومشكلة العجز الجنسي ١٥٩
القسم الثالث : **عناصر نظرة شاملة إلى الجنس**
تقديم ١٦٢

الفصل الأول : الجنس والجسد (١٩٧٢)

تقديم ١٦٤
أوّلًا : المفهوم الحديث للجسد ١٦٤
ثانيًا : ارتباط الجنس بالجسد ١٦٧
١- انه مرتكز في الجسم البيولوجي ١٦٧
٢- الجنس مرتبط بالجسد ككلّ ١٦٨
ثالثًا : موقفا «الجسد الجنسي» من الوجود ١٧١
١- موقف الانغلاق ١٧١
٢- موقف الانفتاح ١٧٢
رابعًا : فشل «الجسد الجنسيّ» المُغلَق ١٧٣
خامسًا : «الجسد الجنسي» لا يبلغ غايته إلّا بالحبّ ١٧٥
سادسًا : الأبعاد الدينية للخبرة الجنسيّة ١٧٨
سابعًا : الخلاص هو في انفتاح «الجسد الجنسيّ»، لا في محاولة إلغائه ١٨٠
ثامنًا : ليست العفة المكرّسة تنكّرًا للجسد الجنسيّ، بل جهاد للسير به إلى أقصى انفتاحه ١٨٦
الخلاصة ١٨٧
حواشي الفصل الأول ١٨٩
قائمة مراجع موجزة للفصل الأول ١٩١

الفصل الثاني : الجنس في ضوء الكتاب المقدّس (١٩٨٤)

تقديم **١٩٢**
أوّلًا : ماذا حدّثنا الكتاب المقدّس عن الجنس؟ ١٩٣
١- من حيث قيمة الجنس ١٩٣
٢- من حيث مقاصد الله في الجنس ١٩٣

أ- بالنسبة للحيوان ١٩٣
ب- بالنسبة للانسان ١٩٣
٣- من حيث العلاقة بين الحب الزوجيّ وحبّ الله للناس . ١٩٥
ثانيًا : ما علاقة الجنس بالخطيئة الأصلية ؟ ١٩٦
١- ما الخطيئة الأصليّة؟ ١٩٦
٢- إنعكاس الخطيئة الأصليّة على الجنس ١٩٨
ثالثًا : كيف نسمو بالجنس إلى صعيد الحب الإلهي؟ ٢٠٣
رابعًا : هل الجنس في زماننا دين جديد؟ ٢٠٥
١- الوجه الايجابي لـ« الثورة الجنسيّة » ٢٠٦
٢- الوجه المنحرف لـ« الثورة الجنسية » ٢٠٧
٣- الجنس كدين بديل أو وثنية جديدة ٢١٠
خامسًا : ما شرعية الجنس؟ ٢١٢
حواشي الفصل الثاني ٢١٧

الفصل الثالث : الجنس في آفاقه الإنسانيّة والروحية (١٩٩٢)

تقديم ٢٢١
أولًا : وجها الجنس ٢٢٨
١- الجنس بمعناه الحصريّ ٢٢٨
أ- وجه « الرغبة » ٢٢٨
ب- وجه « التَوق » ٢٢٩
٢- الجنس بمعناه الأوسَع ٢٣١
ثانيًا : انحرافات في نمط التعامل مع الجنس ٢٣٣
١- إجهاض التَوق ٢٣٤
٢- تغييب الرغبة ٢٣٦
أ- أسباب الكبت ٢٣٧

ب- نتائج الكبت ٢٣٨
ثالثًا : التعامل الناجح مع الجنس ٢٣٩
١- خطّ الحبّ ٢٣٩
٢- الحب والزواج ٢٤١
٣- الاستعداد للحبّ ٢٤٢
٤- البتوليّة المكرّسة ٢٤٧
حواشي الفصل الثالث ٢٥٦
الفصل الرابع : « **عفّة** » **يسوع :** بلادة أم نار؟ **(١٩٨١) ملاحظات نفسية نقدية حول صورة** « **رفاعة** » **في** « **أولاد حارتنا** » **لنجيب محفوظ**
تقديم ٢٦٣
أوّلًا : عفة يسوع كانت على نقيض بلادة « رفاعة » ٢٦٤
١- كان يسوع ملمًّا بحدّة الشهوة ٢٦٤
٢- شعور يسوع الفيّاض ٢٦٤
٣- أقام يسوع علاقات انسانيّة حميمة ٢٦٦
٤- عمق علاقة يسوع بالنساء ٢٦٦
٥- تميّزت حياة يسوع بدیناميّة معطاءة ٢٦٧
٦- الطابع النضاليّ البارز لشخصيّة يسوع ٢٦٨
٧- المسيحيون ميّعوا أحيانًا شخصيّة المعلّم ٢٧١
ثانيًا : لم تكن عفّة يسوع تغييبًا للجنس بل تساميًا بحيويّته وتحرّرًا من كل عقدة ٢٧٢
الخلاصة : عفّة يسوع ترتبط بخبرته الروحيّة الفريدة الخارقة ٢٧٦
حواشي الفصل الرابع ٢٧٨

مطبعة النور

جان أبو ضاهر

تلفون: ٠١/٢٨٦٩٨٩ - ٠٢/٥٣٥٢١١